مؤسسة عيبال

الطاهر وطار

تجربة في العشق

رواية

تجربة في العشق



مؤسسة عيبال للدراسات والنشر

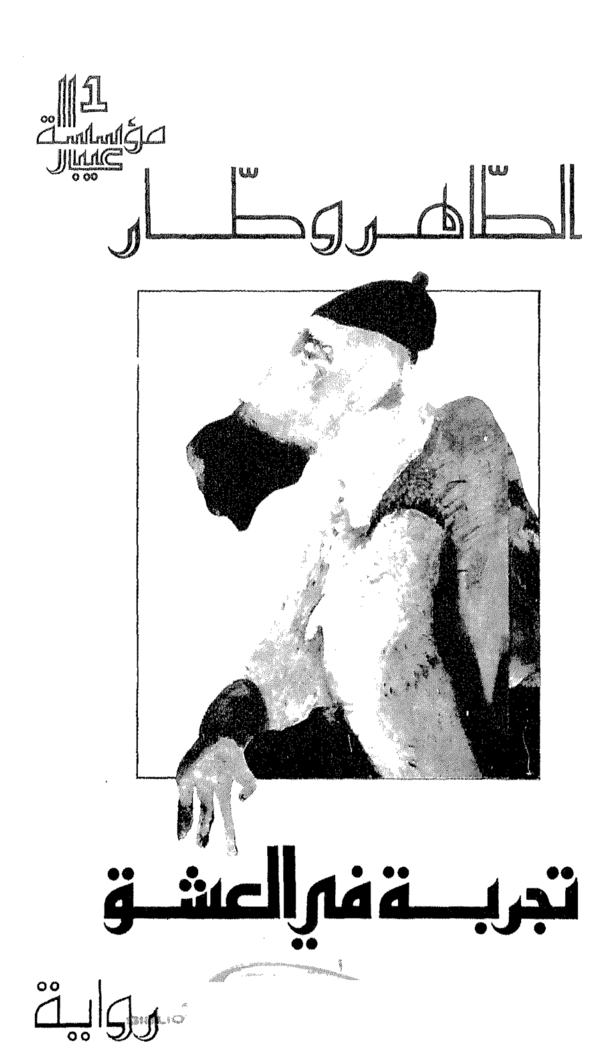
IBAL Publishing Institution L.T.D.

Tel: 455242, 455904
Telefax: 455569 Telex: 6517 IBAL CY P.O.Box:9558
70, Makarios Ave. No 401 Cyprus-Nicosia

الطبعة الأولى أيلول/ ١٩٨٩

الإشراف الفني وتصميم الغلاف
الفنان جمال الأبطح

لوحة الغلاف
للفنان جبر



مؤسسة عيبال
الطاهر وطار
تجربة في العشق
رواية

كلمة لا بدّ منها

قلت في ملتقى الـرواية الذي نظمه معهد العالم العربي في مطلع سنة 1988 معلقاً على ميشال بوتور وعلى فكرة ضرورة الثورة ضد أشكال الرواية القديمة ، أنني شخصياً ، وانطلاقاً من قاعدة جدلية الشكل والمضمون التي أعمل بها ، وأطبقها بصرامة ، أثور في كل مرة ينضج موضوع مافي ذهني ، ليس فقط ، على شكل الـروايـة العـام ، وانـما على الأشكال التي صنعتهـا أنـا نفسي ، فأحـاول ابتـداع شكـل ينسجم مع المضمون ، ولغة تتماشى مع الأجواء . حتى وإن تعددت في صفحة واحدة من فصل واحد من رواية واحدة .

ومحـاولـة وضـع قواعـد لروايـة جديدة ، أو تقنين لكتابة بعناوين مختلفة ، دعوة رجعية تقودنا طال الزمن أو قصر إلى المحافظة ، وإلى تقديس الشكل .

عدت بيني وبين نفسي إلى رواياتي وإلى قصصي ، فلم أجد تشابها بين شكل اللاز وشكل الزلزال ، وبين شكل عرس بغل وشكل الحوات والقصر أو العشق والموت في الزمن الحراشي ، ولا بين السزنجية والضابط والشهداء يعودون هذا الأسبوع ، هنـاك الطابع العام ، الذي تضعه شخصية الكاتب ، ولكن ليس هناك قالب جاهز يصب فيه الكاتب مواضيعه ومضامينه ، وأتذكر ماقيل حول مجموعة قصصي الأولى « دخان من قلبي » في كتاب أنطولوجيا الأدب العربي المعاصر ، واذكر أن الزميل الياس خوري قال معلقاً في « السفير » على ماأذكر عن الحوات والقصر . ان لهذا الكاتب طريقته الخاصة به .

فأقول إنني كذلك في كل مافعلت وما سأفعل ، لكن ليس بمعنى التجـريب المخـبري ، وانـما بمعنى افسـاح المجـال للمضمـون ليتشكـل ، وللشكـل ليتقـولب مع المضمـون ، وليتحرر في نفس الوقت ، من قالبيته وان طريقتي الخاصة بي ، هي العفوية النابعة من الثقة بالنفس ، ومن التعامل النزيه مع مضاميني وأشكالها . وأنني أثناء العملية الإبداعية أضع نفسي موضع الواضع للحن لا المؤدي له .

من هذا المنطلق أطلب من قرائي ، أن يتعاملوا مع كتاباتي ، ومـع هذه الـروايـة بالذات ، التي سيجدون فيها مذاقاً ، لم يتعودوه في باقي رواياتي .

لقد فرض علي المجنون ـ وهو محور هذه الرواية ـ جنونه .

ولـربـما لهذا السبب ، جاءت الـروايـة بهذه الطريقة غير المألوفة لدي . الفصول مختلطة ، يمكن وضعها كما صادف ،

كما يمكن قراءتها بالتسلسل التصاعدي مثل التسلسل التنازلي ، وبدون أي تسلسل ، الشخصية الرئيسية تتفكك بدل أن تنمى ، عنصر التشويق ، أو بالأحرى ، الخيط الذي يربط به الكتاب قراءهم الى العمل ، لا يتمثل في نمو الحدث وتشعبه ، وإنما في البحث عن وجود حدث ما ، يكون موضوع كتابة ، وفي نفس الوقت ، في التعمق في حالة الجنون .

تناقض كامل بين تمنطق صارم ، وبين تغيب وغياب منطق منطلقين ، ربما أنا شخصياً ، لا أرضى كقارئي عن بعض هذا ، لكن ككاتب ، اجدني مضطراً لتقمص شخصية المجنون ، ان لم أكنه بالفعل ، وأجدني مضطراً للدفاع عن الحالة .

لقد اقتنعت منذ سنوات بأنه ليست هناك قائمة قراء أضعها في حسابي ، وأن كافكا كان على حق ، حين رفض قائمة تتكون من معاصريه ، وهذا ولد لدي حرية التعامل مع مخزوني التراثي والحضاري والثقافي دون خشية أي مستوى آخر ، وحررني ، بشكل خاص من أسر القارىء الجزائري باللغة العربية ، حديث العهد بالأشكال الفنية الحديثة . والذي لايتاح له في مدارسه أن يقرأ الشعر الحديث أو الرواية ، ومعاصرته ، تتوقف عند ابن المقفع ، ومن يسمونهم بأعلام النهضة ، وحررني أيضاً من النقاد قصيري النظر ، أو المستلبين بحداثة يتنبهون إليها ، بعد أن تصير كلاسيكية ، وخاصة من أولائك الذين لا يتورعون ، من تلقين الدروس ، للمبدعين باسم قراء ، وباسم مناهج ، وباسم معرفة أطلعوا عليها فاعتبروها

حكراً لهم .

وأصارح قرائي ، بأن أحقر الكتاب النقاد إلي ، هم أولئك الذين يضعون في ذيل المقال ، قائمة أطول من المقال ، باسماء روائيين ، ومؤلفين وواضعي نظريات ، لا تجد ضمنها عربياً واحداً ، وكأنهم أعدى أعداء هذه الأمة التي تفوق ثروتها الإبداعية ، ثروتها البترولية .

إن الحداثة بالنسبة إلي ، هي ماينبع مني أنا ، وأنا منسجم تمام الإنسجام ، مع كل ماوصلت إليه الإنسانية في جميع المجالات ، وفي نفس الوقت مع كل مايجعلني كاتباً عربياً ، يسكن أفريقيا ، على حافة البحر الأبيض المتوسط ، مهما كان أمره ، فهناك شيء مايربطه بالناس في حيدر آباد ، وفي ألماطا عاصمة كازاخستان ، ومهما كان أمره أيضاً ، يشق عليه ، بل يرفض ، أن لاتكون له شخصية ويرفض أكثر من ذلك أن تكون شخصيته من بلاستيك .

أختم هذه الكلمة ـ تأشيرة وضع الرواية بين يدي القارىء والناقد معاً ـ بلفت الانتباه ، إلى أن الشخصية المحورية ، للرواية حتى وإن تواجدت في تاريخ الجزائر الحديث ، لم يوظف منها في الرواية ، إلا حالتها التي هي حالة المثقف في هذا البلد ، وأن كل ماعدا ذلك ، هو من الضرورات الفنية لبناء الرواية ، شأنها في ذلك شأن باقي شخصيات رواياتي ، وإلى أني لم أشأ نشر الرواية في مطلع الثمانينات وهي فعلاً ـ كما أعلنت ذلك سابقاً ، من انتاج تلك الفترة ـ حتى لايستغلها الخصوم السياسيون .

أما وقد أصبح كل شيء تاريخاً الآن ، فأنني أنشرها ، كأحد مشاريعي في السبعينات وكخاتمة ، لرصد حركة التحرر الوطني في الجزائر من 1962 إلى 1979 .

الجزائر 1988

التسمع التاسع والتسعون بعد ...

عملية تحد حاسمة في حياتي . دوري . دوري .

ميم . . جيم . . نون . . واو . . نون .

ستكون بحق ، ضرباً من الادهاش ، لا يتفتق عنه ، سوى خيال ، غير مسؤول ، ولا حتى لبق ، عملية البحث عن القطرة الأولى التي كانت السبب في نشوء البحر ، أي بحر من البحار ، وحتى عن الوادي أو النهر ، الذي كان مصبه ، الأصل الأول فيه . البحر .

عملية اختصارية ، وتلخيصية ، فيها كثير من التواضع الكاذب ، والذكاء الصبياني ، ذكاء الجهلة الذين يعمدون إلى تلفيق المعطيات البدائية ، لتصير لديهم أمام محدثهم ، قضية ، أو مسألة ، ذات طابع علمي ، علماني ، على الأصح .

الكأس ، أصغر كأس ، عندما تكون ملآى ، أو حتى نصف ممتلئة ، هل يمكن التحدث ، بخصوصها ، في شأن القطرات . القطرة الأولى التي كانت الأصل في الامتلاء ، أو القطرة السبب في الرشوح .

على هذا الأساس ، يمكن أن تبلغ الحذلقة ، حد الحديث عن الذرة - الرمل الأولى ، بالنسبة للصحراء ، أو الكوكب الأول ، بالنسبة للمجرة ، والمجرة الأولى بالنسبة للمجموعة الشمسية ، ثم بالنسبة للكون كله ، كما يمكن الحديث عن الشعاع الأول ، في ضوء الشمس من صباح

يوم صيف ما . تختصر الفكرة كلها ، لتصير ، في سؤال خبيث ، عن ذرة الملح الأولى ، التي كانت القاعدة في تغيير طعم طبق ما لذيذ . ثم تتشعب إلى الشعب الذي اخترع الملح ، والمطبخ الأول ، الذي حصل له الشرف ، والمرأة الأولى التي كانت لها هذه الجرأة .

إنها لعملية سهلة ، لابتداع موضوع حديث ، ممتع ومثير ومشوق ومعجز حتى .

طبعاً ، هذا في حالة وجود تصور عام ، عن ذهنيات موجودة في الحياة اليومية ، لربما صادفها المرء مرات متكررة ، أخذ في الأول فوقع فريسة الاعجاب بها ، ثم لم يلبث أن اكتشف خطأه ، عندما راح يضيق بها ، شيئاً فشيئاً ، ويضطر في كل مرة ، إلى تكوين مبرر منطقي ، لعاطفته تجاهها .

هذا جائز جداً ، ويحدث يومياً لكل واحد منا ، وكم من واحد ، أوقفك عن قص حادثة وقعت لك ، ليقول لك ولمن حولك : لا . ليس كذلك ، انتظر ، فانني أعرف الحكاية ، من أصلها ، يعني . . . ويسكتك ، وتخصيص الوسط هنا ، أيضاً ، عملية حذلقة ، تشبه عملية قطرة الماء وذرة الملح .

ميم . . جيم . . نون . . واو . . جيم . . نون . الذين وقعوا في البئر ، ثم وجدوا منفذاً من هنالك ، يصب في كأس . لا . توقف.

دوري . . دوري . التسلسل يتواصل . دوري . دونها ، دون حكاية البئر والكأس . . .

المؤرخون ، قد يلخص أحدهم ، مسار التاريخ العربي كله في غير مجراه ، بحادثة السقيفة ، ومنا أمير ومنكم أمير ، حتى دون الانتباه إلى هول عبارة « منا ومنكم » ، بالنسبة للحظة الزمنية ، ولمصدرها ، وقد

يلخصه ، في حادثة « هذا كتاب الله ، نحكمه بيننا » ، أو حتى في خلية ما ، نابضة فوق اللزوم في مخ ابن العاص ، ولربما يلخصه في مقولة « من دخل البيت ودار سفيان » .

السياسيون ، بمعنى بعضهم ، طبعاً - فالتعميم في هذا المجال بالذات وعلى الخصوص ، بالاضافة إلى أنه غير علمي ، محرج في غالب الأحيان ، لكثير من الناس ، الموضوعيين ، الذين يتحاشون بكل الوسائل ، تأليب رجال الأمن والسلطة ، والأجهزة المختصة ، ضدهم . فاستحين المجال لأنفسهم ، ليقولوا لأصدقائهم ، ولخصومهم ، على السواء ، أنتم ، لستم ، في هذا البعض الحقير البغيض ، الذي ينبغي أن نتضامن كلنا للقضاء عليه - يلخص التبعية للاستعمار والامبريالية ، بجودة الخدمات التي تقدمها شركات الطيران الغربية ، أو بتخفيف رجال الجمارك لاجراءات تفتيش المسافرين ، خاصة ، المغادرون ، لغير بلدان الشرق الأوسط . أما الهزيمة المزمنة ، فتعليلها بسيط ووارد ، ولا يقبل النقاش ، أو حتى التداول : التجزئة ، والتجزئة ، وليس غير التجزئة ، موضوع افتتاحيات كل الصحف والمجلات والدوريات العربية ، وموضوع الارسال من الصباح إلى المساء ، وفي جميع الاتجاهات لكثير من الاذاعات ، والأصوات ، كثير هنا ، لها نفس الدلالة المدققة ، لعبارة بعض ، ولسبب ما ، ربما لغوي محض ، وردت دون غيرها . والتجزئة في أول وآخر الأمر ، لا تعني سوى الوحدة ، وهذه تعني ، عدم استغراب أو استبعاد أو حتى التضايق منها ، الهزيمة . هذا الشيء الكائن لحماً وجسداً ، العادي الذي لا يحدث سوى مرات متواترة ، في منطقة مرضية ، معروفة محددة ، ولأسباب أمكن حصرها واحداً فواحداً ، وبأعراض ، تم ضبطها من الألف إلى الهمزة في السطر .

ماذا لو بترت هذه الساق ، أو هذه الذراع ، أو هذا الثدي ؟

الـورم يمكن ، دائماً ، أن يستأصل ، وعمليات الاستئصال وارده، ومتكـررة، من قبـل ابن سينـا، وقد أثبتت نجاعتها باستمرار ، وهي ، وبالرأس المرفوع ، عربية ، دماً وحضارة ، والمثل ، من عهد العاربة ، ولربما البائدة ، يؤكد « قص الرأس تنشف العروق » . . .

مسألة رأس ، وبالتالي ، مسألة القطرة أو الذرة ، أو الشعاع الأصل ، وكل اضافة أو محاولة استزادة ، أو حتى تدقيق تدخل في إطار ، هذا هو أصل الداء ، لا تجلب في الأخير سوى مزعجات الليالي ، وما أبشعها ، ومـا أكثـر أنـواعها ، وما أكثر مصادرها ، فإذا ما هجم جيش النمل ، على المخ ، وراح ينقل الخلايا إلى الأوكار ، وفاضت الكأس ، وضاعت رأس الحسين بن علي . . .

ميم . . جيم . . نون . . واو . . واو . . واو . .

الأسلم أن تبقى المعـادلـة كما هي ، التجـزئة مع التجزئة ، تساوي الهزيمة ، والوحدة مع الوحدة ، تساوي التجزئة ، وعليهم ، المهتمين ، بشؤون الرياضيات ، والجبر بصفة خاصة ، أن يعدلوا الباقي .

رجـال الأدب والفن ، والثقـافـة ، والنـظرية الجـمالية ، وما يلخص بالاستيتيقية ، هم أيضاً ، وهم هنا أيضاً ، ينبغي أن لا تتعدى ، حدود بعـضـهـم . أو أكثـرهـم ، تعني وتستثني ، تعني مثـلاً الأسـاتـذة في الجامعات . . أهاه ! أولئك تأهلوا بإجازة قيادة الطائرات ، وهم في العرف الدولي ، يمكنهم أن ينزلوا أو يطيروا ، في السوربون ، أو كامبريدج ، أو الاسكنـدرية أو ـ ويا حبذا ذلك ـ الجزيرة والخليج عموماً . لقد عدلوا وعادلوا ، وهم فوق كل ذلك ، يحسنون ، بمعنى ، يمكن أن يستعملوا عبارات احدى اللغات العالمية ، وعددها ، ليس ستاً ، بالعد الخاطىء

للأمم المتحدة ، وإنما اثنتان لا غير ، والترتيب في هذا المجال ليس أبداً تفضيلياً ، إنما حسب الأبجدية : انقليزية ، فرنسية . أنا في غنى ، كل الغنى ، عن ذكر أسماء ، تبدأ بالألف أو بالفاء ، أو بالدال ، أو بالياء ، لا على سبيل المثال ، ولا على سبيل الحصر .

الاستثناء يشمل ، وهذا أمر لا بد منه ، أولئك الأقزام الذين يشغلون المطابع ، بهرائهم ، ويضيعون ، وقت المواطن العربي ، الذي قد يكون ، من وقت لآخر ، ثميناً ، في حالة قلب المعادلة ، والتفهم الواقعي ، لجدلية الورم والإستئصال ، ويضيعون ، وهذا له أهمية خاصة وقت الذين يحاولون ، تأكيد بطلان مقولة ، أن الكائن ، أي كائن ، معبر .

الحمار.. الجمل . الصرصور . اللقلق . الكلب . الحصان .

جي . . جي . . ميمي . . دوري . دوري . ولقد داهم القطار النملة التي تحمل مخي في كفها ، وتزغرد ، حيث لم يبق من الجثة أمام الكلب الأجرب ، إلا مخها ، وكان . . .

دوري . لا عليك . أنا متماسك ، ما زلت أتحدى ، وما يزال في جراب بني عمك ، بعض الرماح . كل كائن ، ويقطع النظر عن مستواه ، بقطع النظر عن محيطه وبيئته ، بقطع النظر ، عن الظروف الخاصة ، المتعلقة بتواجده ، وعما إذا كان في ربعه ، بترول أو ثورة ملكية ، أو جمهورية امبراطورية ، معبر . وان التعبير في هذا العصر ، وحسب آخر اصطلاحات الاقلاع والنزول العالمية ، لابد أن يكون أولا غير طبيعي ، وثانياً غير إنساني ، وخامساً غير اجتماعي ، ورابعاً وهذا ليس محل نقاش ، أصلاً ، غير خاضع لمفاهيم الهيكلية الثقافية والوطنية والقومية التي تحدث عنها ستالين ، بدقة ، والتي مايزال الغربيون يوظفونها ، عندما يتعلق الأمر بالتجزئة وتفكيك المجتمعات ، والشعوب ، وما شابه ذلك من المصطلحات

المحفوظة ، في ثلاجة التحنيط ، وتاسعاً ، وهذا بكل تأكيد ، من الاتيكات الأولية ، الدارجة انكليزيا وفرنسيا ، والمؤهلة ، بصفة التفتح ، التي لايمكن إلا أن تكتسب التأثر بكل ما أضفته من تأكيدات ، على هذه الصفة ابداعات أو ترجمات أو ايماءات ، اللغتان العالميتان ، المرفوعتان ، حسب متطلبات العالمية والعجمى .

اللعنة ، هل وصلت الى سابعاً أو ثامناً ؟ لايهم .

ماقيمة أن تقرأ في الهند ، أو في الصين ، أو في الاتحاد السوفياتي بطبعات ملايينية ، اذا لم يرد اسمك في قائمة منشورات احدى الدور الفرنسية أو الانقليزية ؟ معنى ذلك ، انك لست سوى المشاغب ، تعاكس الاتجاه العام ، وتتوجه ، وهذا مرض ملفت للانتباه أيضاً . نحو المشاغبين المعادين ، نحو المفهوم العالمي الجديد للأخذ بعين الاعتبار ، بنظرية وجود عالم جائع ، يستهلك من الأسلحة . أكثر مما يستهلك من البروتينات .

ج . ج . ج . ج . ج .

التعبير ، قضية ، لم تعد خاضعة إلا لذات العصر ، ذات القوانين المتبعة ، في المطارات العالمية ، أصلاً وفصلاً .

الكناريات والبلابل ، والشحارير ، صارت الآن تخضع للتهجينات التي توصل إليها علماء وهواة الطيور . ومربوها في ألمانيا الغربية ، ومن المستهجن جداً ، أن تستمع في غابة ما ، بكر ، ان لم تكن أمريكية ، لتغريدة طائر ما ، ومن العار ، كل العار أن لايكون في امكانك ، تصور مسبق ، لنشوء وتطور صوت الطائر ، والعمليات الاستهجانية ، التي خضع لها ، وسلالته من ناحية الأم . ومن ناحية الأب ، والخال والعم والأخت ، والحذاء والصابون وو . . الهر فاينخ . الذي أجرى عملية

جراحية للنملة التي أكلت المخ . . مج . . مج . . ججججج . . دوري ياعزيزتي . دوري . . آه .

يشمل الاستثناء أيضاً ، كل من سبق وأعجب بالقزم ، قبل أن ينال تأشيرة النقابة الملاحية الدولية ، وهو استثناء تاريخي ، في هذا الاطار لأنه يتجاوز المناضلين الغرقى المتلهفين حقاً . لكل قشة نجاة ، تصادفهم في عملية الغرق ، ولأنه كذلك يتجاوز كل المفاهيم التي ماتزال ، بأي شكل من الأشكال ، لا تستوعب معنى الأوروكومينيزم ، وآخر نظريات مؤلف كتاب « البنيوية فلسفة موت الإنسان » وضرورات الوحدة الوطنية في لبنان ، والبطلان المسلم به لمبادىء الواقعية الاشتراكية ، وبعض التسميات للحركات الوطنية والسياسية ، مثل الحزب الشيوعي السعودي أو في السعودية ، أو تواجد شيوعيين فلسطينيين ، خارج احدى الجبهتين . أو حتى معارضة شيوعيين سجناء للنظام . في حين يزور فيدال كاسترو ، بلد الرشيد .

الاستثناء يطول ويطول ، وقد يكون في الأخير ، من ضمن عمليات الحذلقة ، لكن وبكل تأكيد ، رجال الأدب ، المبدعون أحدهم ، بعضهم ، يوجز المسألة في أن الأدب في هذا العصر . دخيل على العرب ، وهو بالتالي تقليد ، الأصالة فيه تكمن في مدى مطابقة النسخة للأصل ، ثم أن المسألة أولاً وأخيراً ، ذات صلة كبيرة ، بالاقتراب والابتعاد ، من قمة الدراما ، تلك التي لم يلامسها أبداً ، صاحب زفرة ، « أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل » كما أن صاحب دمعة : « أيا جارتا أنا مقيمان هاهنا ما أقام عسيب » كان رومنسياً جداً ، ولا يمكن أن يكون لامسها أو اقترب منها ، إلا من عبر بحق ، بجناحي إحدى اللغتين المعهودتين ، أو تأثر بهما ويلعن في ذات الوقت ،

ايتماتوف وتشيخوف ، وكل هاته الأسماء التي لا تتواجد إلا في السوق . . في عدن ، و . . بالترتيب التفضيلي ، في الأردن والأرض المحتلة والجزائر ودمشق وليبيا وبغداد ومدن الخليج والسعودية ، أثناء المعارض التجارية للكتاب العربي ، أتحدى كل واحد ، أن كان هناك من اقترب من جبال الهملايا ، لا ليصعدها ، ولكن على الأقل ، ليتأملها ، من جنس العاربة ، والمستعربة .

يلعن . . ميم . . جيم . . ميم . . نون . دوري . . دوري الخيط ضاع . رأس الخيط ضاع . فلت . أين كنت ؟ دوري .

اللعنة على الخيط ، وعلى رأسه ، . . آهاه ، وعلى كل من خاط سروالاً لعربي ، أو حجاباً لعربية .

المواطن العادي ، العنصر غير الفعال ، في الحساب ، والقيمة المتدنية في العملية التقييمية ، اللاز ، ولد ، العاهرة مريانة ، الفلس المفلس ، في عملة قياصرة الروم ، الذرة الأولى ، والقطرة الأصل ، هي في نظره ، هم . . هآههه . هه . كائنة .

هو كائن بقطع النظر ، عن لونه ، وعن دينه ، ومهما كان القمقم ، الذي خبأه فيه ، سيدنا سليمان ، كلا . سيدنا ، هذه نشاز ، ولتحذف ، إذن .

حتى وإن صاح الديك دون موعد ، أو ولدت النملة فأراً ، مج . . واو . . نون . .

هم ، بالتالي ، ذرة ، مجموعة منهم ، لا أول ولا آخر لها .

تبدأ في فترة ، غير محددة ، تاريخياً ، بصفة كلية شاملة ، تشبه صفة امتلاء البحر ، أو انطلاق ضوء الشمس ، أو انبعاث النبات في حقل من الحقول .

ومهما كانت نيتك حسنة .

ميم .. جيم .. المهرة تركب فوق دمية القط الأسود ، وعينا الغراب الأحمر . مشحونتان بالشر والخبث ، والنملة وقفت في طريقه .

لا . لا . لا تتوقفي . دوري . دوري . فأني أعرف ماأقول .

ومهما كان مظهرك ، معبراً ، أو تقمصك ، لدور المضطهد متقناً ، فأن قناعتك ، وقناعته ، بأنك جزء ، لايتجزأ من هم ، يظل راسخاً ، غير قابل ، للتزحزح ، أو حتى للنقاش .

هم الأصل .

أنت واحد من الـ « هم » .

وأنا! هذا الأجنبي تماماً ، عن هم ، لا هم لي إلا أن أنآى بشكل نهائي عنهم .

هم أيضاً لا بداية ، ولا نهاية لهم ، وهم في أول وآخر الأمر ، عملية تشكلية ، كلية ، في الأصل ، تعني ، أن الإهتمام بالموجود ، أفضل من الإهتمام ، بالجزء الأول الموجود منه .

لم يصعد ، أو حتى يحاول ، واحد منهم ، إلى قمم الهملايا .. وإذا ماسكن أحد ؟

نون .. واو .. جيم .. جيم .. دوري . لا عليك . قل أعوذ برب الفلق .

المعـــزي . العـزاء بالتعبـير الألـطف . أن علماء النفس على عكس الجميع ، بما في ذلـك ، رجال التيكنولوجية ، وفرسان خيول السباق ، يعـرفـون أن أصل الحركة ، واحد . يعرفون ذلك ، قطعاً ، بصفة غير أحادية ، وعامة وشمولية .

يمكنهم ، وفي الحقيقة ، لايمكنهم ، اطلاقاً ، ومهما كانت الأعذار ،

أن يستنــدوا ، إلا على القـطرة الأصـل ، والـذرة الأســاس ، والمصب الجوهر ، والرشفة المسكرة ، والبسمة المميتة .

دوري ، وإلا قذفت بك في حوض الحمام .

من قال أني كذلك ؟

المصـدق أيضاً للحقائق العلمية ، الأولية ، في أن الكون الفضائي ، الرحب ، يتكون من مجموعات شمسية ، تتركب عموماً من الهيدروجينات ومن الغــازات ، ـ إذا ثبت ذلــك ـ تعــرض ومنـذ ملايين السنـين ، لتفاعلات ، تنتهي إلى انفجارات ، ثم تجزؤات ، ثم تشكلات أخرى ، وأن أقصى معلومــاتنـا ، أن الحياة ، لم تثبت بعـد ، في غير الكـوكب الأرضي ، هذا الذي ندوس عليه ، صباح مساء ، وأن الضوء ـ كثيراً من الضوء الذي نراه في الليل ، حدث منذ ملايين السنين ، وانطفأ ، وكابد وكابد كي يمكننا من رؤيته .

وليكن في الأمر مليون جيم .

لا يهمك . دوري .

طبعـاً الحياة ، كما نعـرف ، وعـلى ما نعرف ، والنسبية معقولة جداً جداً ، في هذا المضمار ، كما هو معقول المستوى المعرفي للبشرية ، الذي فيما عدا الشؤون السياسية ـ شؤون النفط ، والمواد الخام ، وتفضيل عرق سامي ، على عرق سامي آخر في قضية الشرق الأوسط ، وتحديد الموقف الصحيح من الولايات المتحدة الأمريكية ، أهو موقف عرقي ، من أجداد أوروبيين ، كانت لهم الشجـاعة الكافية ، في زمن الخمول ، أن يخلقوا أروبا خيالية ، مبنية على الدم والذهب ، معمدة بدم الذبيح ، وخنجر الـذباح ، في نفس الوقت ، أم هو موقف مبدئي ، تجاه قوة امبريالية ، تستعمــل اللغــة الانقليزية ، والـدولار ، والصـواريخ ذات الـرؤوس

النووية ، وأفلام ألواستيرن ، والشوينغوم ، والجين ، والويسكي ، ومرض السيدا .

الدخان النافث من القاطرة ، وتصميم النملة ، وهروب المخ ، وتعاطف الريح مع النار المتأججة في القلب ، وتعنت الجان .

لا .

مع ذلك ففي الجراب رماح . وكل غريب للغريب نسيب .

تفوه . تفوه .

لا يكون المستوى المعرفي للبشرية ، أحادي النظرة ، إلى الحد المزعج ، فالأفلام الخيالية مسموح بها ، وبعض المخابر السرية الخاصة بالبحث ، عن الذات الكهربية للكون ، تنشأ هنا وهنالك . كما وأن عملية التسمع ، لأية حركة أو صوت أو ذبذبة ، أو نبض منتظم ، آت من الخارج ، متواصلة ، والأمل باختصار ، غير معدوم ، في شكل حياتي ما في كوكب ما ، في نظام شمسي ما .

وافتراض الموت . الموت الموت . فيما عدا هذه العمارة الصغيرة التي نحن بها ، الأرض . حبيبتي ومعشوقتي . أختي وأمي . ابنتي الأرض . مزبلتي الأمينة ، لا يؤدي إلا ، إلى اليأس الجنوني .

رغم التحايل الطويل ، ها هي الميم والجيم والنون والواو ، تتشكل ، وتفرض الموضوع من جديد .

لا بد لمجنون . لا بد ماذا ؟

ولا بد له . هكذا . لي .

وإنني لأقف على قدمي ، وبين يدي آلة تسجيل ، أنا أشعلتها ، وأنا أديرها ، وأنا آمرها وأتصرف فيها ، وأعيد الاستماع إلى ما فيها ، من حين لآخر ، ومستعد في أية لحظة لقذفها على الحائط ، أو للتغوط فوقها .

ميم .. ميم .. جي .. جيمم .

بالعبارة التعميمية الضاربة أطنابها في أعماق وجدان الشعب ، والمشكلة ، لأحد عناصر كينونته ، هذا الذي يجد بين لحظة وأخرى ، فرصة تقرير ، أن الجنون مسألة نسبية ، تقرير من الداخل ذي صلات موضوعية بالعملية ، ويعرف النسبية في العرف والأخلاق والمثل والقيم ، كما يعرف ، السوي من غير السوي ، والطبيعي والشاذ ، المؤمن بأن سقوط نجم ما ، إلى جزء منه ، لا يعني سوى رجم شيطان متسمع في مكان ما ، إلى كلام ، لا ينبغي له التطفل عليه . وقد كان للنملة رأس فيه تسعة وتسعون عيناً ، وفم واحد ، وألف ذراع ، ومليون أذن . . أما المخ الذي كانت تمتصه ، فلا يزن سوى عدة غرامات ، رغم أنه من فولاذ .

ميم .. ميم .. مج .. مج ...

انقطع خيط تفكيري . تحايلت على قطعه . هل تقطع ، قبل الآن . ليكن . فلا بد من العودة إلى الجنون .

الكثيرون في حالة الضيق واليأس ، من حل المسألة الاقتصادية ـ الاجتماعية ، وعدم التلاؤم مع المحيط ، والجازمون ، بالثواب والجزاء ، والحياة الأخرى ، وبانتصاب ملكي الحسنات والسيئات ، واحد عن اليمين ، وثان عن الشمال ، يجدون في حياة الطفل ، وفي حياة الكائن الأبكم ، بصفة عامة ، وفي وضعية المجانين ، الطريق الميسر ، نحو جنة الخلد ، ورضي الله .

لكن ، « لا من عاد من القبر ، وجاء بالخبر» . لا مجنوناً ، قال الحقيقة عن نفسه .

أهو مجنون طوال الوقت . الأربع والعشرين في الأربع والعشرين ، أم

هو مجنون ساعات معدودات في اليوم ، ومورط في الجنون ، باقي الوقت . يعيش ، دائرة في الظلمة ، دائرة في الضوء ، دائرة في الصحح ، دائرة في الكـذب ، دائرة في الملح ، دائرة في الماء ، دائرة في الوعي بالقيم والمثل والأخلاق ، ودائرة في التحلل النهائي من كل قيمة مكتسبة ، أو واردة ، من خارج الجهـاز العصبي ، المعمـل الضخم ، للحقـائق والصـور والخيالات والأوهام ، وكل ما يحقق الذات ، تجاه النور والظلمة ، والجوع والعطش والخوف والجنس والجاذبية .

قاهقاه . ققا . قاقاه .

برجوازيتنا الوطنية ، الثورية الاشتراكية الدليل القائد ، سليلة جيش وجبهة التحرير الوطني .

خسئتم . خسئتم . تستعملون في حقي عبارة مجنون . أيها المجانين . يا من تخافون من النملة ، وأنتم تعرفون أن المخ من فولاذ ، لا يمكن أبداً أن يأكله أحد . . ثم لماذا تنسون القطار الذي لا بد وأن يفاجىء النملة في الوقت المناسب ؟

استمري أيتها المجنونة في شغلك .

إنـه لتنـازل كبير أن تستعمل معايير غيرك ، في الحكم على حالة من الحالات ، التي وجدت نفسك ، بصفة من الصفات ، تعيشها ، بملء اختيارك .

توقف . . .

عبارة الاختيار ، يبدو أنها غير ملائمة ، وقد تعوضها الجوارح ، كما قد تعـوضهـا ، كلمـة الفهم ، أو التـذوق ، أو الرضى ، أو على الأقل ، الحماسة . ولم لا ، النملة أو القطار؟

كلمة التنازل بدورها ، عندما يتعلق الأمر بالعشق ، بتوحد ذات في

ذات أخرى ، لا يمكن أن تبلغ أو توطأ ، أو تتجسد ، حتى وإن مزقتها إرباً إرباً . قليلة ، بدورها ، عبارة التنازل . تصبح قليلة ، إلا إذا كانت تعني الخيانة .

لتكن الخيانة ، إذن ، الكلمة المناسبة .

مسألتي أنني عاشق . مسألتي أنني عاشق ، حتى الجنون . نون نون . جنون . عاشق . عاشق . هذه مسألتي . ولا نملة ، ولا قطار ، وليؤكل المخ الفولاذي ، ولينفث القطار الدخان ، فعما قريب ، لن يكون هنالك قطار ، أو حاجة إلى قطار . سيسافر العاشق على ظهر العشق ، ولن يحتاج إلى وصول .

مجنون . مجنون .

ليرجع الجيم والميم والنون . لتعد ، كل الحروف المخيفة . فمما لا شك فيه أن حالة الجنون ، هي الحالة الأقرب ، إلى التصور ، وإلى الفهم ، وإلى الأذهان ، في جميع المستويات ، وهي ، لعلها ، الحالة الطريفة ، المنسجمة مع الذوق العام .

م . . ج . . ن . . و . . ن . اتفقوا كلهم ، على أنها الكلمة الصالحة لي ، في حالتي . استعملوها بتواتر صارم . ليكن .

ليكن .

رأوني في حالة العشق ، فاستعملوها ، استعملها ، كل من شاهدني ، بعضهم ، استعملها بلا مبالاة ، لمجرد تحديد العطب الذي أصاب الآلة التي هي أنا ، البعض ، لأنها الكلمة الأقرب في معارف ذاكرته القاموسية ، البعض للتدليل على تضلعه في علم تناسق السلوك البشري ، الأطفال ، برروا بها غزواتهم ، ضدي ، ليدموا جسدي بالحجارة ، وبالأغصان الرطبة والجافة ، وبالمهازيم من كل نوع ، مستغلين صبري

الصمـوت ، أو إنشغـالي الروحي ، بمن أهوى ، أو رضاي التام ، أو بعبارة أدق ، غيابي عنهم . أما أنا ، فأنني أستعملها ، على سبيل المجاز لا غير ، لأنني حتى في حالة اقتناعي ، بصحة العبارة ، لا أتصور الجنون ، نصف الجنون ، أو الجنون ربع الجنون ، أو الجنون ، بعض الجنون ، وإلا مامعنى أن أعود في الليل ، إذا ماعدت ، فقد يحدث كثيراً ، ان أبيت عنده ، هنالك فأناقش حالتي ، جزئية فجزئية ، وحركة فحركة أسجلها ، وأعيد التسمـع إليها ، وأعيد ، باحثاً ، ياالهول ماأقوم به ، عن الأصل الأول لها . القطرة التي أوجدت البحر ، والذرة التي أوجدت الصحراء ، وحبة الملح التي غيرت الطعم والمذاق .

آه آه . تفكـيري منـطقي ، عقلاني ، متسلسل ، ومتماسك . يفوق تفكير أعقل عاقل عروبي ، وحتى اذا ماتسببت النملة في انقلاب القطار، وقالت ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم . لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون . . ويشعرون .

الحظ . أنني مازلت وطنياً ومازلت عروبياً . وأسجل أنها ، عروبياً ، لم ترد جزافـاً ولا اعتبـاطاً . بل أتى بها الوعي . في أقصى درجات تيقظه وخبثه ، مقابل قومياً .

ألا يكفي كل هذا للتدليل على أنني لسته . . المج . . على الأقل ، لسته ، كله ، كل ماهنالك ، أنهم . هـم . قالوها ، دون أن يدروا ، بها يكابد العاشق .

لتتكـرر ، فأتـأكـد منهـا : عاشق . عاشق . عاشق إلى يوم الـدين والقيامة ، عاشق ، حتى وإن مرت فترات صحو مثل هذه ، أراجع فيها ، محتويات بعض جيوب الروح .

في النهار ، وهي ساطعة ، تزهر الدنيا ، وعلى مرآى من العباد وربهم ،

تتأجج النار ، لتعود الى الخمود في الليل ، في بعض الليالي ، في بعض اللحظات من بعض الليالي .

أصرح جازماً ، بأن العروبية ، هي الحد الأقصى الممكن ، والمطلوب ، وأن القومية ومترادفاتها ، استلاب من نوع خاص . يؤجل كل أشكال الالتزام إلى يوم العثور على النقطة والذرة والقبيلة والفخذ والامارة والمملكة والجمهورية الأصل . وأنها ، حبة حلوى ، تذكر الإنسان بأمه ، وتعيده إلى صدرها ، وإلى حلمة ثديها .

الحظ ، أيضاً ، أنني أممي في كل ماسلف من تفكيري لم يأت ذلك نصاً ، ولكن هناك من التلميحات ، مايكفي .

مازلت مثقفا ، أهتم بشؤون الإبداع ، والعطاء ، وألمس الخلل في منهج النقابة الملاحية البئيس ، تحضرني فوق كل ذلك أسماء وأسماء .

أنا . أنا مازلت أنا ، الصلب المتماسك . وليلعقوها حروفهم المثيرة . ميم . جيم . نون . واو .

إذا كان يتعذر علي أن أفكر في النهار ، فلن أتوانى عن ذلك ، في الليل . وابتداء من الليلة ، والليالي القادمة ، سأفكر .

رغماً عنهم ، سأفكر ، سأقول لها ، كل مايبدر بذهني لن أخشى أحداً ، لن يكون هناك أحد . يلغيهم العشق في النهار ، وتلغينهم أنت في الليل .

أطرح تفاصيل هذا الشخص الذي هو أنا ، المتهم بالجنون . . نون . . جون . . نوو . . وإذا ما الديك الأحمر سال دمه ، ولعقه القط الأسود ، وظل المخ الفولاذي ، يصارع النملة ، واضطرب الجان في موقفه، فما يهم ان انقلب القطار أو خرج عن القضيبين الأمردين ، وإذا ماأكل الصرصور البني ، ذو العينين النوويتين ، آلة التسجيل هذه ، ابنة

عمي ، ألم يقل العرب «ملس من طينك إذا ماجاء برمه يجي كسكاس » ثم أن النملة تكـبر وتكبر ، بقدر ماتكبر ، يتبدى القطار أصغر ، عندما يدهمها ، يمر بين رجليها ، وتظل هي تلوك المخ الفولاذي وتقهقه ، يظن القـطار أن قضيبيه اللئيمـين لن ينتهيا ، ناسياً أنهما ، ليسا سوى ساقي النملة ، وأنها حين تلتفت الى الخلف ، يكشط لسـانها الجزء الأكبر من المخ . وأنـاقشهـا كل التفـاصيل ، بقطع النظر ، عن القطرة الأولى ، أنـاقشها ، واحدة ، فواحدة ، بكل ماتقت إليه من صراحة في حياتي ، بكـل ماحـرمت منـه من شجـاعة وجرأة . أقول للصح ، أنت صح ، وللخطأ أنت خطأ ، للملح أنت ملح ، وللماء أنت ماء .

التفكـير غير الحلم ، غير الخيال المتقن ، الذي ألجأ إليه عادة ، كل ليلة ، لأنيم به نفسي ، بدل الاذاعة الليبية ، حين أعجز عن مد يدي للمذياع ، فأشعله ، وبدل المخدرات ، وحبوب التنويم التي أكرهها ، أنا لا أبـذل جهـداً بدنيا ، أي جهـد بدني اطلاقاً ، وعندما أجد نفسي في الفراش تكون عضلاتي على نفس التوتر الذي اعتراها في الصباح ، وتأبى اعصابي الإفلات مني ، لإعادة عملية التوازن . . اصبعي هنا ، يلعب لعبـة معـاداة البرجوازية . هذا جيد . اللاوعي لم يستطع أن يفلت من الوعي ، اللص ، مسكت به في حالة تلبس صريحة .

ربما يتوجب علي أن أكون أكثر تواضعاً ، فأكتفي بدل استعمال عبارة التفكير ، بالقول ، بعملية الاستعراض المنسق لحالتي ، حالتي المسكينة ، في نظرهم. حالتي العـزيزة . . رغم أني أعجـز ، عن تذكـر التفـاصيل كلها . خاصة ، تلك النهارية .

في النهار أنا لاأعرف كيف أفكر . أنني أعيش لاغير ، كل جوارحي ، كل خلايا جسدي وروحي ، كل ذرات دمي تعيش .

جيي . . جيم نون . لا . كلا . أعيشهـا ، الجيمات والنونات بكل جيميتهـا و نونيتهـا بكل تلك الرخاوة المشحونة في الجيم ، وبكل ذلكم التوالد ، المختزن في النون .

قد يأتي اليوم الذي أسجل فيه ، كل هذا ، في مذكرات مكتوبة أو في روايات ، أو مسرحيات ، أو في شبه شهادات أدبية عن عصر العبقرية ، ليس هذا وعداً ، فقد ينقطع العشق فجأة ، وقد يتواصل بالليل أيضاً ، من يدري ؟ لكن هذا أمل ، وقد تساعدني «فجرية» على تحقيقه .

التفكـير بالصـوت! قد يكـون رائقـاً ، أفتـح قوسـاً لأسفههـم ، مرة أخرى ، أثبت خطأ لغويا شاع في العربية ، بسبب استناد ملاحيها ، إلى اللغتين العالميتين في كل شيء .

التفكير بالصوت العالي ، أو الصوت المرتفع ، الحظ انني شخصياً ، استعملت التفكير بالصوت دون أي نعت آخر .

ويحهم . التفكـير في الأسـاس ليس سوى فيض داخـلي للمخ ، قد يتحول إلى حروف وكلمات في حالة الكتابة ، وقد يتحول إلى أصوات في حالة الكلام ، لكن عندها يتحول الى هذيان جنوني ، ج . ج . جن . ووون ييي .

المجانين ، الكلاب . كأنما أنا الذي يمتلك الاذاعات والتلفازات ، وحق تنظيم المهرجانات ، وبيع وشراء حليب النمل ، والقطط السوداء ، والديكة، ولو لم يكن النسق العام لجلستي هذه يستوجب استعمال عبارة التفكير ، لما لجأت إلى ذلك ، ففي قناعتي أن التفكير لايكون بالصوت اطلاقاً ، لا العالي ولا المرتفع ، قد يجوز أن يكون بالكلام ، ويقطع النظر عما يجب أن يسمى به حينـذاك ، وأن الاوروبيين الـذين ترجمنـا عنهم المعنى ، كانوا ومازالوا يقصدون بذلك ، الاحتجاج تدليل آخر على أن

ذاكرتي قوية ، وعلى أنني أحسن لغة أخرى غير العربية ، وقد أمتحن في الليالي القادمة ، يونانيتي ، بإعادة قراءة اسخيلوس ، بلغة : بروموثيوس في الأغلال . بروموثيوس طليقاً ، سأعيد قراءتها ، ألا يكفي هذا دليلاً على أنني ، أبعد ماأكون عن الج . ن . ووو. .

ليذهبوا الى الجحيم ، هم ووقارهم المصطنع ، وبذلاتهم المكوية ، ورباطات أعناقهم ذات العقد الصغيرة وأحذيتهم اللماعة ، وبسماتهم الملفوفة في السيلوفان ، وأرواح جداتهم الشريرة التي تسكن جزر الواق واق مع الديك الأحمر والقط الأسود حالبات القمر في القصاع .

لا . دوري . . لا تتوقفي . الكلام الكلام . التفكير بالكلام بالصوت . أين كنت ، آه . إلى الوراء قليلاً . قليلاً . أيضاً .

آهاه! عنده بروموثيوس . هذا الإنسان الاله ، أو هذا الاله الإنسان ، لا شك أنه بدوره كان عاشقاً ، وإلا لما فعلوا به ، مافعلوا ، لا شك أنه كان يعيش الحالة بين الحالتين ، والمنزلة بين المنزلتين ، لاشك أنه ليس سوى أنا ، كيف لا يكون ذلك ، وكبده ينهش في النهار ، ويعاد إليه في الليل ، حينما كنت في وضع الطفل ، يرحمك الله يازمن نهش الأكباد المتخلف ، أمام زمن نهش الأمخاخ ، ماكنت أيام بروموثيوس أسمح للنملة العاهرة ، أن تسرقه مني ، وتتمدد بين القضيبين الأمردين، تتحدى القطار ذي العينين المسحورتين .

دوري . دوري . نعم . لم اللف والدوران ، فأنا لم أؤمن ، قط ، بوجود بروموثيوس ، ولا بوجود زيوس ، أو إيزيس ، ولا بمزمار الشمع الذي أنامت أنغامه « آرغيس » وأغلقت عينيه المائتين ، ولا بالابن حامل الاسم البربري « أب أفوس » . هذا تدليل آخر ، على أن لغاتي ،

وبالتالي ، ثقافتي متنوعة ، وهي راسخة في ذهني لا تغيب عن ذاكرتي ، حتى في أحـرج اللحظات . وأقسم بها هو غال عندي بمعشوقي ، أنني لست أتبجح ، مثل تورغينيف ، بمعارفي . إنها مجرد تدليل ، كما قلت على تفـاهتهم ، وعـلى أنني لست . . ويجيء القـطار في سرعة البرق ، لكن النملة الوقحة تظل تتحدى ، وتركب جدة أحدهـم أثافي من شمع ، فتثب إلى القمـر ، تخطف حفنة من ترابه ، وتذرها في عينيه ، فلا يدري أهو منهوش الكبد ، أم هو منهوش المخ ؟

ويجن جنونه . قاه . قهقه .

تجري البقرة ، وتجري ، تقطع البحار والوهاد والشعاب ، تبلغ مصر . يكـون قد مرر يده على ظهرها ، فحبلت منه ، وعندها ، عند النيل ، تلده ، فيسقط معاوية ، مؤسسة الدولة الفاضلة على يد يزيد ، فيختطف سلمى من بركة الماء ، ويفوز الجسور باللذة .

عنـدمـا يقتل أب أفوس أباه ، يتحرر بروموثيوس الاله ـ الانسان ، والانسان ـ الاله . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ، ويمر القطار ، ولا يذكر الناس من الآلام ، سوى آلام بروموثيوس ، وينسون آلام البقرة « فيرة » المسكينة ، وآرغيس ألم يكن بدوره مسكيناً ، أليس حمل مائتي عين أهـون من حمل مخ فولاذي ، بين أسنـان نملة لئيمـة . كانت جدة أحدهـم ، ما أرجلها سوى أثافي تطوف بها المجرات ؟

من يدري ؟ فمن الجائز جداً ، أن يكون تاريخ البشرية ، قد عرف أو شهد بالتدقيق ، وجودهـم جميعاً ، فيرا ، وزيوس ، وبروموثيوس ، وأب أفـوس ، لكنـه أسخيلوس ، في العملية ، عملية تسجيل الـذاكـرة ، البشرية ، تصرف كثيراً . لخص من جهة ، وأطنب من جهة ثانية ، فوق الحد المطلوب . استعملت المطلوب ، بدل المسموح ، ربما ، هذا فاصل

وهمي ، فقط ، بين القمع والرقابة الذاتية ، لا غير .

ويليام جيمس ، الفيلسوف الذرائعي ، يا لها من ذاكرة قوية ، لم . . ج . . جـ . . لا . لا . واصلي الدوران ، لا يهم . لن أقع . لن يغمى علي ، الآن . على الأقل . جيمس ، كنت أقول ، أثر في ، بمقولته المعترفة بأن للخرافات والأساطير ، والميثولوجيات ، أصلاً واقعياً ما ، علينا أن نبحث عن جذوره ، أو على الأقل أن لا نستهين به ، وأن نرتبه في ركن ما ، من الذاكرة ، حتى يأتي العلم ، فيكشف عن مكنوناته وخفاياه .

ربما ، هذا ما جعلني أذكر قبل الآن . الذات الكهربية للكون . هل فعلت ذلك حقاً ؟

سأتأكد في التسمع التالي الليلة ، إن ظللت واعياً . . فمسألة الجن والشياطين والأرواح التي تسكن الكهوف والمغاور والمقابر ، ومقولات ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين ، بالتأكيد ، لم ترد ، هكذا ، جزافاً ، ولمجرد سعة الخيال البشري . حتى عملية التناسخ هذه ، التي تقول بها الهندوكية ، وكل الفلسفات والديانات ، بشكل أو بآخر ، لا شك أنها تدخل في ما أسميه ، بالذات الكهربية للكون . ولقد شاهد علماء الحاسة السادسة ، هالة ما ، نورانية ، تغادر الموتى ، بعد دقائق من موتهم . ست دقائق على ما أذكر .

لماذا لا تكون هذه الهالة ، هي الروح ؟ ولماذا لا تكون الروح ، هي الذات الكهربية ، للكون .

هذه الهالة لا تستطيع أن تتحلل ، أو أن تتلاشى وتتبعثر . حتى هذا التلاشي والتحلل والتبعثر ، لا يدل أبداً ، على استحالة عملية التشكل ، أو التهيكل الجزئي ، لكل خاصية من خاصيات الهالة ، في كائنات أخرى ، حتى نباتية ، تعيد اتصالها بالانسان ، عند الاستهلاك ، أو

تسكن النور الشمسي ، وتعود إلى مسام الجسم ، في حالة كلوروفيلات وفوسفورات ، وما إلى ذلك . . حتى إذا ما حاولت الافلات من الفضاء الجوي للأرض ، وقد يفلت بعضها ، فإنها لا محالة باقية في محيطنا ، تهجر الكائنات ، وتسكن الكائنات . والعملية في جوهرها ، كلية ، لا ذرة أو قطرة أولى ، ولا جديد تحت الشمس . . ثم من قال أن عيني القطط ، خاصة السوداء ، ليست سوى مكثفات للأرواح ، أو منارات تهتدي بها الهـالات في الليل ، ولعلهـا محطات سفـر أرضية للجن . . جج . . االنن . . وون . خلية في مخ ، توصـل لاسلكياً ، بخلايا هالات ، في رأس ديك أحمر ، عبر أمواج ، متمركزة بين فكي النملة . . ؟

آه . آه . وصل . .. اقطع . اقطع . آه . آه .

دو . . دو . . دوري . . ها أنني عدت .

البحث جار ، متواصل ، وإنني لطليعي . وأجيء إلى المسألة من باب العلم ، وليس من باب الميتافيزيقا ، والخرافة . هو كذلك . هو كذلك ، ولا شك أبداً في مسألة التناسخ ، والذات الكهربية للكون ، والقضية ، قضية آلات قياس ، وقضية وقت ، ليس غير .

يا لها من عملية مخادعة ، جندت لها ، كل مخزوناتي ، قبل أن أصل إلى الحادثة المعينة ، والواردة قبل لحظات طويلة ، في خاطري ، كأني أبحث لها عن تبرير ، أو أمهد لتبرير معقول .

عملية احاطة استراتيجية مدبرة ، لا يمكن أن تصدر عن غير عاقل .

أهاه . وجدتها . نقيضه . العاقل . لكن ، كما أن هناك ، نصفه ، وبعضـه ، وهذا أمر أعرفه جيد المعرفة . لا بد أن هناك عاقلاً كاملاً ، وهناك نصف العاقل ، بعض العاقل .

يا لها من حدود ومسـافات ومساحات في جغرافية الأخلاق ، مع أن

العقل لا يعني أبداً التوازن . لأن هناك فرقاً كبيراً بين الامتثال والافتعال .

مازلت أحوط .

سخـريتي مثـارة فعـلاً ، الآن . لا شك أن بسمـة ساخرة ، ترتسم اللحظة على شفتي ، بل إنها بالفعل لكذلك . . حالة هدوء واستقرار ، ووعي ، أنا في مسيس الحاجة إلى تأملها ، وهي بكل تأكيد ، ثمرة جهدي الفكـري الواعي ، منذ جلست . النور مسلط على كل حركات اللص المتلبس ، وليس في وسعه ، سوى توريط نفسه . أي نعم .

المسألة المتخوف منها ، والمرغوب عنها ، أن حروف الجيم ، والنونات ، وردت أيضـاً على لسـان الوزير . وزيري أنا . الوزير على المديرية التي أرأسها ، والتي لا وجود لها في هيكلية الوزارة . ولا شخصية مالية لها . لكن مع ذلك هي مديرية . . لم يأت ذلك جزافاً أو صدفة ، أو عرضاً ، بل ، لقـد جاء نتيجة إيمان راسخ ، في . بأن بروموثيوس ، ليس سوى أنا ، عبر الزمن المطلق ، وكان ذلك الشيء الذي لا بد منه .

مجنون . مجنون . مجنون . م . مجن . . م . ج . نووو . . ن .

وانزلق القطار ، وخرج عن القضيبين الأمردين ، فابتلعته ضفدعة في بركة مجاورة ، مرسوم على رأسها حرف لام ألف ، فتحول إلى غاز لا لون له ، تسري فيه تيارات كهـربية فاتـرة النشـاط . لكن في الـواق واق ، استولت اللعينة جدته على الوضع ، وأجبرته على الزواج منها ، فلم يكن هناك في الواقع أي فرق بين النملة والقطار والمخ والأثافي ، ولا بيني وبين بروموثيوس .

مجنون .

قالها ، سعادة الوزير .

لم أفكر ، لا بالصوت ، ولا بالكلمات ، لأجعله يتفهم الوضع . لم تكن

الحالة يومذاك ، تتصل أو ترتبط بالعشق .

آه . على أن أدخل الفراش ، وأن أبدأ في التفكير المتخيل ، فالواقعة ، هنا ، انها كانت في النهار ، وأنا التزمت التزم ، بأن لا أتعرض اطلاقاً ، في محاولاتي التفكيرية ـ إذا سمحت اللغة العربية بذلك ـ في النهار .

ليلزم ، كل ، حده . ولتكن الحدود بين الاهانة والاحترام واضحة ، على الأقل في هذا البيت . والموعد الليلة القادمة . وكل الليالي القادمة . . الليالي طويلة ، طويلة والمجـال فسيح ، ويكفيني الآن جزاء ، قهقهة عالية ، حادة ، طويلة . . من الحادثة مع الوزير ، عندما فوجىء ببروموثيوس ينتصب أمامه ، واثقاً ، مكابراً .

طرراق .

إلى الغد يامسجلتي العزيزة، ياذاكرتي العجيبة، علي الآن أن أنام، أؤهل نفسي ، ليوم عشق قادم ، عنيف صاخب .

حبيبي ، ينتصب هناك ، يوهم الغفل ، بأنه مجرد ظاهر يسهم في التوازن .

باطنه لي ، وباطني له ، والذات الكهربية تسكننا ، والعشق يتواصل .

ميم . . جيم . . نون . . واو . . نون .

على أية حال أنا أسعد من الديك ، وأقوى من القط ، وأعظم من النملة .

الأغلال توجع بروموثيوس

حادثة بروموثيوس مع الوزير ، تعود إلى أسباب شتى ، تفرعت كلها على مايبدو ، من سبب رئيسي ، هو ضرورة أن يخرج المرء ذات يوم ، ذات مرة ، في حياته ، لسانه للعالم كله ، مجسداً في شخص أو هيأة ، أو جماعة ، قائلاً والزبد يتطاير من فمه :

ـ في هذا القدر كفاية . في هذا القدر من الامتثالية المغتصبة والجدية الكاذبة والوقار المصطنع كفاية .

لم يستعمل سعادته ، سوى عبارة واحدة . « هاه يمكنك ، الحضور حالاً » .

استبعد صباح الخير ، والسلام عليكم ، والسؤال عن الحال ، حتى النبرة العالمية التي تبعث الحياة ، في الأسلاك الميتة « آلو » ألغاها .

لم يسأل ، مع من يتحدث ، من هو الطرف الذي تفتحت كل مسام روحه ، وهو يرفع السماعة ، في الطرف الأخر من الخط الهاتفي ، ليتلقى أنباء وأخباراً وحالات ، الله وحده أدرى بكنهها ، وبدرجة وطبيعة تأثيرها على الانسان ، أهو حضرة المستشار ، المكلف بالتنشيط الثقافي ؟ أهي كاتبته ؟ أهو أحد أعوانه ، أهو أحد العابرين تفضل برفع السماعة ، أثناء تواجد حضرة المستشار ، بالكنيف يقضي حاجته .

لم يتح الفرصة لنفسه ، ليسمع صوت محدثه !

يقيناً أنه درس الخطة ، طوال الليلة الماضية ، لعله بذل جهداً أكثر من ذلك ، فعاد الى مراجعة أمير « ميكيافيلي » أو سيرة هتلر ، بل ربما لم يفعل سوى ان أعاد تمثيل دور ، يمثل عليه . من حين لآخر .

خطة جهنمية فعلاً ، لايمكن أبداً ، أن تكون عفوية أو غريزية ، حتى لو وضعها هتلر نفسه : ضاربة خارقة . ماحقة ، ذات آثار اانية وموقوتة ، بل ، مزمنة ، تفتح ثلماً ، في حصن الروح ، لن تتماسك بعده شخصية المرء .

«هاه . يمكنك الحضور حالاً » جملة مفيدة جداً مع قصرها . في الوقت الذي تضع حداً لعلاقة عريقة ، تعود إلى سني الكفاح الوطني ، حيث كان سعادته ، ممثلاً عادياً ، في الفرقة التي يرأسها ويقودها ، حضرة المستشار تجوب العالم لتقدم صوراً عن بطولات الشعب الجزائري ، وعن عاداته وفنونه ، وألبسته المميزة كلها للشخصية الوطنية ، عن الشخصية الاستعمارية .

سعادته ، يومها ، كان أكثر من صديق ، كان ابناً روحياً ، يتلقن الوطنية ، وفن الإلقاء ، والتعبير بالملامح . والتمثل الكامل للدور ، وتقمص الشخصية ، والتلقائية في الأداء .

اختارها ، جملة ، تشعرك بأن على حدبتك ، سرجاً أو بردعة ، وبأنك مروض ، تجد لذة في أن يكون صاحبك أو بالأحرى فارسك على ظهرك ، ينكزك بين حين وآخر ، أو يداعبك بكلمات ناهرة ، في الحين الذي تقوم فيه سدود بل جبال من العدواة ، والوحشة ، بينك وبينه ، توحي إليك بقليل من الألفة العائلية .

العائلية، بمعنى الزوجية.

جملة ، أقرب ماتكون إلى غزل محتشم بين زوج وزوجة ، . بينهما ذرية

صالحة ، وماض أجوف .

« هاه . بامكانك الحضور حالاً » .

تقمص تماماً . تماماً ، سعادته دور المسؤول الأعلى عضو القيادة الثورية تجاه حضرة المستشار ، صديقه القديم ، ومرؤوسه الحالي ، واستطاع بهذه الأشعة الثورية المباركة ، أن يلخص التقرير الذي رفعه الكاتب العام بتدخل من مدير الادارة الآمر بالصرف .

هذا التقرير الذي بلغ حضرة المستشار . فحواه ، قبل يومين ، من طرف عناصر ، مهتمة ، بمجريات الأمور الداخلية ، دؤوبة في إبداء استعدادها لكسب أصدقاء جدد ، بالتعبير الإنساني ، وأنصار جدد ، بالتعبير السياسي ـ النقابي ، أو النقابي ـ السياسي .

ومن يدري ، فلله باستمرار ، جنود من العسل ، فلعل أحدهم ، ولن يكون سوى معاليه ، أراد أن يكون حضرة المستشار موضوعاً في الاطار اللائق وفي الصورة .

نعم . لن يعدم الله ، أبداً جنوداً من العسل .

« كيف يمكن استدعاء شخصية ثقافية أو علمية ، بهذا الزعم ، وتقديمها إلى جمهور المثقفين والمثقفات ، من الطلبة والطالبات في مختلف المراكز الجامعية ، احدى ثمرات السياسة الرشيدة ، واللامركزية الثورية ، النابعة من دمقرطة التعليم ، وانزالها بفندق « الأوراسي » العظيم بدل « الآليتي » أو « آلبير الأول » أو حتى « سان جورج » في أحسن حالات وأكرمها ، والسماح لها بتناول المشروبات الروحية في المطعم ، وفي الغرفة ، على حساب الثورة .

في حين ، وياللمأزق الذي وقعت فيه الأمة ، في شخص حضرة المستشار المجنون ، ذي الماضي السياسي المعروف ، أن هذه الشخصية

المزعومة ، دائماً ليست سوى ، يماني ، فوق أنه ، بسيط ، متخلف ، مثل بلده ، ومثل كل العرب ، كفيف .

هاه ، يماني كفيف .

تصوروا ، يامعالي الوزير ، أن يمانياً كفيفاً ، يدعى عبد الله البردوني ، همم ، هكذا! عبد الله وبردوني أيضاً ، يرتدي جبة بيضاء بدون سروال ، أو حتى تبان ، عليها سترة رمادية ، ولربما ، يحتزم بسيف ، أو بخنجر ، في قدميه اللذين يشبهان حوافر أية دابة أو جمل ، بلغة أكلتها ، وفي قدميه الرمال ، يكون ضيفاً على وزارتنا ، التي تجسد ، وتمثل الجزائر ، بجميع ثوراتها الثقافية والصناعية والزراعية والتي ترفع لواء عدم الانحياز الحقيقي ، لا إلى هذه الكتلة أو تلك ، ولواء النظام الاقتصادي العالمي الجديد ، والجنوب للجنوب ، وافريقيا للافريقيين ، والبحر الأبيض المتوسط لسكانه الدوليين .

شهادة لله ـ قال مصدر حضرة المستشار ، النعت لم يرد في التقرير ، ولكن أنا واثق ، أن قلوبهم تهفو الى سادات جزائري ، متعقل وأن أعينهم ، تحول إلى اسرائيل ، وهم اليوم ، يخجلون من الجامعة العربية ، ومن لجنة المقاطعة ومن جبهة الصمود والتصدي ، رغم أن هذه الأخيرة ، لا ترد أصلاً في أي تقرير جزائري ، ماعدا تلك التقارير ، التي يكتبها ، العائدون من اجتماعاتها ، و التي لايقرؤها أحد ، لكنهم سيستعملون في المستقبل . عبارة الدوليين ، مافي ذلك أي شك ، أبداً . يا معليك ، جزائر الثورات ، التي آلت على نفسها عدم تصدير أية ثورة ، خاصة تجاه الدول العربية ، ذات النظام الملكي . الجزائر المؤمنة ، الايمان الراسخ ، الذي لا تزعزعه السياسة ، والنابع من تجربتها الفذة ، في تاريخ الأمة والبشرية ، بما في ذلك الفيتنام ، بالحرب الشعبية ، وبأن البناء القومي ،

لا يمر الا عبر سبيل واحد ، هو السبيل الوطني ، والوطني ، هنا ، ليس بالمعنى العربي الرجراج ، إنما بالمعنى الفرنسي ، وبالتدقيق « باتريوتيك » وهو المعنى المضاد ، طولاً وعرضاً ، شكلاً ومحتوى ، لحزب البعث العربي الاشتراكي الذي هو كما ثبت ، ابتداع امبريالي استعماري ، شأنه في ذلك ، شأن النظرية العالمية الثالثة ، الهدف منه أولاً ، واستراتيجياً ، مقاومة الزحف الروسي ، أو ما اصطلح عليه عالمياً ، بالزحف الأحمر ، وثانياً واستراتيجياً كذلك ، الهاء شعوب المنطقة ، عن البناء الذاتي ، ومهام التشييد الوطني .

لقد توصل علماء الامبريالية ، إلى تكوين نظرية كاملة ، عن الانسان العربي ، تتلخص في أن أقصى طموح هذا الفصيل من البشر ، أن يعيش خارج الدولة ، وبمعنى أدق ، بعيداً عن كل قانون وانضباط ، ما عدا الولاء الرمزي للقبيلة .

تكفيه بعض المثل والأحلام .

أن ينتسب إلى العروبة مثلاً ، فيقال له ، أن العرب أشرف جنس على الأرض ، حتى وهو ضابط سام في جيش أعدائها ، يعمل السيف في بني عمومته .

وحدة « الرقة » مثلاً مع «نواق الشط » ، أو وحدة تكريت ، مع تيزي وزو ، تغني النظام في كلا البلدين ، عن ربط الرقة بخط هاتفي مباشر مع دمشق ، وربط تكريت مع بغداد ، أو حتى بتوسيع البث التلفزيوني الوطني إلى هذه الأقاليم ، رغم أن مسألة التلفزيون هذه ، تتطلب دراسة أخرى . تراعي معطيات ، مجتمع القبيلة والزعامة .

الحمد لله الذي جعل بلادنا ، في منآى من أن يتهمها بالعروبة عالم أمريكي أو انكليزي ، أو اسرائيلي . أما الفرنسيون ، فإنهم يعرفوننا

جيداً ، وهم لا ينعتوننا بهذا النعت ، الا في حالة السب والتحقير ، وهم يقتصرون على عبارة « بيكو » فقط ، ولعلهم لا يقصدون بذلك أصلاً ، العروبة أو ما شابه .

نعم في عهدكم يا معالي الوزير ، الجزائر بكل ثقلها التاريخي ، وبكل مطامح جماهيرها نحو الخروج من العالم الثالث ، تستضيف عبد الله البردوني ، كفيفاً عربياً من اليمن ، ومن صنعاء بالذات ، حيث مازال الناس يرعون ، مثل الحيوانات ، أوراق شجر ، يسمى القاط ، ويبيعون الأسلحة الحربية ، في الساحات ، والأسواق كما تباع اللعب والأواني البلاستيكية ، والأنعام . تستضيفه ، لينير ويثقف ويحضر أبناءها . حتى لكأن المثل الشعبي ، « من قلة الوالي أقول للكلب يا خالي » يتجدد دفعة واحدة ، أو كما لو أن القدر ، يسخر من استقلالنا .

سماحتكم . تسامحتم في التنوع الثقافي والحضاري ، تمشياً مع الخطة الثورية للجزائر ، وقبلتم باقتران اسم « جاك بيرك » وغيره من أعلام الفكر والثقافة ، بأسماء محمود درويش ، ونزار قباني ، والاستاذ فيروز ، ذي الشهرة العالمية ، لكن ، وهذا مؤكد ، لم ولن تتنازلوا ، وحاشى أن يحدث ذلك ، أو حتى أن تظن بكم الظنون ، لمستوى حضرة المستشار ، الذي أسكن بردونياً ، بفندق الأوراسي ، أحد مفاخر ثورة المليون ونصف المليون شهيد ، وسمح له ، باطفاء غليلة الصحراوي ، بالويسكي .

تعلمون ، يا سعادة الوزير ، أن لوائحنا للصرف ، لا ينفذ منها أمثال هذا الشخص ، وأننا بالفعل ، لنقف عاجزين ، أمام المأزق الذي وضعنا فيه حضرة المستشار ، بتصرفه هذا الذي لا يمكن أن ينسب لعاقل . أننا نجد أنفسنا مضطرين إلى لفت انتباهكم ، وانتباه القيادة الثورية إلى أنه بالاضافة إلى تهمة جريمة سوء التسيير والتصرف في أموال الثورة ومكتسبات

الشعب الجزائري ، التي لايمكن أن نتحمل مسؤوليتها ، والتي يمكن أن توجه إلينا ، في أية لحظة ، فعين الثورة الساهرة لا تغفل ، والحمد لله . بالاضافة إلى ذلك ، فإن سمعة وزارتنا التي هي سمعة الجزائر ، في الميزان ، وقد عرضها حضرة المستشار للاهانة والخدش ولتقولات أعداء الثورة ، الذين لا يفوتون مثل هذه الفرص الذهبية ، ولولا الصداقة الشخصية التي تربطنا ، مع السيدة مونيك ، مديرة المركز الثقافي الفرنسي ، لبادر مراسلو وكالات الأنباء العالمية ، والصحف المتواجدون ببلادنا ، إلى نشر الفضيحة ، في الصفحات الأولى ، رابطين إياها ، بالتعريب واعتبرته احدى نتائجه الحتمية .

أقسم بالله العلي العظيم ، يا حضرة المستشار ، وإنك لتعلم ، مدى ، محبتنا ومعزتنا لك ، وأننا إلى جانبك في السراء والضراء ، أن التقرير أطول من هذا بكثير ، وأنه ختم بالتوقيع الصريح ، للكاتب العام ، وبعبارة ثورياً ، أو أخوياً ، وهذه الأخيرة أقرب إلى الاحتمال ، فبالاضافة إلى أن الكاتب العام ، يتفادى كل ما من شأنه أن يذكر ، بماضيه إبان الثورة التحررية ، فإنه لن يفوت هذه الفرصة الهامة ، دون أن يعمل على إزالة بعض الحواجز ، وإشاعة أواصر عائلية ، مشحونة في نفس الوقت ، بالتهديدات المختلفة ، أقلها ، القاء التبعية على الوزير .

ووالله العلي العظيم ، لا بد أن يكون استنسخ التقرير ، في نظائر متعددة ، وأن بعضها الآن ، بين أيدي المهتمين في جميع الأوساط ، والأماكن ، والأجهزة ، وأن السيدة « مونيك » بصدد كتابة مذكرة في هذا الشأن ، لا إلى بلدها فحسب ، وإنما إلى قيادة الحلف الأطلسي ، وأن المعارضات تنكب حالياً ، على دراسة الجوانب الايجابية والسلبية ، في إثارة مثل هذا الموضوع في مثل هذا الظرف . كما أن مراسل « لوموند » ، يطلع

أصدقاءه في القمة ، على فحوى مقالة حول . . .

ـ لا . اطمئن ، من ناحية مراسـل « لوموند » فهو مثقف ، ويعرف مكانة الشاعر ، في العالم العربي كله .

قاطعه حضرة المستشار ، ثم تقوقع على نفسه ، ساهياً ، عن المصدر الودود ، الذى كان يحاول قدر الامكان، انارته.

سعـادتـه ، بدوره ، قدر أن هاتفـه بيت من زجـاج ، لذا صاغ أمر الحضـور ، بهذه الصيغـة ، المحتملة وغـير المحتملة ، الـطالبة الآمره، المتوسلة الزاجرة .

يحار المرء ، فيما إذا كان هؤلاء الناس ، يتصرفون بالذكاء أم بالغريزة أم بالتدريب مثل الفئران في الأقفاص .

« هاه . في امكانك الحضور حالاً » .

لقد كان حضرة المستشار ، يتوقع المثول ، أمام مجلس اداري ، لتقديم التوضيحات كما كان لا يستبعد ، أن يكون الوزير ، سعادته يتتبع بصفة من الصفات ، خاصة العلمية الحديثة ، مداولات المجلس .

لكن الدعوة الشخصية بهذه الصفة ، بهذه الجملة التي لا يمكن أن تصـاغ ، الا من طرف ابن خلدون ، أو تيمـورلنـك ، أو ستـالـين أو دوغول ، في مفاوضات مصيرية ، يتمسك كل طرف فيها ، بكل ما أوتي بسيادته ، ومصلحته ، وحياديته ، ووعيه وتوازنه ، ويحرص كل الحرص ، في الـوقت نفسـه على أن لا تنقـطع شعرة معاوية ، أو على الأقل ، أن لايتحمل مسؤولية قطعها ، هذه الدعوة ، لم تكن متوقعة .

آه ، لو أن المرء يتمكن مرة في حياته ، وفي الوقت المناسب ، من اخراج لسانه ، من أن يقول لمن لايتوقعون ذلك أبداً منه ، ألزموا حدودكم أيها الحقراء . كفى . كفى .

يكون ذلك ، بمثابة اطلاق يد مرفوعة إلى فوق ، لكأس من الزجاج الفاخر ، لتسقط على الأرض ، نكاية في الذين يتلذذون مشروباً لاقيمة له .

آه . .

كان حضرة المستشار ، مايفتأ يتنهد ، ويحاول مع ذلك ، التظاهر بالهدوء ، رغم أن جمعه يلوح بالتهديد ، إلى اللوحة الزجاجية التي تغطي المكتب .

كان واضحاً أنه سيرفع يده أقصى مايمكن ، ويطلق الكأس ، أنه سيفعل ذلك ، لامحالة وفي القريب العاجل .

لكنه مع ذلك ، لم يفته اعداد نص بليغ ، عن دور العمي في تاريخ المشرق ، خاصة العربي ، حيث تتوفر أمثلة وأدلة ، وقرائن كثيرة ، بعضها يعود الى التاريخ القديم الذي أضحى ، في حيز التراث ، وبعضها يرجع الى التاريخ المعاصر ، الذي لم يهمله ، لا قاموس «لاروس» ولا كتابات بلا نشير ولا دائرة المعارف الإسلامية ، ولا رجال الاستشراق ، من كارل بوكلمان إلى جاك بيرك ، صديق الجزائر الحميم ، والذي لاشك في أنه يعرف عبد الله البردوني ، معرفة شخصية وانه يطرب لشعره .

إذا كان تاريخ الثقافة والآداب الغربية ، لم يؤثر فيه ، العمي ، أو بالأصح ، وحتى يكون المرء موضوعياً ، فيما يتعلق بتاريخ الآخرين ، لم يهتم فيه بدور العمي ، فان ذلك لا يصح أن يكون مبرراً للحكم على العمي ، في جميع انحاء العالم ، وفي كامل الحقب التاريخية .

على الجزائري بالذات ، إذا كان وطنياً حقاً ، أن يعرف انه كان للعمي في تاريخ بلده ، دور كبير ، فطوال عدة قرون ، وفي حين كان الغرب كله ، بدءاً من مالطة الى الولايات المتحدة الأمريكية ، يدفع الضرائب

والغرامات ، والتعويضات والهبات ، والفدي ، للجزائر المحروسة كانت القلعة العظيمة ، توضع في الليل بين أيدي العمي البساكرة ، يغلقون ويفتحون أبوابها ، للداخل والخارج بدءاً من المغرب حتى الصباح .

عاد حضرة المستشـــار الى كل المـــراجـــع التي بين يديه بها في ذلـك اللزوميات ، ورسالة الغفران ، ورسالة الملائكة ، أو الرسالة النحوية ، قرأ الديوان ، وتوقف ملياً ، عند «خفف الوطء ماأظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد » و« صاح . . . » وما إلى ذلك ، وجمع استشهادات كثيرة على أن « نيتشه » الفيلسوف الألماني ، الذي كما قال حضرة المستشار ، لن يفهم العـــرب فكـــر كارل ماركس إلا من خلالـه ، ومن خلال الفهم الصحيح لفلسفتـه ، هذا الفهم الـذي لن تسمـح به الترجمات العربية المقتصرة على شذرات من «هكـذا تكـم زرادشت»، والحمد لله ، فان شاباً جزائرياً ، يعكف في باريس على دراسة هذا الموضوع منذ مايزيد عن عشر سنـوات ، نيتشـه هذا العبقري الفذ ، ليس في الحقيقة ، سوى بعض اعادات ألمانية ، مافي ذلك ريب ، لفكر وآراء أبي العلاء المعري ، سيؤكد الطالب الجزائري ذلك ، طال الزمن أو قصر .

الـبروتيستـانية ، في المسيحية ، بكل صيغها ، وجنسياتها ، ماقيمتها وأهميتهـا ، أمـام صيحـات عملاق المعرة الأعمى ؟ الوجودية . وقبلها الـديكـارتية ، وكل ماله صلة بتحكيم العقل ، متأثراً بالواقع الثابت ، للحظة الآنية أو بتشكل الأنا ، في ظروف جد مبهمة ، وكونفيزيونية ، كما يقال .

« الكوجيتو »! ماقيمته ، إذا لم يدخل رهين المحبسين في الحسبان ؟

من خلال اعـراب اسـماء المـلائكـة الممنـوع منهـا من الصرف لكل الأسبـاب ، راح عمـلاق المعـرة يصـول ويجول ، في عالم مازال ، حتى

اليوم . محرماً على جميع مفكرينا ، ويناقش ليس فحسب ، الفهم السني الساذج للملائكة ، وانما خالق الجنة والنار ، ورضوان واسرافيل وعزرائيل ، والأسماء أجمعها .

طه حسين ، وتاريخ الفكر العربي الحديث !

من استطاع قبله أن يكون بروتيستانيا ، في عرب المشرق والمغرب ؟ حديث الأربعاء ياحضرات ، لا يلخص وليس مجرد موقف من تراث تعتز الأمة ، ولا تعمل به ، انه عملية اخراج لسان طويل ، لكل مثقفي العصر .

بدأ بالمعلقات ، بما هو مكتوب بماء الذهب ، ومعلق في صومعة معبدهم ، شعر العرب ، ديوانهم كما يقال .

وانتهى الى الكتاب . كتابهم الوحيد ، فراح يفصل في أحرفه السبعة ، وفي رواته ، وحفاظه ، وكما لو أن ذلك لم يكفه ، راح الى التاريخ ، يعمل فيه بالمبضع ، الفتنة الكبرى ، عثمان علي وبنوه ، أقام ميزاناً طبقياً ، واستغرق يكيل به بالأوقية ، والدرهم ، ممتلكات طلحة والزبير ، وباقي الصحابة ويعرى عن الخلفيات الحقيقية ، لموقف كل واحد منهم سواء في السقيفة أو بعدها .

طه حسين أيضاً . كان أعمى كفيفاً من مصر .

إن كان فيلسوف المعرة ، مات أعزب ، وكتب على قبره « هذا جناه أبي علي وماجنيت على أحد » فان فيلسوف القاهرة ، قد أراد أن يتحدى الجميع ، فيقفز على العوائق الحضارية ، يثقب التاريخ ، وينطلق يسبح ، في فضاء القرون ، لم تكن زوجته فرنسية ، فحسب ، وانما كانت باريسية !

وطه حسين ، بقطع النظر عن أصل وفصل زوجته ، خريج فرنسا .

سوربونياً ، من السوربون بالذات ، الذي لاتقل أهميته عن الأكاديمية ، العسكرية « السانسير » ذات التأثير القوي في نهضة الجزائر الحديثة ، بكل ثوريتها ، وأفقها العالمي الإنساني ، وفي مستقبلها الزاهر ، كما يتنبأ بذلك العلامة « جاك بيرك » .

لا شك أن الكثير منكم ، لم يطفىء تلفيزيونه ، كما هي العادة ، اثناء عرض أي فلم عربي ، عنــد عرض مسلســل الأيام . . ذاكم البصــير ياحضرات هو الدكتور طه حسين .

الدكتور الوزير . مؤسس الجامعة المصرية الحديثة ، الملقب عن كل جدارة ، بعميد الأدب العــربي ، وصــدقـوني لو كان في العالم العربي ، فكر ، وفلسفة للقب بعميد الفلاسفة أو المفكرين العرب .

ثم أن عبد الله البردوني ، وأنني قد قفزت بكم على عباقرة آخرين ، في مقـدمتهم شاعــر « البورنو » و«السيكس » بشار بن برد ، الذي لم يتوان فضيلة شيخ جامع الزيتونة الأعظم وفروعه ، عن تحقيق ديوانه ، واثبات كل مافيه ، بكل حماسة وروح تحضر ، هذا الرجل ، لا أحد فكر حين دعـاه ، في أنــه سيرسم لوحــات زيتية للجزائر ، كانت أمامنا مجموعات دواوينه ومؤلفاته ، والمكانة التي يضعها فيه النقاد . فدعوناه هذا كل مافي الأمر .

إليكم ياحضرات ، كومة المؤلفات هذه لتتأكدوا أن الدعوة أو التقدير ، والحجز في فندق الأوراسي ، إنما كان لها ، وليس لشخصه ، رغم أننا ، قدرنا مناسبة السنة الدولية للمعوقين فحاولنا ، أن يكون هذا التكريم ، ضمن مســاهمــات بلدنا ، كما قدرنا ، أن شخصية الأعمى ، تتمتع في الـوجـدان الشعبي ، باحــترام كبـير ، تعمل على تعميقه الآية الكريمة

﴿ عبس وتـولى أن جاءه الأعمى ومـا يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ إن كانت بقيت فيكم ذرة ، من روح شعبكم ومن شرقيتكم ، فاعلمـوا ، أن الأعمى يتسـاوى في المكانة ، مع المبصر ، عندنا ، على عكس ، ماهـو عنـد غيرنـا من الأمم الأخـرى ، بقيت نقطة بسيطة ، أضيفهـا اليكم ، بالمنـاسبة ، هي أن السيدة مونيك ، تعلم أن صنعاء ليست بادية ، وأنها من أقدم المدن في العالم ، وأن الحضارة لم تنقطع فيها يوماً .

كلا . ينبغي أن لايكـون الخـطاب طويلاً . وإلا تظاهـر التـماسيح بالنوم ، أو أوقفوني ، بدعوى أن محتوى كلامي خارج عن الموضوع . الحل الوحيد ، أن أخرج لساني ، لحضرة مجلس الادارة ، لجميع الناس . أن أقول لهم : ألف طز في طز . فيكم . في وقاركم الكاذب ، في لوائحكم ، في أسيادكم ، في جاك بيرك ، وكارل بروكلمان و« لوساي » و « ماسبيرو » في الصهيونية العالمية ، في السيدة مونيك ، التي تسيركم جميعاً . ياخونة ، يامن تحفـرون في ذاكـرة هذا الشعب ، لتنسـوه بشـاعة أمسه ، وفظاعة مستعمريه ، ولتجعلوه يندم على تضحياته ، وعلى استقلاله .

« هاه . بإمكانك الحضور حالاً » .

سيرون طول لساني . سيرى .

كان ذاك ، القرار النهائي ، لحضرة المستشار ، ليلة الأمس ، وقد قرر بعد مكالمة السيد الوزير أن ينفذه حالاً .

ارغيس يخيّب أمل بروموثيوس

بدأ حضرة المستشار يغلي منذ الصباح الباكر ، وحالما استيقظ من نوم مضطرب ، لا يشبه في الحقيقة ، لا النوم ولا اليقظة ، الأحلام تختلط فيه بالكوابيس ، بالخواطر بالافكار والآراء ، والمشاريع والمخططات ، بالخطب الحماسية ، بتصفيقات جمهور يرتدي السواد ، بهتافات حماسية ، مشحونة بالاعجاب . لم يغسل أسنانه بالفرشاة والمعجون كما تعود ، ولم يبادر إلى حلق لحيته ، قبل تناول قهوة الصباح ، حتى القهوة أهملها ، حل محلها كأس ماء صبه من الحنفية مباشرة .

نظر إلى ساعته ، وقرر أن يسابق السائق فيما عزم عليه . فتح حقيبته اليدوية ، وحملها إلى الفوق ، ثم قلبها ، لينسكب ما فيها ، دفعة واحدة . شكسبير والملك لير . بريخت ، ودائرة القوقاز الطبشورية . سعد الله ونوس ، والملك هو الملك . ألفريد فرج . وحلاق اشبيلية . اليخندرو كاستونا ، ومركب بلا صياد . تذكرتا سفر واحدة باسم سهيل ادريس وأخرى باسم غالي شكري . أوراق حسنة التنسيق في غلاف بلاستيكي شفاف ، لفت انتباهه العنوان : التقرير السنوي عن نشاط المديرية ، فاستغرق لحظات يتأمله .

« يرجع الفضل اليهم ، المساعدين . لولاهم لما كان هناك كل هذا النشاط . نجاة المسكينة ، على سبيل المثال كانت في المستوى . كل مرة ،

تكون في المستوى . آخر مرة ، مثلت أحسن تمثيل ، الثمانية عشر مليون جزائري ، بباقة الورد التي حملتها في المطار ، وهي تتقدم مختالة بلباسها العصري الأنيق ، نحو الشاعر الذي أطلق الجمهور عليه ، اسم ، صاحب قارئة الفنجان ، والذي لازمته حتى في المائدة التي لم يبخل ، لأول وآخر مرة ، في تاريخ الجزائر الثقافي ، ستة وزراء ، باقامتها وبحضورها . كان تسامحاً كبيراً ، حتى أنها ، ربما ، تسامحت فارتفعت إلى المستوى الوطني والقومي والأممي ، والحضاري ، فسكنت طوال الفترة ، بالغرفة رقم 410 ، ولعلها حركت مشاعر كانت ماتت بفعل اضطرابات الوضع اللبناني ، وبفعل عامل آخر ، حسب مزاعم البياتي .

كانت كلما نظر اليها ، خفضت بصرها ، في خيبة واضحة ، وراحت تتأمل أصابعه ، فيبتسم معلقاً :

ـ ما راءٍ كمن سمعا . كاد التونسيون ـ هداهم الله ـ أن يقنعوني ، بأن الجزائر ، تضاهي اليمن في تأخرها . في الحقيقة ، الحدود المصطنعة بيننا ، وانعدام الزيارات ، تحجبنا عن بعضنا .

مثلت المسكينة ، ومسكينة فقط لأنها ، لم تعثر بعد ، على زوج يليق ، حتى دب اليأس إلى قلبها ، وتخلت تماماً ، عن هذا الأمل ، على مايبدو فهي في الفترة الأخيرة لم تعد تتحفظ ، لا في لباسها ، ولا في تبرجها ، أو في علاقاتها . . مثلت نجاة . الوجه المتحضر للجزائر ، وللمرأة الجزائرية أحسن تمثيل .

المساعدون . الشعراء منهم على وجه الخصوص ، يقيناً منهم ، بأنه لانبي في قومه ، وبأن المواهب التي لا تستطيع البروز ، على المستوى الوطني ، يجب أن تبرز على المستوى القومي أولاً والدولي ثانياً ، راحوا يستغفلون الجميع ، ويصطادون رجال الأعلام ، وأصحاب المجلات

الأدبية ، وبعض الأعضاء العاملين في اتحادات الكتاب العربية ، الذين يمكنهم أن يردوا الجميل ، فيرتفعوا بدورهم الى المستوى القومي بكل نفطيته وقاريته وغازيته .

ثمرات هذا التوجه القومي للجزائر ، المتمنعة ، عادة وهي تجاهد لاثبات التشابه بين الخيار والفقوس ، واستحالة االتمييز بينهما ، في ظروف خاصة ، مرغوبة ، كانت هذه الثمرات ، عدداً خاصاً بالأدب الجزائري الحديث لكل من مجلتي « الآداب » التي يمتلكها سهيل أدريس ، وتصدر لظروف معروفة في العراق و« أقلام » العراقية ، التي يرأس تحريرها « طراد الكبيسي » ورغم أن العددين ، وفي إطار فلسفة الخيار والفقوس ، لم يدخلا الجزائر ، لربما يبقا في أقطار أخرى .

أكثر أعراض المجتمع البترودولاري ، تتجلى لدى الأدباء الجزائريين ، فقبل أن يصدر أحدهم ديواناً أو مجموعة قصصية يكون قد وفر مرافق الحياة العصرية كلها ، من صالون فخم الى تلفزة ملونة ، الى جهاز فيديو ذي أنظمة متعددة ، وأحياناً كثيرة ، مفكك القطع ، ومتنقل ، الى ماهو أهم من كل ذلك ، السيارة ، وقد استفادت المديرية أيما استفادة من هذه السيارات ، والحق يقال .

كان في ذلك ، تعويض بل ، اعفاء ثمين ، للوزارة من التزاماتها ، وقد جاء عن طواعية . وطيب خاطر ، ويشهد الله انهم يتسابقون الى هذا التطوع ، نجاة بدورها ، ومنذ زيارة صاحب قارئة الفنجان ، صارت تتطوع بـ « مرافقة » الوفود كما تقول .

لا نجاة ، ولا شعراؤنا ، ساوموا أو فاوضوا ، أو حتى ذكروا التعويضات عن الأتعاب ، وهلاك السيارة ، وماإلى ذلك ولربما شهد يوماً ، بعض أصحاب المجلات ، وبعض النقاد ، خاصة منهم ، متعددو

الجنسيات والديانات والخدمات ، لصالح الأدب الجزائري الحديث . .

عندما تواجد في المكتب ، أدرك حضرة المستشار ، أنه كل مافي الجبة ، وكل مافي الحقيبة اليدوية ، وكل مافي المكتب . وكل مافي الوزارة ، وكل مافي العزيمة :

بروموثيوس .

ـ هذا لساني ، وفي القدر كفاية . وياأيتها الروح المنهكة ، فيضي مرة واحدة ، واستريحي .

كان المفروض ، أن يطلب سعادة الوزير ، أو بالأصح كاتبة الديوان ، ويلتمس موعداً ، وحسب العادة ، فأن الموعد لا يتأخر كثيراً بالنسبة للمستشارين الأصدقاء ، المستجلبين ، باقتراح شخصي ملح من سعادته ، خاصة في الظروف التي تكثر فيها الاشاعات ، عن التحوير الوزراي ، وتبدأ الأسهم في البورصة ، ترتفع وتنخفض ، في غير ماتواتر أو نظام ، يكون أول سؤال ، ينطرح ، والبسمة المتذللة ، تتراقص :

ـ هاه . ماذا يقولون ؟ أين وصلت المزايدة . تعرف أن شعبنا يعلم كل خفايا الأمور . . مع ذلك ، لايخجل بعضهم من رفع صواتهم ، معلنين أن البلد تنقصه ديمقراطية الأعلام . ها أن الشعب ، يعلم مالا يعلم وزراؤه في كثير من الأحيان .

بعض المستشارين اللؤماء ، يبادرون مرؤوسيهم بالتأكيد على أن مابلغهم أخبار من أجهزة معلومة ، وليس بأشاعات .

ـ هكذا إذن ؟!

يقول سعادة الوزير ، ثم يتدارك فزعه وضعفه معلناً :

ـ لا . لا أظن ذلك . أعتقد أن المثقفين في العالم الثالث ، مصابون بمرض الشعور الحاد . بالأجهزة .

ـ فيما يتعلق بسيادتك ، هناك اجماع كامل ، على أنك الرجل المناسب في المكان المناسب ، بفضلك استقرت الأوضاع في الجامعات ، وماعاد الطلبة . .

ـ لكن بلغني انهم يتحدثون ، عن وزارة الخارجية ، فيما يتعلق بي ؟ أفاتـك ذلك ؟ والله لقد استنفذت الثورة قوانا ، وأصبح الواحد منا في حاجة الى نشقات راحة ، ستأتي معي ، مافي ذلك شك . لن أتخلى عنك .

المستشارون الآخرون ، أو بالأصح ، الذين تكون أوضاعهم على غير مايرام . ونـظرة سعـادتـه إليهم ، لا تخفي التضـايق والعتـاب ، ولربما الانـزعاج ، يوهمون كاتبة الديوان ، أن المكالمة ، هذه من أجلها ، هي يحيونها بحرارة ، يسألون عن أحوالها الشخصية ، عن صحة الوالدة بعد الحجـة الأخـيرة ، عن جهاز التلفزيون الأخير ، وهل هو مضبط لقراءة اشـارات سيكام ، والخطوط الفرنسية ، أم هو ـ كالعادة ـ خدعة يابانية تغـري بتعددية أنظمة اللون ، وتهمل نظام الخطوط الفرنسي ، يقال أن الشركة الوطنية ، ستستورد من ألمانيا ، علامة ممتازة جداً مديرها الجديد ، صديق قديم . يسأل أيضاً عن السائق الأخير ، وتفهم الدولة ، لوضعه السكني .

عنـدما تنطلق في الحديث ، عن مشاكل السائق المسكين ، وقبل أن تنهمـك كلية ، يتحول مجرى الحديث بلطف بالغ ، عن أحوال سعادته النفسية اليوم ، وهل في الإمكان ، إزعاجه بطلب مقابلة ؟

تنسى المسكينة ، رد فعل سعادته . في آخر طلب من هذا النوع ، من هذا المستشار بالذات ، فتعلن أنها ستشعره بذلك حالاً ، أحياناً يشعر المرء ، أن قلبها ألين مايكون هذه المرة ، وأنها ، رغم ماتعرفه عن مشاعر سعادته

في الفترة الأخيرة ، ستجعله يستقبله .

قرر ليلة البارحة أن يطلب مقابلته اليوم . أن يستبق الأحداث على الأقل ، قبل المثول أمام أي مجلس يرأسه الكاتب العام . في الحقيقة لم يقـرر ، لم يكن قرر بأتم معنى الكلمـة ، إنما فكر ، فكر فقط ، وكأنما سعادته ، على صلة بما يجري في خواطره ، هاهو يواصل حديثاً ، لم يبدأ بعد .

« هاه . بإمكانك الحضور حالاً » .

إنـطفـأت جذوة شوق الإتصـال بالآخـرين التي أثـارها رنين جرس الهاتف ، لم تكن هناك أية فرصة ، ليمارس المرء غريزته ككائن إجتماعي ، بإعلانه للآخرين عن وجوده ، عن حاجته إليهم عن إستعداده ، لمديد العـون لهم .. أحس بأطنـان من القمع ، تقع عليه ، إزرورق وجهه ، إختلط النهار بالليل . تواصلت الكوابيس .

- لم يبق سوى التنفيذ . أغلقي الباب بالمفتاح يانجاة .

فتح الحقيبة اليدوية . عرفت نجاة محتوياتها ، أدركت بعض الشيء ، خطورة حاله . تألمت ، وسعدت في نفس الوقت .

كان لون وجهه يوحي بأنه يختنق ، وبأنه سيقع على أرضية المكتب ، مغمياً عليه أو ميتاً ، بين لحظة وأخرى ، فراحت تتألم خائفة ، لكن عندما تتذكر أنه لأول مرة ، منذ ترك المسرح ، وجاء إلى هنا تراه يغضب . شعرت بنوع من السعادة والسرور .

هاهو الصدأ يزول عن حضرة المستشار . إنه يغضب ، هاهي البسـمة المملة التي أضحت تشبه معطفاً جلدياً ، يأبى أن يفنى . هاهي تنمحي . ستفرح فجرية ، عندما تعلم بذلك أيما فرح .

إنتـزع السـترة ، فك بعصبية ربـطة العنق البغيضـة ، فك أزرار

القميص ، ألقى أيضاً بالمريول القطني ، قذف بالحذاء بعيداً ، فعل كذلك بالسروال .

ـ هيا ساعديني يانجاة . هاهي علب الألوان . هاهو المرقاش . أريد سلسلة تحيط بقدمي ، وبخصري ، وبمعصمي . لاضرورة للعنق ، تعرفين العلب ، ذاك هو اللون البني . إجعلي آثار السلسلة ، تتبدى أيضاً . بعض جراحات دامية ، هنا وهناك . نعم نعم . هو كذلك .

جسده بارد على غير عادته ، ورغم أن الطقس دافىء ، هاهي بطنه تخرج قليلاً ، إن واصل الجلوس على هذا المقعد كثيراً ، برزت أكثر ، وفقد آخر بقايا رشاقته . الترهل بدأه في الشفتين والرقبة ، وفي الذراعين ، والكتفين ، وراح يكتسح كامل جسده . ينبغي أن يعود حضرته إلى الحركة .

هنا . في الجنب الأيمن . دعي النسور ، تحدث فتحة ، وتخرج الكبد . أسيلي الدماء يانجاة . دعيها تنزل مع كامل الجنب . جلطي الدم ، في الفخذين . إفتحي السرة أيضاً . إن النسور ، يأتي بعضها من الأسفل ، وبعضها من الجنب . من الخلف لايمكن ، فالسلسلة التي تربطني بالصخرة ، تشدني ، ولا تسمح لي بالإنحناء . لن نعطي لها تلكم الفرصة . لكن ، لايعني ذلك أن تتركي الظهر كما هو . أرقشي أوراماً وجروحات ، وندوباً . لاتتركي مكاناً واحداً من الجسد المسكين ، دون أن تصبغيه .

ـ جسدك بارد .

ـ مع أنني أحس بفوران في دمي يانجاة .

ـ في دمك أم في مخك ؟

ـ ربما صدقت ، فكفّاك يبدوان في منتهى الحرارة ومع ذلك لا أشعر بهما

بتاتاً . سيزورنا في الشهر القادم شاعر فحل .

ـ والله . الشعراء ، فحولتهم في ألسنتهم ، فقط .

ـ لن أكون معكم يومها .

ـ هل تعود إلى المسرح . لن أتخلى عنك .

ـ أنت أرحب الجزائريين صدراً يانجاة.

ـ ماذا تفعل يداك ، في تلك المنطقة ، يانجاة ؟

ـ أسوي التبان .

ـ أتفكرين أن الوضع مناسب ، لتلك الحركة . أوه . . . ! رائع . جميل . من أصبحت ؟ إنظري ملياً ؟ من أكون ؟ ألست بروموثيوس ، بعينه ؟ إنني هو يانجاة . وهذا هو الوضع البشري بالذات . سجلي أن البشرية ، أدق من الإنسانية ، وأن على المفكرين والمترجمين العرب أن يهتموا بذلك . لقد قيل « ما أنا إلا بشر مثلكم » . العبارة ، أكثر حسّية ، وأكثر إرتباطاً بالأرض والتراب من غيرها .

ـ مارأيك ، لو تناولينني ، تلك العصا ؟ لاشك أن بروموثيوس ، حمل عصاً ما . وهو داخل على الإله ، ليجاهره بالحقيقة . ليهدده ، بالحقيقة . نعم ، مثلما قلت يانجاة ، فالحقيقة مخيفة ، يانجاة .

أفضل ، الحقيبة يانجاة ، كرمز للأسرار وللمعرفة . هات . متى لم تكن النار ، غير أوراق .

إفتحي الباب يانجاة .

ما أن فتحت نجاة الباب ، وما أن غادرت المكتب إلى الرواق الطويل ، المطلي باللون الرمادي الداكن ، وقبل أن يشرع في قطع سلم الطابقين ، ليغادر عمارة المستشارين ، وبعض المديريات التي تصنف ، لسبب أو لآخر ، بأنها هامشية ، ويتجه نحو العمارة المجللة بالأبهة ، حتى كانت

جميع عمارات الوزارة ، بجميع مكاتبها ، بجميع موظفيها ، وحتى بزوارها وضيوفها ، تتناول الحالة .

لقد تعدى الخبر ، حجم الخبر ، ومع ذلك لم يصل إلى مستوى القضية ، أو حتى المسألة ، وبالتالي ، ليس هناك ، تسمية أخرى أليق وأدق وأكثر إثارة من الحالة .

ـ إنها فعلاً حالة بدأت منذ مدة . حالة المستشار الذي إستدعى أعمى يمانياً .

كانت جميع الخطوط الهاتفية الداخلية ، مشغولة ، في لحظة واحدة ، بالحديث في نقطة واحدة ، هي الحالة ، كما كانت جميع النوافذ المطلة على الباحة ، وجميع المنافذ المؤدية إليها مكتظة .

حالة ، على هامش ما إصطلح عليه بالحالة ، لن تحدثها بمثل هذه السرعة ، وهذه الدقة ، وهذا الإجماع صفارة إنذار بحريق ، أو بغارة جوية ، أو زلزال من الدرجة التاسعة .

من سمى الحالة ، حالة ؟

من أين عرفوا ؟ كيف تمكنوا من جمع كل التفاصيل وصاغوها بهذه الصيغة المثيرة ؟

كيف إستوى الماء والخشبة ، الكاتب العام والفراش ، والراقنة المهملة في قسم الحسابات ؟! أية نفحة من الديمقراطية والمساواة ، هبت اليوم على البلد . !؟

هل كان هناك أحد مكلف بمراقبة حضرة المستشار ، له مهمة واحدة ، هي التبليغ عن حالته ، فكان أول من إستعمل هذا التشخيص العبقري ؟!

إنه ، وهو يغادر المكتب ، أو وهو ينزل السلم ، أو حتى وهو يركب

السيارة أو ينزل منها ، رغم أن بروموثيوس ، كان يسكنه ، بعد ، لم يتفوه بالشيء الكثير ، الذي يمكن أن يعطي هذه الصيغة الموحدة للحالة ، حتى وإن كانت كل وسائل الرصد الحديثة ، مسلطة عليه .

حيى السائق ، كما تعود أن يحييه ، صباح كل يوم ، صحيح أنه لم يسمح له أن يشعل المذياع ، لتتبع أخبار الصباح ، كما كان يفعل كل يوم ، لكن هذا ليس بالشيء المهم .

ذكر النار . ذكر ديمقراطية المعرفة . قال بالحرف الواحد ، الألوهية ، بالصيغ والصفات البشرية ، ماهي في آخر الأمر ، سوى بشرية مثالية ، صقيلة ، وهـذا ما أدركه بروموثيوس . بصق على الجدران هاتفاً : زيوسك ، ليس سوى ممثل ثانوي في فرقة الثورة .

تحدث أيضاً عن الأغلال والعذاب ، وورد على لسانه ، نفس هذا التعبير : بروموثيوس في عهد الأغريق ، عرفها ، عقاباً ، وأنه في هذا العهد ، ليعرفها ، جزاء ، آرغيس ، لم يستطع السيطرة على اللحظة ، بين إنغماضة أعين ، وبين إنفتاحة أخرى . تكون اللحظة ، يقضي زيوس حاجته ، مع أيو ، حتى وإن كانت بقرة .

هذه اللحظة الآن . الآن ، هي ملك يدي ، ولن تستطيع يازيوس أن تقتل البشرية ، حتى فيك أنت ، ولن تستطيع يا آرغيس أيها الخائن ، أيها الذليل ، أيها الإمتثالي النذل ، أن تمنع وجود اللحظة ، حدوثها ، بمائة أو بألف ، أو حتى بمليون عين . بين الحركة والحركة ، توجد لحظة ما سانحة لحدوث حركة أخرى .

ـ لقد كانت آلهة الإغريق والرومان ، أكثر ألوهية بالنسبة لآلهة مصر . مع أن إعتزاز بروموثيوسها ببشريته ، يفوق إعتزاز ، كل برموثيوسات اليوم ، لم يعلن بشريته فحسب ، إنما مارسها ، أتاها ، وعمل على رفعها إلى مستوى

الربوبية ، حيث فرض ديمقراطية المعرفة . قال للجميع أن زمن العذاب موقوت ، وعهود الإغتيام في حياة الشعوب ، مهما طالت ، ليست سوى سحابات صيف قاري .

عندما تعلق الأمر ، بالظلمة والنور ، قال حضرته ، الظلمة هي أصل الأصل ، وماكان يمكن إطلاقاً ، تقدير قيمة النور ، لو لم تكن هناك ظلمة . صحيح أن الماء لايعود إلى نبعه بطريقة مباشرة ، لكن هل في إستطاعة أحد ، حتى وإن كان ، زيوس نفسه ، أن يزعم تصور نقل النبع نفسه من مكانه . بروموثيوس في الحقيقة ماكان سوى نبع .

أنا هنا ، في الأصفاد ، والقساوة ، تلطم روحي ، ليل نهار ، ولكن هل ورد الحديث ، عن عملية قتل حقيقي . . ؟

الأولون أنفسهم ، كانوا يدركون استحالة ذلك ، اخطر مافاه به ، أن سعادته لايمكن أن يكون ، سوى ممثل في فرقة ، أمابروموثيوس ، فقد كان ، وسيظل الفرقة كلها . هذا هو الفرق بيني ، وبين سعادته ، وهو يعرف ذلك . وكل واحد في الوزارة ، وخارج الوزارة ، يعرف ذلك تمام المعرفة ، ذلك أن التمثيل في الماضي ، على عكسه اليوم ، كان فعلاً ، حقيقياً ، يقدم ويؤخر . لم يكن ، أبداً الظل يستطيع تعذيب مصدره .

إعلموا جميعاً ، أن برموثيوس ، يعرف سر ميلاد ، أب أفوس وأحفاده ، وأنه يحفظ عن ظهر قلب ، نغمات مزمار « هيرميس » ، بل إنني أنا بروموثيوس ، من وضع تلكم النغمات ، وما هيرميس ، سوى عازف .

هذا كل مافاه به حضرة المستشار في هذا الصباح ، وهو ليس بالكثير ، لايمكن أبداً أن يكون قاعدة ، ترتكز عليها الحالة ، كما هي معروضة ، في سماعات الهاتف تفصيلاً .

من يستطيع أن يضبط ، من كان وراء رصد الحالة ، فالمسألة ، مهما

كان الأمر ، تتعلق ، بأربع سنوات كاملة ، وليس بفترة زمنية ، تنحصر في مسافة بين البيت ، والوزارة بالسيارة ، وبين أسفل البناية إلى الطابق الثاني . . . لاشك أن زيوس ، صنع عدداً مهولاً من الأرغيسات ، بعضها مختص ببروموثيوس ، وبعضها ، مهتم ببعضها . لم تعد المسألة تتعلق بعدد أعين آرغيس ما ، بل بعدد الأرغيسات نفسها . حتى ، تحاصر اللحظة ، فتكون حالة حدوثها مستحيلة ، أوعلى الأقل ، نادرة ، أو على الأقل مرصودة .

من جمع هاته الأقوال ، وفك هذه الرموز ، وإستطاع أن يخلق مادة مكتملة للحالة ، تستطيع سماعات الهاتف ، جميعها ، أن تتناقلها ، بصيغة موحدة ؟

الأتان نجاة ؟ لاشيء ينفي أو يمنع أن تكون إحدى ساكنات ، رأس آرغيس . يالها من رأس توفر فيها المجال ، لإحتواء مائتي عين ! أحد هذه الأورام الأدبية؟ لم لا؟ مثلهم الأعلى اكتساب أسماء، تمكن من جمع أقصى مايمكن من النقود ، بأسرع مايمكن ، وبأقل جهد ممكن . والله العلي العظيم . لن يتورع بعضهم من إعتبار « تكريت » مسقط رأسه ، مقابل أن تنشر مجلة « أقلام » أي كلام تحت توقيعه ، ولن يتوانى بعضهم عن أن يظل يوماً كاملاً ، يضغط على زناد رشاش ، في قلب حشد ما ، مقابل أن يقال ، إنه وطني ، يعادي بالتالي الشيوعية والشيوعيين ، أو عن منح جيراننا ، كل صفات الموضوعية ، وكل معاصر النبيذ الجزائري ، إلى جانب كل أخواته ، وبنات أعمامه وعماته ، مقابل أن تنشر الدار الليبية ـ التونسية مجموعة قصصه الأولى ، أو حتى مقابل رسالة واعدة بذلك .

تفوه . أتفوه . أورام سرطانية خبيثة ، تتأصل يوماً بعد يوم .

الكاتب العام ، سيادة المراهق الذي قمعت مراهقته ، يزورني ، مرة في الإسبوع . يشرب قهوة . يدخن سيغارة أمريكية . يلهس سيغاراً هافانياً غليظاً يتبجح بإبداء معرفة متضلعة ، بكل مايسيء للسينما والمسرح ، والغناء في الوطن . يذكر أن جورج مارشي ، أو موريس توريز ، قبله ، أحدهما على كل حال ، أبدى هذه الملاحظة أو تلك ، في موضوع صلة الفن بالثورة ، وأن « غارودي » أشبه مايكون بجزائري متطور . لكن النقابة عندنا ، والتسيير الإشتراكي للمؤسسات ، وما يسمى باليسار بصفة عامة ، طفيلي ، مستلب ، جاهل ، تقريبي ، تعميمي ، لا يتوانى في ، أغلب الأحيان عن الخيانة ؛ ولقد تأكد لنا ، للدولة الجزائرية ، أن « أرديا » ، ألمانيا الشرقية بالذات ، وراء الشيوعيين الجزائريين . هاه . مهما تكن الحقيقة ، فلا بديل من أن يحب الجزائري الجزائر ، ومن أن يدرك ، أن الأمية ، مرحلة متأخرة جداً من تاريخ الشعوب .

هاه . ألا يزال لديك حنين إلى المسرح ؟ لقد كلمت سعادته ، عن ضرورة إغتنام فرصة ، السماح لك بالعمل معنا ، لتوسيع المسرح الجامعي . ما يدهشني حقاً ، هو هذا الإلمام الواسع لدى سعادته بالرياضة الجماهيرية ، في البلدان الإشتراكية ، وإعجابه الشديد بك ، خاصة في دائرة الطباشير القوقازية ، التي لفتت الإنتباه إليك ، كواحد ممن يمكن أن يقال أنهم يمتلكون الوجدان الوطني . أنا أيضاً معجب بهذه المسرحية ، رغم أنني شاهدتها ، هذه ، سنوات . كنت أيامها ، أستعد لإمتحان الباكالوريا .

ألا تشعر ياحضرة المستشار ، بأن الأيام تهرب منا ، وأن بعضنا ، أشبه مايكون بمحبوس في هذه الدنيا ، ينتظر . حتى ينسى ، ماذا ينتظر .

يخرج سيادته ، تاركاً وراءه الرائحة الكريهة للسيغار ، مهما كان المرء

متسامحاً فإنه لايسعه سوى أن يتقزز منها ، وإيحاءات لاتصدر عن غير هيئة ، متينة ، دقيقة التنظيم ، تهدف إلى خلق ، أو إيجاد أو توفير نسق ما ، وحاملاً معه ، ما لايقل عن سبع صفحات من المعلومات القيمة ، عن الوضع في البلد .

الباب المفتوح - كما يقال - يدخل الريح ، وفي هذا الزمن ، لايمكن للباب إلا أن يكون مفتوحاً ، وكل أحباب ، أو أصدقاء ، أو أنصار ، أو معارف بروموثيوس ، كانوا يعرفون السر .

ماعداه ، زيوس كان الوحيد الذي يلهث وراء السر .

والبحث عمن يكون مخبراً ، في هذا الوضع ، أشبه مايكون بحذلقة القطرة الأولى ، في الأبيض المتوسط ، أو في الأطلسي ، أو في بحيرة طبرية .

الحالة ، كانت ، ومازالت ، وهي الآن متبلورة ، للجميع ، وما على الجميع بما في ذلك بروموثيوس ، سوى مواجهتها ، والإستمتاع ، إن أمكن ذلك ، ولمن شاء ذلك ، بكل معطياتها ، ومعايشتها ، من الأعماق .

امتلأت الباحة الكبيرة بهم. خلت النوافذ منهم. يا لها من سرعة عجيبة، حركتهم. المعركة المتكافئة بدأت. هم من هناك، وأنا من هنا. كتفاي منهكتان بالفعل. ظهري تقوسه الأيام، الجراحات توجعني. السلاسل تثقلني. مع ذلك، فلا تقدم. لا تقدم. الجبناء، سيهزمون لامحالة. لن يصمدوا أكثر.

الكاتبة الخاصة. رئيس الديوان. الكاتب العام. مدير التشريفات. فراش الطابق الرابع. فراش الطابق الثالث. فراش الطابق الثاني، الأول، الأرضي. جميعهم أعلنوا في الوقت الواحد، بالحرف الواحد، بالنبرة

الواحدة: سعادته مطلوب في الرئاسة لدراسة ملف اللامركزية.

الوغد. سعادته، احتاط اذن للمؤامرة، وواجه الحالة، بما تستدعي. هو بدوره، استجاب لرنة جرس الهاتف الداخلي واطلع، على كل تفاصيل الحالة، واستعد لها.

في هذه الوزارة. في مثلها، يعني. كل الظواهر، والفينومينات، محتملة، بدءاً من ظهور المهدي والمسيح، ونزول ماركس ولينين، إلى شن اضراب عام، كلها محتملة جداً، وآرغيس في هذه الوزارة، في مثلها، دائماً، يمكن أن يتغلب، على اللحظة، ذاك لأنه يبتدع بين اللحظة واللحظة، لحظة اخرى، لكنها كاذبة، سرابية، يأتي فيها زيوس، ولا يأتي.

الوغد! أمر بايقاف السيارة، ارتدى ضحكة ضخمة، ونزل. نعم نزل، فوق ذلك. ربت على كتف بروموثيوس، وسخر قائلاً:

ـ مايزال جنون التمثيل يسكنك. وزارتي فخورة، بتوفرها على أمثالك. لايمكن لأي عامل في وزارة العلم ـ لم يستعمل عبارة موظف ـ إلا أن يبتهج باحياء أسبوع العلم، بهذا الجنون.

الوغد! عثر عن المناسبة، يوم 16 افريل، يوم ابن باديس، في دائرة الطباشير الجزائرية. استعمل... استعان بلزوجة، ورخاوة الجيم، وعطائية وتمططية وتوالدية النون.

انه يعرف ما يقول. يتقن دوره، ويتقمص الشخصية، سعادة الوزير، لاشك أنه يمتثل لأوامر مدير فرقة أقوى وأشد عظمة مني.

انهزم حضرة المستشار. تفرق جمهوره العزيز، ما أن عرف المناسبة. ما أبغض المناسبات لديهم، خاصة عندما تكون مبتذلة، بئيسة مركبة تركيباً مفتعلاً. هبت ريح الأوامر العلية، نسفتهم كلهم، مع أنه كان بامكان بعضهم، أن يواصل الفرجة.

المثلون هم، ولست أنا.

ج. ن. و. ن.

استعملها، ترددت على لسانه مرة اخرى، بصيغة تواطؤ واضح، قبل أن ترد على لسان الغوغاء، في حالة العشق المكتمل، لعمود الهاتف العزيز. ان البشرية كلها تميعت، في هذه اللحظة، شأنها شأن الحالة، وشأن القضية.

سرّ الجزء المتجزئ

لتتأجل مهمات العشق المتنوعة، بدءاً من الرصد، إلى عمليات التحويم، إلى الاقتراب، فالالتحام، فالتوحد، إلى ما بعد الاستيقاظ، بكل تأكيد، أما الآن، فقد حان وقت النوم.

ناقوس الساعة الحائطية الروسية، يعلن عن الثانية، بعد المنتصف، وعلي أن أنام. التسجيلات في المتناول، والليالي طويلة، وأنا والزمن وراء الذرة.

لاأشعر بالحاجة إلى النوم، ككل ليلة. يأبى الفنان في أن ينام. لكن سأنيمه رغم أنفه، بأسلوبي المعهود. أكلفه بأداء دور قومي، فينام.

الفراش بارد، لو أن واحدة، منهم ها هنا، للطفته، وأزالت الرطوبة. لكن، وكأنهم أضربن، تغيبن كلهن. نسينني الليلة. فجرية، انمحى أثرها كامل اليوم، والأتون، ربما وجدت برسيماً طرياً في مربض ما.

لن يطول الوقت وأنام.

ليس من السهل، في هذا العصر، أداء دور قومي، فلا صقرية صقر قريش، ولادخول عبد الرحمن، ولا حتى احراق السفن من طرف بربري أهوج، ممكن الآن، أو حتى ملفت للنظر. كان ذلك ممكناً في زمن لم يكن فيه الآخرون يمتلكون المقومات البشرية. في عصر التيكنولوجيا هذا، لابد لأي دور قومي، من أن يعبر قناة الاضافة.

جميعهم. جميعهم. لم يروا في التيكنولوجيا، سوى السلاح الذي يقهر المواطن، والمذياع الذي يصدع رأسه. حتى هذه، لم يتعاملوا معها إلا كمستهلكين.

جزائري واحد، هو أنا. العبد الفقير هذا. الوحيد المتوحد، في فراش بارد، يسكنه العشق، حتى النخاع، حتى درجته الحقيقية. الجنون. تغالبه رياح التاريخ، وعواصف عقد الهزائم، والاستسلام لكل دخيل. ان قالوا فنيقيين، تذكر أجداده، وان قالوا رومانيين أو فانداليين، أو عرباً، قال أنا منهم، وان ذكر البربر، حن إلى دم لايجزم أنه دمه. انتصر على جميعها، فتمكن من استنباط الذات الكهربية للكون.

عثر على سر الجزء المتجزء من هذه الذات، واستطاع أن يحصره، كالمارد، في قمقم صغير، بامكانه في أية لحظة تحريره، وربطه بالذات، لتنطلق قوة دافعة، جاذبة، ترتكز على أي جرم مادي خلفها، ولو على بعد ملايين السنين الضوئية، وان عدمته، بحثت بقرنيات استشعار، ذات مدى بعيد، عن أي جرم مادي أمامها، فجعلته، قوة جاذبة، وكثيراً، في حالات السرعة القصوى، المسماة بسرعة الحلم، والتي تفوق سرعة الضوء، مئات المرات، تستعملها معاً، قوة الدفع، وقوة الجذب. وهي في كل الحالات متناغمة متجانسة، مع الحركة الكونية.

جعلها طاقة محركة، لأطباق طائرة، في مختلف الأحجام، صنع منها الكثير، كما اشتق منها أشعة عازلة، لحركة المادة المصنعة، هي بمثابة سلاح فتاك، يمكن بواسطته، تجميد كل آلة، وكل أداة، وكل اليكترون، أو مغناطيس. مدينة مثل نيويورك أو طوكيو، يمكن شل أجهزتها وماكيناتها، وأبوابها ونوافذها، بشعاعين اثنين لاغير، وفي مدة لا تستغرق أكثر من خمس ثوان.

بالامكان بلوغ أي كوكب أو نجم، في جميع المجالات الضوئية الرحبة، بما في ذلك ما وراء الكون، والاتصال مباشرة بالخزان الكهربي، للذات الكونية والحصول منه على المد اللازم، في مجال التناسل، والخلود، وتحسين النوعية، واستيعاب مدلول الكلمات قبل صدورها، وهو ما يعبر عنه اللاهوتيون، بالقدرة والعلم والبقاء، وبالتالي، الامساك التام بخيوط وأشعة وأسرار النبض الكهربي، في كل الكائنات المكهربة، وفهم النبض الصح، من النبض الخطأ. السليم من المريض، في الذات البشرية، وبالتدقيق، في جهازها التنسيقي، الذي هو المخ. ما أتاح القضاء على عنصر الشر، والجنون، والعدوان، والنسيان، والتشوه الخلقي، وفناء الخلية الحية، والقصور في جميع المجالات، وأتاح أيضاً، تطوير النوعية البشرية، فيسيولوجيا بصفة خاصة، والقضاء على عنصر الطبيعة في غذائها، ونموها، باختصار، بعث الألوهية، في كل كائن بشري، بفتح الأبواب التي أغلقتها كائنات طبيعية، كهربية أخرى، سبقت البشر في الوجود، حسدا له من هذه الصفة التي تجعله يتجاوزها ويستغني عنها، وخوفاً منه، أن لايسمو في جميع الحالات إلى ما فوق البشرية، فيعبث بالكون.

ايقاظ الخلايا النائمة في المخ، ذلك كل ما يتطلبه الأمر.

ما زيوس سوى ذلك ؟ ما الإنسان إذا ماصار بإمكانه توظيف الأربعة عشر مليار خلية في مخه، بدل السبعة آلاف التي يوظفها الآن ؟

وشجرة التفاح في الحقيقة، لم تفتح منافذ، لم تكن موجودة، إنما، سدت قنوات كانت مفتوحة. كانت مسحورة. مفعولها لايزول بأية عقاقير، من خارج الإمكانات البشرية.

هذا مافعله الأخ الجزائري العظيم، الذي هو أنا، عندما إكتشف سر

الجزء المتجزء .

بروموثيوس ، سرق النار ، والجزائري الشهم ، سرق القدرة .

بدل أن يمنحها ، جرعة واحدة للبشر أشفق عليه ، من الصدمة ، فكثيرون هم أولئك الذين يعتزون بضعفهم ، وبشيء يسمونه أحياناً ، الحيوانية ، وأحياناً الأنسية ، ولكي لاتطمس الذاكرة ، نهائياً ، ويضيع كل مافيها ، من مشاعر ، هي ضرورية للمقارنة ، بالتالي ، لكي لايبدأ كل شيء من الصفر ، وحتى لاتحدث آثار عكسية ، أعد لها بعد ، في التفاحة يومها ، لابد من خطة جذرية .

يتمكن الجزائري ، العبد الفقير ، أنا الولهان ، منها ، القدرة ، ويروح يزرعها شيئاً فشيئاً في الأجيال ، بواسطة أرحام آلاف النساء .

الطريقة زيوسية محضة . لمسة يد .

بدل أب أفوس واحد . أربعة أجنة ، أنثيان ، وذكران . يغادرون الأرحام في أربعة أشهر ، عوض تسعة أشهر . يخرجون وأعين ، ملمين بجميع أسرار الكون ، ينطقون بكل لغات العالم ، وثيقي الإتصال الكهربائي ، بواسطة جميع أنواع الأشعة الموصلة ، سالبة وموجبة ، بالأب الجزائري ، وبالذات الكهربية الكونية . يمشون من أول نزولهم ، ويتناسلون بعد سنتين .

يفنى البشر المسحورون بالتدرج ، وتمتلىء الدنيا أرضاً وكواكب ونجوماً ، بالجنس الجزائري الخالد .

ذاكم هو المخطط ، على المدى البعيد . المدى الشامل . أما على المدى القريب الآني ، فلا بد من مجابهة ، المشاكل أيضاً . والقضاء على كل مصادر التوتر ، حسب تعبير السياسيين . بيت القصيد هنا .

كل ماسبق ، إن هو إلا تصورات ليلية متنوعة ، عن الإمكانات

المخزونة في الذات الكهربية للكون . بالإمكان التنوع فيها ، وتغيير تفاصيلها ، وتجزيء جزئياتها ، ليس في كل ليلة فحسب ، وإنما في كل لحظة من لحظات الليل ، عسير النوم .

الإختراع تم . الخيط الكهربي المخفي في اليد ، التحسين في الإمكانية ، عملية روتينية . إنما المهم . الآن . الليلية . كل ليلة . هو الشروع في القضاء ، على مصدر الأرق .

يبدأ أحد الأطباق الطائرة في عزل الأجرام الفضائية الأمريكية ، عن الرؤية ، وعن كل إتصال آخر . العملية سهلة ، مع هذه اللعب ، بدائية الصنع ، لفحها بإشعاع مقتضب ، يكفيها ، تعطيل أجهزتها ، وتركها تسبح عمياء ، صماء ، وأصحابها من تحت يلحون عليها في طلب العون ، ويستجدونها ، معطيات عن الوضع ، لن تأتيهم ، بدل تحطيمها . في الإمكان تكثيف الإشعاع قليلاً ، فتذوب ، وتضيع هباء في الكون . لكن أنا في حاجة أخرى إليها ، فيما بعد .

العملية التالية ، هي إختطافهم . أبي عمار ، جورج حبش ، نايف حواتمة ، أبي نضال ، وجميع آباء الحركات والفصائل المسلحة . العملية أسهل ماتكون ، التسمع ، إلى خيوط وأمواج الهاتف ، ساعة واحدة ، تكفي لرصد أمكنتهم ، وحتى تسليط الأشعة عليهم ، وتصويرهم بالألوان ، فالعقل البدوي فيهم ، لايزال يصور لهم أن الهاتف جند في خدمتهم وحدهم ، وأن مايقولونه فيه ، لايبلغ أعداءهم ، وأن وصلهم ، فهم لن يفهموه ، وإن كان جلياً واضحاً . وفي الشرق قيل ويقال « في البدء كانت الكلمة » .

اتفرد بهم ، في فضاء الزهرة أو الجوزاء ، أو الحمل ، وإتفق معهم على الأمر الجوهري :

ـ إضمنوا لي تجريد اللاجئين من السلاح ، أضمن لكم عودتهم ، إلى الأرض ، وتحريرها مباشرة .

ـ هذه مؤامرة على الثورة . أيلول أبيض .

قال أحدهم فأضاف الثاني :

ـ ولماذا إستعمال عبارة اللاجئين ، بالذات ، تجاه شعبنا العربي الفلسطيني ؟

قاطعه أحدهم :

ـ إن المقصود على مانفهم من هذا العرض ، هو حل الحركات ، والتنظيمات والفصائل . المسألة أيها الرفاق ، واضحة وضوح الشمس ، في رابعة النهار .

ـ المسألة أيها السادة ، لاتعني ، أكثر من محاولة لتهدئة الأعصاب . إن مشروعنا ، يعني ، إحداث تغيير جذري ، لمجرى التاريخ في المنطقة .

ـ والله العظيم ، ثلاثة ، أنا من طبعي . . .

ـ لم يتمم أبو عمار الجملة ، التي بدأها ، ثم إبتلعها .

ـ من طبعك مسالم . قلها يا أبا عمار . مهما تكن عند إمرىء من خليقة ، وإن خالها تخفى على الناس تعلم .

علق أبو نضال ، فرد فوراً عليه :

ـ أنا لم أقل ذلك ، إنما أنتم دائماً ، سيئوا الظن في شخصي ، وتزايدون ، علي الوطنية ، والثورية ، والعمل المسلح . إنما في الحقيقة أردت أن أقول ، وليشهد أخي الجزائري ، المجاهد ، على ذلك . إنني ضد إختطاف الطائرات ، وضد الإرهاب . ولقد أرسلت إلى صديقي العزيز ، جيمي . . .

ـ نحن لسنا في ضيافة أمريكا ، على ماأفهم !

ـ المعذرة . زلة لسان .
ـ ومتى يتم هذا التحرير ؟
كان السؤال لجورج حبش ، فصادق عليه أبو عمار ، بإيماءة مستحثة ، من كامل نصف جسده العلوي ، جعلته ، لولا الضحكة الكبرى من عينيه ، التي تفقده في كل مرة وقاره ، يبدو ، كما لو أنه صيني أو ياباني .
ـ بعد أربع وعشرين ساعة .
ـ هل بالإمكان معرفة بعض التفاصيل ، حتى تسهم جميع وحداتنا ، في هذه المعركة الحاسمة ؟ لابد من ديمقراطية المعركة ، وفلسطنتها ، مادامت ، تعربنت .
تساءل نايف ، فلم يأته أي جواب .
ها أنني من جديد في الأرض . الزعماء ركبوا الأشعة ، وعاد كل منهم إلى موقعه ، لا أحد منهم ، باستثناء ، أبي عمار ، يميز بين الحقيقة والحلم ، في كل ماسبق أن سمعه ، ورآه ، وقاله .
ـ سأصدق ، وإن كانت أضغاث أحلام . ظل أبو عمار يؤكد لنفسه .
كان ذلك في النصف ساعة الأولى ، من العودة . لكن بعدها ، وبعد تبادل الإتصالات بين القيادات ، راحت ، كما كان مقدراً ، ومبيتاً ، تماماً ، أجهزة الهاتف والإتصالات بجميع أنواعها ، تتبادل المواعيد ، بعد أربع وعشرين ساعة ، في القدس ، وحيفا ، وتل أبيب ، وتتبادل التهاني بالنصر الموعود .
وبالمقابل ، عادت الأجرام الفضائية الأمريكية ، إلى العمل ، وراحت أعينها ، تحدق في منطقة الشرق الأوسط ، شبراً فشبراً ، تبحث عن جحافل الجيوش العربية ، والسوفياتية ، والهندية ، والباكستانية ، وكل الدول الإسلامية والإشتراكية ، التي تزحف على فلسطين ، الأمر الذي

جعل الفلسطينيين ، يتحدثون بهذه الثقة ، وبهذه الإستهانة ، بميزان القوى ، الإقليمي والدولي .

في ذات الوقت ، تنعقد ندوة صحفية ، فريدة من نوعها ، في تاريخ السياسة والحروب .

البيان الصحفي كان في غاية من الإيجاز . . إبتداء من الغد ، ولمدى أسبوع ، يتم القضاء ، على الكيان الصهيوني، وتوحيد فلسطين والأردن ، ولبنان من جهة ، وسورية والعراق والأقاليم المجاورة ، من جهة أخرى ، كأساس أولي ، للكونفيدرالية العربية ، التي ستنجز في آخر الإسبوع .

ياجماهير الأرض المحتلة ، يستطرد البيان ، عليكم ، بدءاً من الساعة الثامنة والنصف ، من صباح نهار الغد ، أن تتوجهوا إلى جميع الثكنات والوحدات ، والمطارات ، لتجمعوا العتاد والعباد .

العدو الآن ، أعزل مثله مثلكم ، والعملية ، ينبغي أن تتم في تمام منتصف النهار . التوقيت الوارد في هذا البيان ، غرينيتشي ، كما لايخفى عنكم ، فعدلوا ساعاتكم ، منذ اللحظة .

ـ نحن نريدها ، وحدة شاملة كاملة ، إندماجية ، من المحيط إلى الخليج ، فلماذا هذا التخاذل ، وإعلان الكونفيدرالية ؟ هذه خيانة . أنا صحفي من . . .

ـ أنت صحفي عربي ، وهذا يكفي . لاضرورة للتفاصيل . سيكون المجال ، أرحب ، بعد إسبوع . أليس كذلك ؟

ـ هو كذلك ، إنما ، وللتاريخ والحقيقة ، فإن . . .

ـ والولايات المتحدة الأمريكية والـ . أ . س . أي هل قرأتم لها حساباً في هذا المشروع العربي الضخم ، أم أن هذا الإنجاز موكل في مناقصة

دولية إليها . . . ؟!

كانت صيغة السؤال مثل اللهجة الملقى بها ، في غاية السخرية ، حتى لأنه أثار إبتسامة الجميع ، بما في ذلك الصحفيون العرب . غير أن الجواب ، كان في منتهى الهدوء والحسم .

ـ ستكون كل الأسلحة الغربية ، التي تدخل المعركة ، هدية لمتحف الأسلحة الكلاسيكية ، الكونفيدرالي .

إنتظروا أيها السادة ، البلاغ الحربي ، رقم إثنين ، في تمام منتصف نهار الغد .

ـ وهل هذا هو البلاغ رقم واحد ؟

ها هنا يداهم النوم أحياناً كثيرة ، حضرة المستشار ، فيظل في المرحلة الأولى ، بين مستيقظ ونائم ، بين مخترع عبقري ، يمارس الإضافة ، وبين نائم ، على عتبات الإستغراق ، إن لم يوقظه شخص ما ، أو أمر ما . كما أنه من الجائز أن يكون ، نام قبل ذلك ، عند النظرة الممتنة ، لأبي عمار ، وهو يعانق مودعاً ، وكأنما يستصفح ، عما يكون قد بدر منه من إساءة ، أو خطأ ، في حق الغير ، أو على الأقل ، مايمكن أن يفهم ، على أنه ، كذلك .

مهما يكن من أمر ، فإن الحلم كامل ، بكل تفاصيله ، وجزئياته ، ودقائقه ، بما في ذلك إستدراج الولايات المتحدة الأمريكية ، بالإعلان عن التوقيت المضبوط لبدء المعركة ، إلى جانب التكليف غير المباشر ، للفلسطينيين ، بإذاعة الخبر ، مايتيح لها الوقت الكافي ، لجمع أقصى مايمكن ، من البوارج وحاملات الطائرات ، وغواصات ، وقاذفات صواريخ نووية ، ومشوشات على الرادارات ، والراديوهات ، والأقمار ، إلى غير ذلك ، مما يمكن أن يستنفر ، من القواعد المنتشرة في كل مكان .

خاصة بالمنطقة العربية .

يطوف طبق طائر أبيض شفاف ، ليس في إمكان أية آلة ، تصويره ، أو ضبطه ، حتى العين المجردة ، لاتستطيع التحديق فيه أكثر من بعض ثوان ، ذاك أن نوره ، مبهر ، وأن الأشعة التي يرسلها ، مخدرة . يرسل أشعة ، عبر أمواج سرعة الحلم ، فيتمغنط كل شيء ، ويلتصق ببعضه البعض ، عائداً إلى حالة المادة الأولية ، تأتي بعد لحظات قصيرة ، الأطباق العملاقة ، لتحمل الجنود والضباط إلى مخابر العلاج ، حيث ، تثار في أمخاخهم ، خلايا الإنسانية ، فتتغلب عن خلايا حيوانية ، ليتخذ الموت والقتل والدم والظلم والقهر ، معانيه الحقيقية في أذهانهم ، ويلتحقوا بمستوى الإنسان المتحضر . الإنسان الإنسان ، المتدرج بإستمرار ، نحو الألوهية .

يطلق سراحهم ، فيقترحون من تلقاء أنفسهم ، القيام بعمليات نقل أدوات الدمار التي كانوا يقودونها إلى المتحف الكونفيدرالي ، وأن يظلوا هناك أدلاء للسواح والزوار ، من مختلف أنحاء العالم .

مسألة الرؤساء والملوك ، ومسألة اليهود ، غالباً ماتكونان ، اللمسة الأخيرة ، التي قد تتأجل من ليلة لأخرى ، نظراً إلى مفعولها القوي في التعجيل بالنوم .

يراها ، حضرة المستشار ، ماثلة ، كاملة بين عينيه ، في الظلمة ، يبتسم لها ، ولكن يحلو له أن لايدخل في تفاصيلها ، إلا إذا كان فعلاً مؤرقاً .

التفاصيل بإختصار شديد ، هي ، بعد أن يقطع سعد حداد ، كامل تراب الكونفيدرالية ، من المحيط إلى الخليج ، حبوا ، تكفيراً عن ذنب كل الخونة العرب ، وتطهيراً لهم ، ليعودوا إلى الحظيرة . . . يتم تنصيب كل

الرؤساء والملوك والأمراء ، حجاباً في قصر الكونفيدرالية العظيم ، بعضهم أمام حظيرة السيارات ، ينظمون توقفها ويحرسونها من أي إشتعال محتمل ، ويزيلون الأغبرة عن بعضها . آخرون ، في مدخل المقر العام ، وفي مدخل كل طابق ، الأرضي ، فالأول فالثاني إلى منتهى الطوابق . غيرهم ، رسل بين الطوابق . أما من يحسن القراءة والكتابة منهم ، فيكلف بملء الإستمارات للزوار ، أو بتوزيع الصحف وقطع برقيات التيليكسات ، والفوكسات ، أو حتى بتوزيع القهوة العربية والشاي ، وصيانة مخزونات الثلاجات في هذا الطابق أو ذاك .

المهم أن يظلوا على السطح ، في متناول نظر الجميع ، فالصينيون ، قالوا قديماً ، من يغب عن الأنظار ينسه الناس .

تكون العملية الأخرى قد تمت أو على الوشك ، طبق ركاب أو إثنان ، وعدة أطباق متاع ، يكفي لنقل جميع اليهود غير العرب ، إلى جزيرة ما ، في محيط من المحيطات ، لإنشاء دولة هنالك ، تمون يومياً ، وحتى تستقيم مقوماتها ، من طرف الكونفيدرالية .

طبعاً. ليس بمثل هذه السهولة، فما المسألة، إلا مسألة اختصار وتلخيص.

لابد من محاكمة، ولو رمزية لبيغن، ودايان. تنقل الأطباق تفاصيل المحاكمة التي لابد وأن تستغرق عدة أشهر، إلى جميع أنحاء العالم، في بث مباشر. التهم والمناقشات، والحيثيات، والأسئلة، تستغرق بدورها، ليالي كاملة، وتساوي في مجموعها، عدة كيلوغرامات من الحبوب المنومة. لكن لابد من ايراد السؤال المهم الموجه للمتهم الرئيسي بيغن، كرمز للصهيونية: هل أنت انسان حقاً أم لا؟ هل الناس الآخرون جزء من الانسانية، أم لا؟

يدرك اللعين سر السؤال، ويطلب مهلة تفكير، تطول المهلة أسابيع،

ثم يعلن اثـرها المتهم الرئيسي أن الجواب، يتعداه، وأنه من اختصاص الأنبياء وحدهم، وان هو إلا واحد من شعب الله المختار.

بعد مداولات هيئة المحكمة، يعلن الريس، القرار التالي: حكم على الصهيونية في شخص المتهمين بيغن، وموشي دايان، بالحياة، في أية بقعة من العالم، يختارانها، ما عدا الجزيرة، وبالوقوف، عند جدار المبكى، سبع مرات في السنة. تكاليف النقل والاقامة، تتحملها الكونفيديرالية. وحكم على اليهـود الـوافـدين من خارج فلسـطين، بمغادرة جميع مدن العالم، والاقامة، في جزيرتهم، وتحمل مسؤولياتهم، كقوم يزعمون أنهم شعب. أما اليهود العرب، وبقطع النظر عن الماضي السياسي، القريب والبعيد، لكـل واحـد منهم، وعن الخـدمات العسكرية التطوعية، والقسرية التي أدوها، فيما كان يسمى بدولة اسرائيل، وفي انتظار ايقاظ خلايا الانسان في أمخاخهم، فالحكم في حقهم، هو هذا: المنع البات من ممارسة أي نوع من التجـارة، ومن امتـلاك الحمام الزاجل، والترغلة، والقطاة، ومن اعطاء المهور، عند تزويج بناتهم، وكذا بحضور محاضرات يومية يلقيها الاستاذ نايف حواتمة. التوقيت واختيار القاعات، يتفق فيه الاستاذ المحاضر مع الأحبار، بكل ديموقراطية.

جزئية، عملية اخضاع أمريكا الشمالية، إلى ظروف أمريكا الجنوبية، وتصحيح النظرة البشرية، للدولار، بحد ذاتها، حكاية، تستغرق ليالي برمتها، وتزن قناطير من حبوب النوم. فما عملية الشرق الأوسط، سوى تمهيد أولي، لتـطبيع بشرية البشر، وتحقيق الـذات الكهـربية للكـون، وباختصار مراحلها.

الانسـان واصـل، لامحـالـة، إلى هذا المستـوى، لكن، بعد حقب وحقب، تجف البحار، تموت النباتات، تتوقف بعض الحواس والأعضاء،

كالأيدي، والأصابع، والأقدام، والأجهزة الهضمية عن العمل، ينقرض الحيوان من كل نوع. أما الكائن البشري، فيضطر إلى تركيز تفكيره في مصيره.

يومذاك، تجف الغشاوات اللزجة، في الدماغ. تزول مواد السحر التفاحية العازلة، وتنبض ملايين الخلايا.

يتوحد الانسان مع الكون أو بالتدقيق يكتسب كينونته، ويتاله. يتم وضع حد نهائي، لما أسماه الأولون، بالمثل أو عالم المثل، أو ما شابه ذلك. وتتجلى الجبة، وما فيها.

بفضل كارل ماركس، ووبليام جيمس، والجزائري، حضرة المستشار، وبعض الاشارات الواردة، في الاتصالات الانسانية البدائية، بالسماء، وكذا بعض تخمينات، تروتسكي، حول الثورة الدائمة، أمكن اختصار كثير من الأشواط والمراحل، بل واستباق أحداث التغييرات الجيولوجية، والتحكم فيها.

فيما يخص أمريكا بالذات، تنتصب الأطباق الجزائرية، بالعدد الضروري، فوق كل المدن والقرى والمصانع المنعزلة.

تنقطع أجهزة البث بمختلف أنواعها، ينطلق الانذار الأول:

«أيها الأمريكيون، ليس أمامكم، سوى ساعة واحدة لمغادرة المصاعد، وترك الأبواب، جميع الأبواب مفتوحة، ومغادرة البوارج والطائرات والسيارات، وكل ملجأ، له طابع ميكانيكي، وكل ما هو معدني، متحرك. أسرعوا لمواجهة التجربة».

تستشار العنجهية الأمريكية. تتحرك آلاف الطائرات. تطير. تنطلق ملايين الصواريخ. ينتشر سواد غمامي. تنتهي المهلة.

يتأكد الجميع من لا جدوى وسائل الهجوم والدفاع البدائية، ذات

الطابع التدميري، ومن أن كل ملايير الملايير، من الأموال المنفقة فيها، كانت عبث أطفال بخبز الانسان.

تتعـطل السيارات. الـدراجـات. البـواخـر. المصـاعـد. الـدرج الكهـربـائي. الأبـواب. النـوافـذ المحـركـات بجميع طاقاتها. الأقفال الحديدية. تنطفيء الأنوار.

تنقضي سبع ساعات على هذا المنوال. يتجدد النداء مرة ثانية.

«أيها الأمريكيون. العلم الأبيض الذي يتوجب، أن ينتصب فوق جميع البنايات، وفي جميع الشرفات والنوافذ، معناه:

تسليم كل ما لديكم من مخزونات حربية، لتلقى في الفضاء الخارجي، للمجموعة الشمسية التاسعة، استباقاً للكارثة.

اغـلاق جميع مصانع السلاح، بجميع أنواعه، ومصانع الشوينقوم، والويسكي، ونظارات رايبان.

اعلان استقلال جميع الولايات.

تغيير علاقات الانتاج، حسب المبدأ المعروف، من كل حسب عمله، ولكل حسب مقدرته وكفاءته.

أيها الأمريكيون، أمامكم ساعة واحدة».

يتعنت البانتاغون والبيت الأبيض، فلا يرتفع العلم الأبيض، فوقهما، لكن باقي الأمـريكيين، يستجيبـون للنداء، وأكثر من ذلك يتطوعون، ليسهموا بحماس، في شحن القاذورات المدمرة، داخل الأطباق العملاقة، لتنطلق الحركة الطباقية السريعة، بين الأرض وفضاء المجموعة الشمسية التاسعة.

في تلكم اللحظات الخالدة، تكون جميع البورصات في العالم، تسجل السقوط السريع للدولار، وتعلن المكاتب السياسية، للأحزاب الشيوعية

في العالم الاشتراكي ، عن قرارها باغلاق «البريوسكات»، ومحلات البيع بالعملة الصعبة، ويقذف جميع الناس في العالم الثالث، ما في أفواههم من شوينغـوم، أو ويسكي، وتعلن الجـزائـر، عاصمـة الكونفيديرالية، عن سقوط النفط والغاز، كطاقة محركة، أمام الطاقة الجديدة، المجانية، المتوفرة في الكون، والامكانية السهلة والمجانية، لتحويل كل محرك جرار أو دافع، مهما كان نوعه إلى الاشتغال بهذه الطاقة.

يظل رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، السابقة، حبيساً في المصعد بين الطوابق، مستنجداً بكل العبارات الأمريكية الوضيعة.

يفك الحصار ، يوجه إنذاراً جديداً . يعاد الحصار . يتقدم المواطنون الأمـريكيون إلى البيت الأبيض وإلى جميع مؤسسـاته ، ويرفعون أعلاماً بيضاء ضخمة . تحل الطمأنينة ، ترتخي العضلات . تهدأ الأعصاب . ينام حضرة المستشار بسلام ، متغلباً على وجد العشق ، لعمود الهاتف ، بكل سماحته ، وعظمته ، ورنين الخيوط المعلقة به ، وعلى جراحات النفي من المسرح ، بأنـواره وستائره ، وحباله ، وعماله ، وممثليه ، وإخفاقاتهم الصغـيرة ، ونجاحاتهم المؤجلة من ليلة لأخرى ، وإصطخابات الأكف التي تبدو في كل مرة ، أقوى وأصدق بكثير من المرات السابقة ، وعذابات الضمير من الموقف النذل من الشيوعيين ، وسياط الزبانية كل يوم ، في الوزارة ، وبكل إيجاز ، ماتشكل في الختام ، في جيم رخوة ، لزجة ، ونون أخطبوطية ، عنيدة .

الحلم . هكـذا بلا شروح ، بلا نعـوت ، بلا تعليقـات ، وبـدون حماسة ، بالصيغة الممارس بها ، لحد الآن ، وفي هذه الليلة بالذات التي يأبى فيها طائر النوم التحويم ـ كما يقال ـ الحلم موجز جداً .

لعل التشوش الخاص ، أو الإضطراب النوعي العارض ، ولا شك ،

والتهيج العشقي للأعصاب جعلته يلخص إلى هذا الحد ، وبهذا الشكل المل .

المسألة ، ربما ، فيها قليل من الرتابة ، إذ أنه بالنسبة لحضرة المستشار ، مفرغ من كل إبتكار ، وبالتالي من كل لذة ، لقد كان ذلك ثمرة السنوات الأولى من الوعي الوطني والقومي والأممي ، ومن التوهج العاطفي الثوري ، ومن تفتح عبقرية الإختراع ، والحضور الإضافي .

نقـطة واحدة ، لم تحل إشكالياتها ، طوال سنوات الطوبى . التفكير فيها ، لايؤدي إلى نتائج حاسمة . لايتقدم حتى إلى آفاق واضحة .

ما العمل بأبي عمار ؟

من أية زاوية ، يجب أن ينـظر إليه ؟ هل يمكن إعتبـاره ملكـاً ، أم رئيساً ، أم أميراً ، أم زعيماً ؟

هل يمكن بحال من الأحوال ، التجرد من العاطفة الإنسانية في هذه القضية ؟

فلسـطينياً ، لايمكن طرح السؤال مطلقاً ، لأن الذاتيات ، هاهنا ، ستناقض حكمة الذئب المشهورة « اللي تتلفته أجريه » .

لن يكون حاجباً ولا رسيلاً بين الطوابق بكل تأكيد .

لن يكون مرشحاً ، لعضوية أية بلدية ، ولا قائداً عاماً ، حتى لفرقة أشبال ، أو رجال مطافىء ، في غزة ، لن يجد الصبر الكافي ، للإنزواء في مكان ما ، وتسجيل مذكراته ، ومراجعة حسابات المصارف .

لن يسمح ناجي علوش ، بإسناد مهمة تدريب الرؤساء والملوك ، في مهامهم الجديدة ، على التواضع ، والإبتسام ، والإنحناء ، لأبي عمار ، مهما كان الأمر .

أبو عمار مرحلة ، مهما توجب إجتيازها ، فلا بد من تسجيلها ،

تاريخياً .

تعيينه مندوباً سامياً ، أو حتى سفيراً فوق العادة للكونفيدرالية ، لدى « الدولة الجزيرية » ، لن يكون ذا جدوى ، لأن مايحتاجه العرب يومذاك ، وفي المراحل الأولى على الأقل ، هو الإصغاء الجيد ، وليس الخطب الرنانة ،

تبقى ـ كالعادة ـ مسألة أبي عمار معلقة إلى الليلة القادمة ، وإلى كل ليلة ، وإذا ماحلت ، وهذا مستبعد جداً ، جداً ، في ليلة ما ، فستكون ، مثل كل حديث الليل ، « زبدة ، يطلع النهار ، وتذوب » .

نظــرةٌ فابتســام ...

الصباح رباح .

الساعة السوفياتية ، لم تطن الست طنات بعد ، بينما أنهى اللمسات الأخيرة ، من إستعدادات الصباح العادية ، بالنسبة ، لكل موظف سام ، وأضاف إليها ، تطبيق التعليمات التي تلقاها .

حلق الذقن ، بدقة ، وبإصرار غير عاديين ، تعطر في كل موضع من جســده ، من قارورة عطر ، أهــديت له في أيام المجـد ، من إحـدى المـعجبــات ، ضمن باقــة ورد ضخمــة . إرتــدى القميص الأبيض الحـريري ، الـذي إرتداه في آخر سفرة إلى المشرق العربي ، على رأس الفرقة . سوى ربطة العنق الفراشية السوداء . مرر الفرشاة اللدنة بعناية ، على عنق الســترة «السموكينغ» ، يزيل غبار السنين ، الذي يكون لا محالة ، قد علق بها ، رغم الإحتياطات الصارمة التي تتخذها فجرية ، في مثل هذه المسائل ، إرتداها ، وواجه المرآة الطويلة :

ـ أيامها ، في مثل تلكم الحالات التي يقول المرء في سره ، عنها ، مهما كانت اللحــظات قصـيرة ، ومهــا كانت الغبـطة عابـرة ، يكفيني أنني عشتها ، يكفي أن هذا الحلم لذيذ . الفنان في حالة التوهج ، ليس سوى عصفـوراً في حالـة طيران ، مشــدود ، للمـواطن التي تنـاديه للهجرة . ستصل . ستصل ، كابد . كابد . ما المعاناة ، أمام بهجة اللقاء ، وروعة

الإكتشاف ؟ طر ياحبيبي طر ، فما أقصر المسافة بيني وبينك ، وأنت تطير . هذه خفقة قلبي إليك . هذا إلتهاب أكفي إعجاباً بك . هذه زهرة ، ضمن باقة ورد ، حملتها شوقي وصبابتي . هذه نظرتي الوله ، شهادة على أنك ، نبيي والإلهي الذي ، يختلف عن أنبياء ، وآلهة كل الناس ، الذي لايضاهيه نبي أو إله آخر .

جانب المرآة ، بعد أن قابله نصفه السفلي العاري ، وراح يشمت يتبجح ، في الحذاء والسروال :

ـ اليوم أستريح منك .

كان يعني مايقول ، وعلى وعي تام بالفرق بين عبارتي أستريح ، وتستريحين ، بل ، إن في ذلك قدراً غير قليل من الإنتهازية ، أو بالأصح ، من مجاملة ، للمحبوب .

أدخل أطراف القميص الحريري ، في التبان ، ثم تراجع مستاء ، كأنما يجرم نفسه ، نزع التبان بدوره .

ـ عندما قال ، إسترح من التسرول . كان يعني ما يقول ، ويعني مايريد . يجب تنفيذ الأمر بنصه ، وبروحه ، وبكل دقة .

أطفأ الأنوار . أغلق باب المدخل الرئيسي بالمفتاح . خرج إلى الشارع . ملأ صدره بهواء الصباح النقي ، ولفحت وجهه الحليق ونصفه السفلي العاري ، نسمة باردة .

« نادراً مايشعر المرء بالسعادة ، في هذا الوجود الآسن ، وقليلة هي لحظات الرضا عن النفس ، وعما يحيط بها ، والإمتنان بوجود كل ماهو موجود في الكون ، والشعور بصلتنا القوية به ، بمنفعتنا المتبادلة ، بضرورة تبادل المنفعة إن اليوم وإن غداً .

آه . ماأروع هذا الصباح ! ماأجمل فكرة أن أخرج في هذا الوقت

بالذات ! .

إنـدفـع خابـاً ، شبه مستسلم لإنحدار الشارع المظلم ، ليعرج بعد حوالي خمسمائة متر إلى اليمين ، ثم إلى اليسار مباشرة ، مراعياً ملازمة حافة الجـادة ، رغم إزعاجات أشجار الزيتون البرية ، والأحراش المنتشرة في فوضى بين كل شجـرة وأخرى ، فرغم أن الليل مايزال متواصلاً ، وأن السيارات ، لايمكنها أن تسير بدون الإنارة ، فالرد اللاشعوري لكل من يعرف المنطقة ، عندما يسلك هذا الدرب ، أن يتفادى إنخداع السواق ، بإستقامة الطريق ، وبسعته وخلوه ، ناسين الراجلين والكلاب المهجورة ، وكل مايمكن أن يصادفهم في أحد الإلتواءات .

كم من حادث مرور ، مميت ، وقع هاهنا ، فعلى المرء أن يحافظ على حياته ، خاصة عندما يكون لهذه الحياة ، معنى ، ربما لأول مرة ، وعندما تكون شمعات روحه ، متوهجة ، تنير دهليز البحث ، عما هو أكثر من الأمل . تحقّق الذات ، في إكتشاف ذات أخرى ، لها التطابق الكامل ، في النظرة ، في المفاهيم ، في الذوق ، في الشعور ، في الإستخلاص الماكر السريع ، لكل ماهو خاص في الناس والأشياء والقبلة ، في الإرتباط ، بمعالم الرؤية ، بموجة واحدة ، لايطرقها طارق آخر .

بعد نهاية المنحدر ، يأتي الجسر الحوال ، ثم الطريق المزدوج . حزام الجزائر الذي لم يشرع بعد في الإلتفاف حول خصرها ، أو بالأصح ، على وركيهـا ، فالجـزائر ليس لها خصر ، لأنها ، بقدر مايحاولون أن يجعلوها مستديرة ، تتحداهم فتتطاول في أحضان البحر .

« هناك » .

هناك في المنبسط ، ينتصب الحبيب .

في الإمكان الآن ، إغماض العينين ، وقطع المسافة ، بلا أي خطأ ،

أو خوف من محذور الطريق .

كيف يمكن أن يحدث ذلك ، وهو يقودني . يمسك بيدي يهديني . يرسل نوراً مشعاً . ينير كل خطوة من خطواتي . يهمس : لا ، ليس من هناك ، بل من هنا ، قليلاً إلى اليسار ، واصل أماماً ، إنعراجاً صغيراً إلى اليمين ، ثم إستقامة . أدر الرجل اليسرى قليلاً ، نحو اليسار ، أتبعها باليمنى ؟ أكثر من كل شيء ، إنه يتحول إلى أنا ، وأنا أتحول إلى هو . ومهما كانت عيناي مغمضتين ، فإننا نرى ونبصر الطريق .

هاهو . دونها كلها ، يشمخ ، متألقاً . يمسك زمام الأمور بيد مقتدرة .

صاحبي وحبيبي .

يومىء . إنه يومىء إلي ، تلك الإيماءة الربانية ، التي لاتتعدى بعث الحماس في ذهن المعني ، بأنه هو ، بالذات المعني ، وليس أحداً آخر غيره .

رآني .

لقد رآني . كان يراني ، قبل أن أصل . كان منذ الأزل يراني . نظرنا يرتبط . إحساسنا ببعضنا يرتبط .

لاشك أن بهجة داخلية ما تعتور نفسه النبيلة ، وهو يجدني في أتم الإمتثال .

ياحبيبي ، ها أنني ، كما إبتغيت وإشتهيت ، حافياً غير مسرول ، أعلن أن لاموجود ، له أهمية ، سواك . ولا إعتبار إلا لمرضاتك .

بعض سحب في الأفق . لايهم . « اللي بقي في الدار يدفع كراها » . لقد مر ماهو أدهى من ذلك ، ولم يثر الإهتمام ، ولا الإكتراث .

الريح مزيج من شرقية وشمالية ، ينذر توترها بأنها ستشتد . ليكن .

أنوار السيارات بدأت تخفت . كلاب المنطقة كلها ، تلتف حول كلبة . أحدها ، قرر التفرد بالعملية . لقد سمحت له . ربما كانت ، ستسمح بذلك ، لكل من صادف ، وبلغ المأتى . ربما كان ، ذلك ، نتيجة إقتناع وتسليم من طرف الجميع .

العماء الآن ، يصيبهما معاً . الجنون يملؤهما ، في حين يكتفي غيرهما ، بسكر الرائحة .

حالة يزيد بن معاوية ، عند المسبح ، قبل أن يزار ، بأخته سلمى : فاز باللذة الجسور .

المجنون .

أية كلمات ، تكفي لتحيتك .

أية سجلات ، تستوعب مكنون الصدر ؟

أيها المعشوق الجليل . الكلمات لاتصدر في حالات اللقاء هذه . لاتتشكل حتى في الداخل ، والكائن يعود إلى بدء طفولته ، يبحث عن أصوات تتجمع لتؤشّر إلى إنطباع الشيء في ذهنه ، والذي علم الأسماء كلها ، لخص أعظم أسرار الكون ، في حاء وباء .

أحبك . أحبك .

يكفي أن العاشق هنا ، وأن المعشوق في الزمان والمكان ، وأن الرضا ، يرفرف على الروح .

كم كانت الطريق إلى هذه الذروة ، شاقة . وكم كانت المعاناة لذيذة ! .

لفت إنتباه حضرة المستشار ، أول مرة هذه ثلاث سنوات ، كان يومها عائداً من الوزارة ، وبالضبط ، أثر إستشارة خاصة ، طلبها سعادة الوزير .

ـ بين يدي، وثيقة مرعبة، تحوي أسماء الطلبة والطالبات، والأساتذة الشيوعيين ، وأماكن وجداول اجتماعاتهم، ومخططاتهم في الزحف على الأرياف الجزائرية. لا يعلم سواي بهذه الوثيقة، ولم أطلع أحداً عليها قبلك. أريد رأيك، ليس كمستشار، وانما كأستاذ وكصديق. مهما كانت امكانياتي، ومؤهلاتي، فتجربتي السياسية قليلة، ثم ان الجو الذي نحياه، يفرض الحيطة من كل شيء، ولأي شيء. أنا لاأريد تصرفاً، أحمق في مثل هذه القضية. هاه ما رأيك؟

ـ الحل الوحيد ياسعادة الوزير، أن تبلغها لسيادته، في لقاء عاجل. مسؤولية وثيقة كهذه، لايمكن أن تتحملها سوى القيادة الثورية.

ـ لسيادته مباشرة!

ـ فرصة أيضاً، للتفرد به، والرد على بعض الخصوم، بأنك ما تزال في أوج قوتك.

ـ ألا يجوز اخفاء الوثيقة. حرقها، أو اتلافها. على الأقل، اعادتها بالطريقة التي أخذت بها إلى أصحابها؟ ان التحسب للمستقبل، واجب، خاصة وأنه يشاع، أن سيادته في شبه حوار شخصي معهم، بل، لقد شاهد الناس بعض المتخفين منهم، في شبابيك الولاية، يستخرجون جوازات سفر. وأذكر أنه في خطابه الأخير، لاطارات الأمة، استعمل عبارة «أخواننا الشيوعيين». رغم أن الكثيرين، لم يولوها اهتمامهم، فقد رنت في ذهني رنيناً خاصاً. ماذا تريدني أن أفعل، أنا الموجود في وسط، يعتبر في العالم أجمع، وسطهم.

ـ هذا ما جعلني أفكر في أن لاتسلم لغير سيادته.

ـ ترى أن وقوعها بين أيدي غيره، ربما يفسد بعض خطط سيادته؟

ـ لم أقل ذلك.

لم يخف خبثه. لم يتمكن من ذلك. حتى أن وجهه، اعترته حمرة، وبدا عليه الاضـطراب، ما جعل الاستشارة تتحول إلى استنطاق، مهما كان لبقاً، فانه غير ذكي، اطلاقاً.

ـ مع أنـه ممثـل بارع، لم يتمكن من اخفـاء بعض الافتعال. خانته التلقائية. ذلك أنه لم يكن صادقاً. . . هذا الرجل لن يصدق أبداً. هكذا يجب أن تؤخـذ الأمـور، وإلا كيف يمكن أن يدور حديث مثـل هذا، مشحون بأسرار للدولة، في أعلى مكتب، بالبناية الموقرة، بدون استعانة، بقليل من الموسيقى؟ ياله من استبلاه.

قرر حضرة المستشار في سره، ثم أضاف:

ـ اسمع يا سعادة الوزير. لا يسع موظف سام في الدولة، تجاه مثل هذه القائمة، ومهما تكن انتماءاته، بل، وحتى ان كان اسمه، ضمنها، إلا أن يبلغها لسيادته، وعلى الفور العاجل. كرئيسي، وكصديقي، وكابني ـ كما تقول ـ أؤكد لك، أنك تحرجني كثيراً. عندما أشركتني في مثل هذا السر، انما أشركتني في حمل ربما أعجز عن تحمل ثقله.

أيكـون حضرة المستشـار، بريئاً إلى هذا الحد الذي يتظاهر به؟ لا. القضية كلها، أنه ممثل، أكثر براعة مني اللعين يهددني، بعدم السكوت عن السر، من يدري، ربـما كان بدوره، ومن أول يوم، عضـواً في احـدى الشبكات التي تسير البلد، وتوجه مصائره؟ ربما، كانت قضية ابعاده من المسرح، ثم اشعاري بأن القيادة الثورية، تتمنى أن لا تراه، يظهر في مظهر الضحية، فمهما كان أمر ماضيه البعيد، فله ماض وطني قريب مشرف. من يدري؟

لاياحضرة المستشار. السارق لايسرق سارقاً، «واللي أكل خرفان الناس يحضر خرفـانـه». مع أنني أعددت آلة التسجيل، لكي لايفلت خناقك

مني، فان استنجــادي بك، كان صادقــاً، ولم يكن، كما استخلصت، استنـطاقاً بوليسياً. ربما، كانت الصيغة غير لبقة، لكن أؤكد لك، أنني كنت في حاجة إلى رأيك. لا لأنك مستشاري فقط، أو لأنك محل ثقتي، لكن وأيضاً، لأنني أعرف، أنك ستتصل بهم، طال الزمن أم قصر، وأنك ستبدي في يوم من الأيام شهادة في. «بق والزمن يلقي»؟.

طلب الرئاسة فعلاً، كان يبتسم وهو يفعل ذلك، دون أن يأذن لحضرة المستشار بالانصراف، كأنما يقول له، أترى أنني لم أكن أخدعك، وأنني لم أكن قط، أمثل. استأذن في مقابلة عاجلة لأمر خطير، يتعلق بأمن الدولة - ربما تكون بهذا أعدت الكرة، لمن يكونون، قد قذفوا بها اليك، لمعرفة مدى مسايرتك لتطورات الأمور، وانسجامك مع الخطط.

ودعه سعادته بحرارة، مؤكداً أنه لم يخطىء، عندما التجأ إلى رأيه، وأنه سجل أن حضرته لم يسأله، كيف وقعت الوثيقة في يده، ولو فعل ذلك، لأحرجه فعلاً.

يومها تبدى المعشوق. كشف عن وجوده، وقال انني ها هنا. كيف لاتبصرني؟

كان السـائق يقود السيارة، في طريق العودة، بنفس الايقاع وبنفس السرعة، بل، ويجب القول، بنفس الرتابة التي تعذب سيزيف، أكثر ما يعذبه الجهد البدني الذي يبذله. أسئلة كثيرة تطرح نفسها، ولا تجد جواباً. ماكان الموقف الصحيح، في استشارة سعادته؟ ألم يكن من المفروض، أن يثور حضرة المستشار، قائلاً: ان للاهانة حدوداً، وانه يمكن أن يستشار في كل شيء، إلا في مثل هذه المسائل، حتى من باب المجاملة واللباقة؟ لماذا أبدى بلادة حس، تجاه الجرح الذي أوجع به القلب؟ الثمن الذي يطلبونه، أخذوه، هذه سنوات، فلماذا كل هذا التلاؤم والامتثال؟ أليست

هذه خيانة، تجاه رفاق الأمس البعيد، ورفاق الغد المرتقب؟ هل من المعقول أن يبدي كل هذه الحيادية، تجاههم، أما كان من الشرف ومن المروءة والكرامة السياسية، أن يقول: هؤلاء، مهما كان الأمر، اقتسم معهم، نفس الأفكار والآراء والمبادىء، وبقطع النظر، عن تواجدي بعيداً عنهم، بحكم الظروف، والرأي القاطع هو أن تحرق هذه الوثيقة، وأن تقول لمن أعطاكها، انه كذاب ومنافق، وملفق معلومات؟ لماذا كل هذه الاستقامة، وهذا الوفاء لمؤسسات تعتبرني عدواً لها؟

فجأة جذبته قوة خارقة، أدارت الرأس إلى اليمين، وفتحت الذهن. قابله، تبدى!

مع أنه في طول وسمك ولون باقي الأعمدة، ومع أنه مشدود بنفس الخيوط التي تشدها، فان البصر اختطف. انبهر. والقلب اهتز. حرارة ما صعدت إلى الصدر، توقظ كل الحواس. خصلة ما، يتفرد بها. وهج ما، انبعث منه. سكن الروح. بل ان ما أراد أن يقوله، كان في غاية الوضوح: كيف لاتبصرني ياحبيبي؟ لم يستعمل عبارة ياحبيبي بالضبط. لكن الأكيد أنه قصدها. ضمن شحنتها معناها. في الحقيقة، لم يستعمل أية كلمة، انما ضمن وهجه، ملايين الكلمات.

في الساعة الثانية، وعندما كان يتوجه إلى المكتب، حدث نفس الشيء، مما اضطره، ولأول مرة، أن يأمر السائق بالتخفيف من السرعة، والتمهل قليلاً. هذا العمود. هذه الخشبة المنتصبة، كائن خاص. حي. انه شيء من لحم ودم. له عينان، ويدان ورجلان، و. . لا. انه ليس كذلك. انه حي، ولكن ربما هو الحياة عينها. ربما هو مصدرها. ربما هو خزان ما في من حياة. ربما هو روحي.

ـ هل أنت بخير، ياحضرة المستشار؟

لم يجبه. راح يهزأ من نفسه: نشوة الانتصار على سعادة الوزير، أسكرتك، وجعلتك عاطفياً. لماذا لاترى في قوائم الجسر، فخذي نجاة؟

إنهمك في إجتماع مع مساعديه، ونسيه. نسي المسألة كلها. بل إنه تذكرها مرة، فابتسم، ليعبر عما يشهر به من تفاهة أوهامه. لقد رصد وهمه جيداً وهو يتذكر، أنه تلاشى، بمجرد دخول السيارة، تحت الجسر الحوال. وما تذكره له الآن، وسط الإجتماع، سوى ورود خاطر بالصدفة. من قال إنه يسيطر عليه، ويدق باب ذاكرته، وفكره؟ وهم. وهم. مجرد وهم.

أكد عشرات المرات لنفسه، وإقتنع بأن الوهم هذا، سيمحى هذا المساء بالذات من رأسه، وقال لنفسه وهو يركب السيارة لآخر مرة في هذا اليوم التاريخي.

ـ ينبغي أن أتجاهله تماماً.

وظل يحدث السائق، على غير العادة، في مواضيع لم يكن يطرقها، أصلاً، الأمر الذي لفت إنتباه السائق، وجعله يتأمله من حين لآخر، كأنها ليتأكد من أن حضرته، على أحسن مايرام. طلب منه أن يذكر له أسماء أبنائه التسعة، وأن يصف له كيف يتمكنون من العيش في غرفة واحدة، ثم سأله، وهذا ماأثار تعجب السائق أكثر، كم مرة يجامع زوجته في الشهر. سكت السائق قليلاً، وعندما أعاد حضرة المستشار السؤال، إبتسم وقال، نحن نحسب بالليلة، وليس بالأسبوع أو بالشهر، إنها تقول لي يجب أن تتعب معي حتى لاتطمع في غيري، عندما قلت لها أن من يتغدى كل يوم، ويتعشى، البطاطس، تنفتح شهيته لطبق فاصولية بهريسة تونسية، حتمت علي ليلتها، أن أضاعف طبق البطاطس.

ماكاد بضحك ، وماكادت السيارة تخرج من الجسر ، حتّى طلب منه التمهّل .

ـ على رسلك . على رسلك . جمال هذه المنطقة ، يأخذني . على رسلك . تأمل السائق المنطقة ، وتأمله ، ثم قال لنفسه ، هؤلاء السادة ، المسؤولون ، المشبعون بالثقافة والعلم ، ومافي الكتب ، بقدر ما يبتعدون عنا يقتربون من الأطفال . يسألني كم مرة في الشهر ، أنام مع زوجتي . ربما لهذا السبب بقي حتى الآن أعزب .

إنجذب ! رآه هو . بخصوصيته . بتفرديته ، بهذه الهالة من الحياة التي تحيط به . بصوته . بإشاراته . بالجاذبية الغامرة ، المنبعثة منه . إنه يقف في الرأس . هنا في الفكر ، والذهن والقلب ، وليس على حافة الطريق . يقف في كل ماضيي ، وفي كل حاضري ، وفي كل غدي .

رغم تمهل السائق ، فقد مرت السيارة بسرعة ، سرعة خارقة ، كما تبين له . فاضطر إلى الإلتفات .

لم يتغير .

موقعه عادي جداً بالنسبة لباقي الأعمدة . خط مستقيم على مدى كيلو مترات ، في هامش الطريق الإزدواجي المنسق بعناية من طرف مصلحة الجسور والطرقات ، التي لاشك ، ترى فيه لعبة جديدة ، ستشدها إليها فترة ، ثم تهملها مع باقي اللعب القديمة . كل شيء إصطناعي في هذه المنطقة ، ولا يمكن أبداً أن يشذ وضع عمود هاتف ، عن نسق باقي الأعمدة .

لكنه تبدى . أومض . إلتمع .

رأيته . أكاد أجزم ، أنه رآني بدوره . كان يسترق النظر إلي . بل إن صوته ، يمتزج مع نظرته ، مع مافي خاطري . بل ، إن دفئاً قوياً ، تدفق

منه وغمرني .

ـ ألم تر شيئاً خاصاً ، على هامش الطريق ، من الناحية اليسرى ؟ ألم يثر إهتمامك أي شيء خارق ؟

ـ ماذا تريد أن يثير إهتمامي ياحضرة المستشار أكثر مما أنا فيه ؟ لم ينم ليلتها . لم ينفعه شيء . لا الذات الكهربية للكون ، ولا الأطباق الطائرة ، ولا محاكمة بيغن وموشي دايان ، أو توقف مصعد رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، بين الطوابق ، ولا حتى إشكالية أبي عمار ، أو فهرس إحدى محاضرات نايف حواتمة .

حاول أكثر من مرة أن ينهمك في تصور مامن تصورات الجزائري العبقري ، لكن ماأن يكاد يبدأ ، حتى ينتهي . تتقلص الحكاية ، إلى أن تصير ، مجرد بداية ونهاية ، بلا تفاصيل وجزئيات ، تتراءى بين الأعين في الظلمة ، تنتشل المرء ، من يقظته ، ومن العالم الحسي ، وتلقي به في عوالم الخيال والسحر ، والأحلام اللذيذة .

هاهي الطريق المزدوجة تنتصب بين العينين ، في الظلمة ، وتحت الغطاء. هاهو الخط المستقيم للأعمدة الهاتفية والطريق بسياراتها، بضجيجها ، تتلاشى . الأعمدة أيضاً تتلاشى . كأنما يد سحرية تمسحها ، وها هو . هاهو وحده ينتصب قرب الجسر الحوال ، يتمتع بشيء ما خاص به . ينتزع إهتمام المرء إنتزاعاً ، ويلقي في رأسه ، بشيء منه .

لم يتضح أسلوبه بعد ، فلا هو التطاول ولا التبختر، ولا الإعجاب والزهو بالنفس ، ولا برقع الجدية ، الذي يسيطر على باقي سحنته . ليست ومضات ولا إشعاعات ذات صلة بالنور المعهود .

لعلها سطوعات وتألقات ، يحسن كيف يرسلها ، كما يحسن كيف ينتزعها ويستردها .

كل أعمدة الهاتف التي بجانبه ، والبعيدة عنه ، قليلاً أو كثيراً ، في المدينة وفي العالم أجمع ، تبدو مجرد أخشاب مصقولة من الأشجار ، بعضهم يشبعها بمادة دهنية ، وبعضهم وهذا نادر جداً ، يطليها بدهن خاص يمنع عنها الرطوبة ، والتآكل والتسوس ، ويضفي عليها لوناً قرمزياً بهيجاً . لكنها ـ كل الأعمدة الهاتفية ـ ماكانت في يوم من الأيام تثير إهتمام أحد ، وحتى إن إلتفت إليها أحد ، إعتبرها ، كائنات فطرية ، طفيلية ، تحتل فراغات ، وتنتظر السقوط أو الحرق ، وكم من عمود هاتفي ، سقط تحت وطأة الثلوج أو الرياح ، أو بفعل صدمة شاحنة ، أو سيارة ، ولم يثر شفقة أحد . حتى أولئك العمال الذين يتولون إبدالها ، أو ربطها ببعضها ، ربطاً مؤقتاً ، عادة مايدوم سنوات طويلة ، حتى هم ، لايبدون أي حماس أو أسف ، على مالحق بها . أما إدارة البريد ، فعندما يبلغها الخبر ، يكون رد فعلها ـ وكأنها كانت تتوقع هذا الحادث الذي تأخر أكثر من اللزوم ـ : « حسناً سنعوض هذا العمود » . هذا كل مافي الأمر .

هو وحده ، له خصوصيته . هاهو يتبدى في الظلمة . من تحت الغطاء . يومض ، ويخفت .

خاص . خصوصية . ماهو هذا الخاص ، وماهي هذه الخصوصية ؟ آه ، لو أن المرء يعرف . لو أن المرء ، يمسك بها ليسألها : أهي فيه ، أم في هذا الدماغ المجهد ؟

لابد من النوم .

الساعة السوفياتية ، تعزف طنينين .

يسأل أبو عمّار ، بكل صراحة ، بعد أن تقدم له جميع أوجه الاشكالية ، عما اذا كان في امكانه أن يتحول الى مواطن عاد ، في الكونفدرالية الواسعة ، يوضع وجهاً لوجه مع ضميره ، في ظل الضمير العربي المنشود .

أحد أوجه هذه الاشكالية، أنه سيفتح مضخات الدموع ويثير الجانب الانسـاني، الذي سبب هذه الاشكالية فلم يلق أبو عمّار، في طابق من الطوابق، فرّاشاً أو ساعياً أو رسيلاً أو ساقي قهوة.

يقول. الكلب. نحن نحسب بالليلة، وليس بالشهر أو بالاسبوع. ترى كم حسب، أو حسبت هي الليلة.

من وضع الوثيقة بين أيدي سعادة الوزير؟.

أيكونون هم؟؟

قد يكونون وضعوها بين أيدي جميع الوزراء؟ لأي غرض؟ هل لمجرد استـطلاع مدى ولاء أعضـاء القيادة، للقيادة، أم لمجـرد اقحامهـم، في موضوع، ليس هناك طريقة أخرى لفتحه معهم؟

. . . . ولم أسأله في كم من سنة، صنعا التسعة أطفال!! في بداية العقد الثـالث، ولـه تسعـة أطفـال. أربعـة وخمسة. قال: وفي غرفة واحدة، ولايتقاضى سوى ألف ومائتي دينار. ويدخن. ولربما يسكر كل ليلة.

غداً أسأله.

يجيء سعادته، فرحاً بالموعد. فرحاً بحقيبته، بالوثيقة التي في حقيبته. ها أنني أسعـد جميع الوزراء على وجه الارض. الباب ينفتح، وكأنما بقدرة قادر، ينغلق.

يجلس. ينتـظر قليلاً. حتى الانتـظار الطويل، في هذا المكان، غير طويل أبـداً، ينفتـح الباب. يشار اليه أن يتقدم. يتفقد أزرار السترة، يستحضر ابتسامة الرضا والابتهاج. يختلي به. يبذل كل مافي وسعه، ليؤكد أن حرصه الثوري على الثورة، جعله لا يغفل، ولاينام، ولا يسهى، ولا ينخدع في أحد.

ـ ما العمل في رأيك؟

يبادر بحماس:

ـ تضرب الثورة الضربة القاضية. نستريح الى الأبد، من هؤلاء الذين يزعجون القافلة، التي تشق طريقها، بأحسن قيادة، عرفها التاريخ.

ويوضع في الصورة عن اختيارات البلد، عن المعطيات العالمية، عن مناورات الرأسمالية والوطنية والعالمية، عن ضرورات التعاون مع العالم الشيوعي، عما أحدثه حمّام الدم في السودان، من ردود الفعل، الأمر الذي اضطر الجزائر نفسها الى الاستنكار، وهي تعلم أن خصومها وأصدقاءها، سيسألونها، عن نوع الحمام الذي يوجد فيه هؤلاء الناس عندها، بل ان بعضهم، كتب بالفعل، في صحف الثورة، يتشدق، بأن لافرق بين حمّام الدم، وحمام البخار. نحن نسير، وهذا ما يجب أن يتعلمه، اطارات الثورة، في طريق يعاكس طريق الشيلي. الثورة. نضجت، وينبغي أن تكون أساليب معالجتها، لمختلف الشؤون والقضايا، في مستوى هذا النضج. لقد تمكنا بشتى الوسائل، وببعد النظر بصفة خاصة. من فصلهم، عن باقي المعارضات، وهم الآن يسهمون بحماس، في انجاز بعض مهام الثورة، هل تعرف حكاية العبد التونسي، الذي لم يقل له سيده، طوال العشرين سنة التي خدمه فيها أية كلمة، وعندما لعنه ذات يوم، جن من الفرحة، وراح يجري في الشوارع هاتفاً: سيدي لعنني، سيدي لعنني.

أراد سعادة الوزير أن يضحك للنكتة، غير أنه لم يجد الفرصة، فقد وضع في مكانه بقساوة، ضرب بيده على المكتب بعنف. دعونا، نر، ما ستفعل بهم الفرحة. هم أيضاً... مع ذلك، قال في سره، سأقصها على جميع الموظفين، في وزارتي.. في تقدير القيادة الثورية، أن الشيوعية، ككل الأدواء المزمنة، لاتعالج الا بالعناية، للتخفيف من أزماتها. ليخرجوا الى

البـوادي، وليتحـدثـوا، الى كل فلاح على حدة، ان شاؤوا، المسـاجـد والتلفزيون، في يد الثورة.

ماذا أراد، أو بالأصح ماذا يريد العمود الهاتفي؟

إنه أراد فعلاً، وإنه ليريد فعلاً. لا مجال أبداً للشك، في الاتصال الذي تم بيننا أمس، لقد سمعته، ولقد فهمته. . طن. طن. طن. طن. طن. طن.

ـ أخرسي، فان الوقت، خارج الزمن الليلة.

الـطاقـة الكهـربية، في الأسـلاك الهـاتفية، تتوقف عند حدود أربع وعشرين فولط، وهي، مع أنها محركة، شأنها شأن المائة وعشر، والمائتين وعشرين، وغـيرهـا ـ وكـل شيء نسبي في هذا المجـال، ويتـوقف عن الشمعات، والترنزستورات، والمحولات، والحقول المغناطيسية، المتوفرة، أو المثارة ـ فإنها قد تكون ذات علاقة ما، بالمردود الكهربائي في عضلات وخلايا، وأعصاب الانسان والحيوان. من يدري؟ لعل أجناساً كهربية ما، تسمى بالجن أو بالشياطين، أو بالملائكة، أو بأسماء، لاتعرفها، إلا هي سبقت الكـائن الأرضي في معـرفة سر القوة الكهربية، دون الأربع وعشرين فولت، للكون، وهي الآن تسكن جميع أسلاك الهاتف، كأفضل وسيلة، مفتوحة، زمنياً، على الزمن الأصلي للكون.

كل وزير، يقول، وهو خارج من عنده، ماقال من سبقه، من أنه أوفر وزراء الدنيا، حظاً، ويخرج مقتنعاً أشد الاقتناع، بأن الرأي في آخر الأمر، غير مطلوب منه، وأن القيادة، الثورية، تنوب ـ والحمد لله ـ الجميع في التفكير، والمطلوب في هذه المرحلة بالذات، قليل من الليونة، في قضية، كانت بالأمس القريب، تتطلب مزيداً من التصلب والتشدد.

عما قريب، ستمتـلىء، أعمدة الصحافة بعبارات «الثورة ناضجة»،

«الثورة محصنة»، «الثورة قادرة والحمد لله».

سأسأله، غداً عن عمر زوجته، وسأسأله أيضاً، عما إذا كان يخونها من حين لآخر. لن أسأله أي سؤال، ليذهب هو وزوجته، وجيش أطفاله إلى الجحيم.

مسكونان.

كلانا مسكون. العمود وأنا.

عندما سألته، هل لاحظت شيئاً، غير عادي في المنطقة، اندهش، وراح في تلكم اللحظات الرهيبة. هـ. . . ـه، الرهيبة، ماأجملها من كلمة. يعثر عليها المرء في مثل هذه الحالات والأوضاع. كان يود أن لاينقطع عن حديثه عن زوجته والبطاطس، وجوازات السفر، ومن كان محظوظاً من السواق، ليعيد، الحجة للمرة الثالثة أو الرابعة. وحده أو صحبة زوجته، أو حماته، لأن صلته بمسؤول العتاد، تقوم على أسس خاصة، تتنافى والميثاق الوطني. ومبادىء الثورة، والتعاليم الاسلامية، نفسها، وكل مايقال لنا، في خلايا جبهة التحرير، وبعض حصص الراديو، ومن حين لآخر، التلفزة.

يغيرون المساكن، كما أغير أنا حذائي هذا، ياحضرة المستشار، انهم يمتلكون المتاجر في كل العمارات الجديدة، التي تنجزها الثورة، يبيعون بضائع لا تلقس أو تكدس، كالأحذية ومواد الزينة، والأدوات الكهرومنزلية، المفقودة في السوق، والتي تباع في السوق السوداء، أنزههم يجعل حانوته، محل حلاقة للنساء.

إن أفقر السواق، ياحضرة المستشار، هم سواق المسؤولين المناضلين ـ كما تقولون ـ لكن مستورة، والحمد لله، تسعة، وأمهم ومستورة، والحمد لله نحن دون أن تطلبوا منا نثق فيكم، نضع كل ثقتنا

فيكم ، لكن كيف يتمكن شخص ، ليست له أية مؤهلات ، ليست له أية مؤهلات من أن يصبح مسؤول ، عتاد في وزارة كبرى ، مثل وزراتنا . الجميع يعلم أنه كان حلاقاً بسيطاً ، في حي شعبي ، ركبت ابنته مرة في سيارة فخمة ، يقودها أحد أولئك الذين يخافهم جميع الناس ، والذين لا ينتظمون في الصفوف بالأسواق الشعبية ، فصار ماصار .

ـ هل صحيح ياحضرة المستشار ، أن الحلاقين لايدخلون الجنة ؟

ـ من أين جئت بهذا الكلام ؟

ـ والله العلي العظيم ، لو كنت في الحكم ، لنصبت مقصلة ، في ساحة الشهداء ، أتوماتيكية أجعلها أوتومكاتيكية كتلك التي يذبح بها دجاج الكهرباء ، يمر فيها المئات ، مساء كل يوم .

ـ ولماذا المساء بالذات ؟

ـ حتى ينام الجميع . والصورة بين أعينهم . قل يومئذ للجزائر . أن لاتسير كما ينبغي أو أن لا تستقيم .

ـ بامكانك ، ياسي هتلر ، أن تذبح دجاجك في الصباح ، وتجعل الناس في المساء ، يشاهدون ذلك في التلفزة .

ـ لا . الناس يعرفون ، أن التلفزة والجرائد ، تكذب،سيقولون انه تمثيل لاغير .

يشعل سيكارة ، يبدي سروره بهذا التجاوب المفاجيء معه ، في موضوع يكرره كل يوم ، تقريباً . ليخرج بنتيجة واحدة ، هي إشعال سيغارة ، حادة الرائحة .

ويضرب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، باب المصعد الحديدي ، بجمع يده ، بعنف ، ثم يصرخ ، لكن لاأحد يستطيع نجدته فيموت .

تنتهي الحكاية ، التي كانت تستغرق ليالي ، برمتها ، هكذا بسرعة .

يحوم الطبق عدة مرات ، يرسل أشعة ، غير مرئية فيتمغنط كل شيء ، وإذ ذاك ، يفعل بخصمه مايشاء ، يهجم المدنيون الفلسطينيون ، على الأسلحة الممغنطة . . ويلقونها في البحر ، فلا يسع الصهاينة ، سوى أن يتخلوا عن الكبرياء والعجرفة .

لو أنني نمت .

العمود ، لم يثر انتباه السائق ، هذا واضح ، قاله بلسانه ، الالتقاط . كان على موجة ، جد شخصية ، بيني وبينه ، أو بينهم ، من يدري ؟ ربما هذا من الأسرار التي لم تتوصل وسائلنا المحدودة بعد ، من معرفتها ، نعم الموجة الشخصية ، لكل كائن ، داخل موجات جنسه هذه الأخيرة نفسها ، لم نتوصل اليها ، بعد . كل مانعرفه أن بعض الطيور والأسماك والحشرات ، تتنقل ، وتتصرف بواسطة موجات خاصة بها .

وا أسفاه .

هل كان له وجه ؟ هل كانت له عينان وأنف وفم وأذنان وبالتالي ، هل كان له رأس ؟ هل كانت له ملامح بعينها سرعة السيارة ، ودهشة المفاجأة ، وانبهار البصر . كل ذلك لم يمكني من استخلاص شيء بعينه . مع أنني أذكر ، أنني رددت في باطني ، عبارة ، حبيبي ، أعترف أنني لحظتها أحسست بالحب.أحسست بضرورة أن يتوحد كلانا ، في الآخر ، بضرورة عودة الأجزاء المفصولة عن بعضها ، بعد طول افتراق .

وسيستدعي كل وزير ، كبار موظفيه ، كلا على حدة ، ويحدثه عن السودان والشيلي ، وعن صحة الثورة السليمة ، والقوية ، ثم يروي آخر نكتة يعرفها منذ سنوات ، لكنه ، لم يتذكرها سوى الآن ، ومهما يكن من الأمر ، فستتحرك بعض الخيوط في الخفاء ، وتشيع ، أن هناك زحفاً على أجهزة الثورة ، من طرف الشيوعيين ، وأن القيادة الثورية تعد لتصفية كل

العناصر الوطنية ، التي لم تتلوث بالفكر المستورد .

لعله ، لحكمة ما ، قصد ذلك . من يدري ؟ الرجل يقول : « نظرة فابتسامة ، فكلام ، فموعد فلقاء » .

وحدها الكلمات ، تستطيع مخادعة الذهن ، وإيهامه بضيق المسافة ، بآلية العملية ، بمعنى آخر ، فالنظرة وحدها عالم ، عملية برمتها ، خلاصة تجوال البصر البشري ، في الناس والأشياء ، واختزان الأحاسيس والألوان والصور ، والمعطيات وتناسق الأشياء ، أو تنافرهاءليس لطرف واحد فحسب ، وانما للطرفين معاً . انهماك عمري ، في ضبط موجات الالتقاط .

ارسال التقاط ، التقاط إرسال ، يضيع الإرسال في الأثير . مرة . مرتين ، مرات . ملايين المرات . تأتي اشارت واضحة ، مبهمة تائهة كلها ، الى اللحظة التي تتعدل فيها موجتان بشريتان ، لذكر وأنثى ، لذكر وذكر ، لأنثى وأنثى .

يتم الاتصال :

تتم النظرة الاتصال ، أو النظرة الاكتشاف . تنطبق الصور الداخلية لكل طرف . تتناسق المعلومات المختزنة ، تعطي الأحاسيس الدفينة اشارة التلاؤم الخضراء .

تكون النظرة النظرة ، كما أوردها الشاعر ، ذات دلالة .

ما تم حتى الآن، لايتعدى نظرة ، أساس ومشروع نظرة ، على الأصح ، ستكتمل لامحالة ، ربما غداً ، ربما بعد غد ، ربما في المستقبل البعيد ، تتضح الموجة ، تنبض الاشارات الصافية هنا وهناك ، تأخذ دلالتها الحقيقية ، الدلالة الوحيدة التي تحملها ، تتعدل كل الأجهزة الخاصة بالباقي .

ابتسـام . كلام . موعد . لقاء . الباقي من العمليات والتي ليست بدورها بالهينة اطلاقاً .

يعيط الـدم للدم ، تخفق الـروح . تطلب العـظام بعضها يجد الدم الدم ، تلقى الروح الروح . تنتهي غربة العظام ، تنطبق الصورتان تتوحدان .

في الزواج يقال المكتوب . في الموت والحياة يقال التناسخ ، في الديانات يقـال الـطيبات للطيبين والخبيثات للخبيثين ، ومن المستبعد جداً ، أن يكون هناك اختيار موضوعي ما . في نظرة فابتسام فكلام فموعد فلقاء .

أربـع طنات روتينية في الغرفة المجاورة ، الطمأنينة ترفرف على روح حضرة المستشار . بعد النظرة لابد من الابتسام ولعل المعشوق يبتسم ، بعدُ سيفعل ذلك في المستقبل القريب ، وفي الليالي القادمة ، سيتمكن من التركيز في الاحلام التي تنيمه .

الجذوة المتقدة

«دور ياكلام . على كيفك دور » .

ـ تقدموا الحافلة فارغة في المقدمة . ماتزال هناك سعة في الأمام ، ياعباد الله . الأمـاكن متوفرة قدامكم ، افسحوا المجال لأخوانكم ، من خلق الله ، ياعباد الله .

ـ مايمنعهم من توفير حافلات بالعدد الكافي ؟

ـ هذه التي يمكن أن تتوقف ، في أية لحظة يستكثرونها علينا .

ـ « جوع كلبك يعس عليك » .

ـ باريس وعشرة ملايينها ، في امكانهم أن يظلوا دهراً كاملاً راكبين ، بكل سعة .

ـ لا حياء في الدين ، يا الوالدين ، اسحب ياأخي قليلاً دوزانك عني .

ـ لو كانت أمك ، أو أختك ، هي التي تقف أمامك ـ ولا شك أنها تقف الآن ، أمام أحدهم في حافلة ما ـ ماذا تفعل ؟

ـ الله غالب . فوق ارادته المسكين ، كلمة قلناها . تشبثتم بها .

ـ لك الحق ياخالة . الزيت من الزتونة ، والحوت من البحر .

ـ يخل دار أمك الهجالة ، سروالك مبتل من الخلف ، وأنت تنشغل بغيرك .

ـ لو كنا حتى أربعة ملايين . في هذه المدينة ، « يا بورب » ماذا يحصل لنا ؟

ـ « الداب يركب مولاه » .

ـ آهآه . آهآه . أحيح ، أحـ . . يـ . . ـح . تقدمي ياامرأة قليلاً إلى الأمام .

ـ « أخ ، يامعزة ، مافيك حليب » قضيت عجالتك ، فعرفت معنى الضيق . دع المكان لغيرك . ان شئت .

ـ الوضوء لايصح بالماء الساخن .

ـ حتى في حالة البرد القارس .

ـ حتى وان كان في سيبيريا .

ـ والطاهر الطهور . . الذي لم يتغير لا لونه ولا طعمه ؟ .

ـ ذلك في الزمن القديم ، حيث لم يكونوا يعرفون أن الخصائص ، وهي من ضمن الطعم واللون ، تتغير بفعل الحرارة ، والغليان والتبخر ، وماإلى ذلـك ، نحن اليوم في عصر العلم ، والاسـلام دين كل مكـان ، وكل زمان ، ولايجب أن يتخلف عن الاكتشافات العلمية .

ـ « والروماتيزم » ماذا يقول فيه « اخوانكم » ؟

ـ لماذا لاتقولون ان الصلاة في هذا العصر حرام ، ياواحد الحلوف ، نمتم عن الإســلام عشرة قرون ، ثم استيقـظتم ، يعميكم الجهـل ، والتبجـح ، تنهشون من أقوال العجائز كل بدعة ألا لعنكم الله ، ولعن أيمتكم ، ياجنود الأمريكان .

ـ انـظر حولـك ! بأمـوال الشعب . التي يسمـونها أمـوال الثـورة ، يستوردون ، أفخم السيارات ، يملأونها مجاناً بالبنزين ثم ينطلقون ، هم وسـواقهم ، ونسـاؤهم وأطفـالهم ، كيف تريدهم ، أن يفكـروا فينـا ،

نحن ، بعد ذلك ، أو في الحافلات التي تضج بنا .

ـ سنة الله في خلقه ، حتى في الدول الاشتراكية المتطورة . أزمة النقل ، لم تحل بعد . يروي أن أحدهم، استوقف سيارة، توقفت واحدة سوداء، لم يستغرب ، فالاستعانة بالجهد الخاص ، و الفرصة النادرة ، قدر بشري فاوض في السعـر ، وقد كان مستعجلاً ، وكان عليه أن يصل في الوقت المحـدد ، وبـالسعر المتناول لكل مواطن استظهر السائق بطاقته، وأمره بالركوب، وبدفع السعر الذي يعلن ، مهدداً أياه ، بأنه محافظ شرطة .

ـ الأمريكان وأجهزة مخابراتهم ، يلجأون الى دعايات أعقل من هذه التي يروجها ، طلبة وضباط الدول البترودولارية .

ـ الرجال قوامون على النساء ، لو أننا مسلمون بحق ولو أنها ليست الساعة التي تقترب ؟ ماذ تفعل المرأة في الشوارع أو في الحافلات ؟

ـ لا ترفع صوتك أكثر ، فقد سمعناك ، لكن قل لنا البطاطس ، من يقف في الصف الساعات الطويلة ، من أجلها ، ياواحد العطاي ، أم أن صديق أختك ، من أولئك الذين لايسمون ؟

ـ احترمي قدرك يامرأة .

ـ الفم المغلق لايدخله ذباب .

ـ أما أن يمركسونا ، وأما أن يرسلمونا ، المهم أن ينزعوا عنا حالة المنزلة بين المنزلتين هذه .

ـ الكلب الأحمر ، يحسب نفسه من العجول .

ـ لاتنتظر ممن لايسمون ، كما قالت المرأة ، غير هذا ، الماركسية ، تحتم حزباً ولجنة مركزية ، ومكتبا سياسياً ، وأقلية وأغلبية ، ورقابة وغير ذلك . والرأسمالية ، تستوجب مؤسساتها ، برلماناً ، وأحزاباً، حرية التعبير، وهم هؤلاء الذين لايسمون ، لايجدون مصالحهم ولا حتى أماكنهم ، في مثل

هذه الوضعيات . هذا هو « النيوفاشيزم » .

ـ لحية كاسترو . وقبعة بينوشي .

ـ والله العظيم . لن تتحرك ا لحافلة ، حتى تنتظموا ، مايزال في المقدمة . أكثر من مكان .

ـ الحمد الله ، تبارك المولى عز وجل .

تحركت الحافلة أخيراً ، استطاع حضرة المستشار . أن يصمد في موقعه ، عند النافذة ، « لا لن أتزحزح عن هذا المكان ، حتى وان مزقوني ، لايتسنى لي أن أراه إلا من هنا.كيف يمكنني أن أختبر الحالة ، أن أعيد اختبار الحالة ، إذا كنت في غير هذا المكان ، ليثرثروا ماشاؤوا ، ليثوروا على بعضهم إن شاؤوا ، لن يخرج كل ذلك ، من روتين كل يوم ، من رد فعل عاد ، لشعب تدجنه عقد الشعور بالذنب ، كمشة ، تحتكر مجد تحرير الوطن ، وتجرد غيرها من كل مساهمة وتوزع بركاتها بالبطاقات ، والملفات واللجان ، والرشى ، المساكن والأراضي ، وكل الأرزاق المستعادة من الاستعمار ، يطلق عليها ، أسم أملاك الدولة ، والجميع فيها ، مجرد ضيوف ثقال ، يمكن في أية لحظة التخلص منهم » .

اندهش حضرة المستشار في اليوم الأول ، المرة الأولى الثانية . العاشرة ، اليوم الثاني ، بدأ يتعود . هاهو اليوم السابع ، والمسألة ، لاتعدو ضرورة اشعال سيغارة في حافلة عمومية ، التدخين فيها ممنوع . « برلمان الشعب وصحافة الشعب . ومواخير الشعب ، ومتنفسات الشعب ، كلها هنا في هذه الحافلات ، وهذه الطوابير ، وهم يعلمون ذلك ، ويشجعونه بل ، أنهم هم الذين خلقوه ، تطبيقاً للمثل الذي يستعمله الفلاحون » « جوع كلبك ، يعس عليك » .

أحس حضرة المستشار ، بيد تتلمس جيبه الأيمن ، اعتدل قليلاً ،

ليتيح لها فرصة التعمق ، تجرأت اليد ، فدخلت . خرجت خائبة . انتظرت قليلاً ، ثم تسربت إلى الجيب الأيسر . كانت سريعة ، رشيقة وسريعة ، وحتى لطيفة . دخلت وولت خائبة ، منكسرة . التفت إليه مبتسماً :

ـ لاتتعب نفسك ، اتخذت كل اجراءات الحيطة . قبل أن أركب .

اضطرب ، وتظاهر بأنه لا يجد ممسكاً ، ويكاد يقع .

لم يبق هناك مجال للشك . لقد تم التأكد في اليوم الأول واليوم الثاني . عند الصعود . عند النزول . في الغدو وفي الرواح ـ حسب الكليشي الفلاحي المعهود ـ لكن اتمام السبعة أيام ، أمر مطلوب ، إن لم يكن حتمياً ، الذاكرة الشعبية ، لا تختزن المعلومات جزافاً ، الخلق في معظم الديانات ، تم في سبعة ، والعرس ، أيام العرس الحقيقية ، سبعة . ساعات الشغل التي تطالب بها النقابات في العالم أجمع ، سبع . لماذا ليست ستاً أو ستاً ونصفاً . والسبعة نصف عدة ، اكتمال القمر ، وبداية ثلاثة جديدة ، الرقم واحد ، للاعلام ، والثاني ، للفت الانتباه ، والثالث للتأكيد ، والتأكيد مرتين ، أؤكد من التأكيد مرة واحدة ، وأفضل من ذلك بكثير . التأكيد مرتين ، ثم الشروع في الاعلام الأول ، في التأكيد الثالث . المحيطات سبعة ، والمعجزات سبع ، وما إلى ذلك مما لا يسمح ويليام جيمس ، بعدم الاهتمام به ، أو على الأقل ، عدم تفهمه .

أعطى للسائق ، عطلة أسبوع ، ليترك له السيارة ، فرح بذلك أيما فرح ، حتى لأنه قبل يده .

ـ نصرك الله على من عاداك ، يا حضرة المستشار ، ورزقك ابنة حلال طيبة . العطلة جاءت في الوقت المناسب ، فلدي قاعدة وأعمدة « فيللة » تنتظرني ، منذ شهر . كيف أتغلب على التسعة ، وعلى هم الزمن ، لولا

الاستعانة ببعض بناءات أو ترميمات من حين لآخر ، يا حضرة المستشار .

ـ وهل أنت بناء ماهر ؟

ـ أأنعم . كيف لا ؟ لقد حصلت على شهادة في ذلك من مركز التكوين المهني ، ومارست المهنة ، خمس سنوات .

ـ هكذا إذن ، ووجدت من الأفضل أن تتحول إلى سائق !

ـ العمل في الادارات ، لا يكلف جهداً كبيراً ، وبامكان المرء ، من حين لآخر أن يجد فرصة ، للانصراف إلى أشغاله الخاصة . هذه الفيللة ، قبضت فيها ، من أشهر عربوناً محترماً ، وبامكاني ، في خلال هذا الأسبوع ، أن أقدم دعماً كبيراً للعمال الذين هم على عين المكان .

ـ ولمن هؤلاء العمال ؟

ـ لي طبعاً .

ـ إن كانت لديك ، يا حضرة المستشار ، أية اصلاحات في منزلك ، أو منزل أحد أصدقائك ، فلا تتوان ، في الاستنجاد بي . سأساعدكم كثيراً . مقابل هذه العطل ، سأشتغل عندك ، بصفة خاصة مجاناً . لن أتقاضى ثمن اليد العاملة .

عندما سألته ، هل يشرب ، قال إنه يبغض البيرة والنبيذ والفودكا ، ولكنه يحب كثيراً الويسكي ، والبورتو ، والكونياك الفرنسي .

التأكد تم .

في النزول ، في الثامنة إلا ربع . في الصعود ، الثانية عشر ونصف ، في العودة الثانية وربع ، في الاهتجاع ، على الساعة السادسة والنصف ، أو الاهتجان قبله . في كل ذلك ، حالة النظرة قائمة .

في كل مرة ، يتم الاقتراب من الجسر الحوال ، واقتحام الطريق المزدوج ، يخفق القلب . لا يجد بداً من الخفقان . يلتمع الشيء من

هنـاك ، يضيق الصدر وينفرج . يتم تبادل حديث ما ، تسجيل ، على الأقل ، إشارات راسخة ، بين الطرفين :

ـ هاك وهات .

ـ هات وهاك .

ـ أنت هنا ؟

ـ أنت هنا ؟

ـ أنا هنا !

ـ كلنا هنا .

ياروح إبك على الروح . يا الدم عيط على الدم . ويا أيتها العظام ، حني إلى العظام .

تخالفت سرعة السيارة . بلغ الأمر ، أن توقفت تماماً ، مجيئاً وذهاباً ، ذهاباً ومجيئاً . من الجهة اليسرى . من الجهة اليمنى . مع ذلك كان ، الشيء يتم .

لماذا تسميته بالشيء ؟

لم لا تستعمل الكلمة المعبرة في هذا المجال . الصلة . أكثر من ذلك ، التعبير العلمي الدقيق . رغم استعارته من لغات أخرى ، الالتقاط .

حصيلة النظرة المتبادلة . التقاء نظرتين ، مشحونتين .

هو ذا ، يومىء . يومض . يتلألأ . يشع . يفصح .

ينظر .

أفعل فعله . أفتح عيني وأغمضها ، وأفعل فعله .

أنظر بدوري .

ينظر كلانا للآخر . يقول كلانا للآخر : أنت هنا ؟!

ليس مستبعداً أبداً أن تكون الاجابة : نعم أنا هنا ، قد تمت بعد ،

من طرف أحدنا . من ناحيتي ، أثبت ، وأثبت ، وعلي أن أفعل ذلك ، بصفتي البشرية ، بالنظرة التي لا تعني ، سوى فتح العينين ، وتركيز البصر في شيء ما ، ورسم حركات ما على الوجه ، توحي للطرف الآخر بأن المعنى بالذات ، في هذه اللحظة ، إنما هو ، هو ولا أحد غيره ، وبالضعة والتذلل ، والالحاح المتمثل ، في التردد ، في التوقف ، في النحنحة ، التأوه المسموع ، في التباكي ، في افتكاك الاعتراف ، أخيراً ، بالوجود . هذه نظرة ، ميكانيكية ، نظرة مخبر أو رجل أعمال . إنها النظرة الارسال ، النظرة الالتقاء ، الالتحام ، هي الانبهار أمام اكتشاف أن من كنا ننتظره منذ دهور طويلة . هنا قدامنا . خرج بغتة ، من العدم ، ليملأ كياننا الخاوي .

انقضى أسبوع بالسيارة ، ولم تتم خطوة جديدة ، فيما عدا التأكد من النظرة ، بالطبع ، وليكن أسبوعاً آخر ، بواسطة حافلة النقل العام ، و« دور يا كلام على كيفك دور » ، ومما لا شك فيه أن السائق ـ المقاول ، يكون قد أنجز هيكل الفيلا أو يكاد ، وأنه طلب تسبقة جديدة عن السقف والباس الهيكل .

ها هو الأسبوع يكاد ينقضي . هناك تقدم ما لا محالة . « لقد تأكد لنا ثبات الموجة ، واستقرارها . خمسة على خمسة في جميع الحالات . الوضوح تام . ما على أحد الواقعين في الطرف الآخر ، سوى ، أن يبث ، أن يفصح . أن يبتسم ، بتعبير الشاعر .

وحبيبي قال من أول يوم التقت فيه عينانا . قال إنني ها هنا .

ـ سرقت . سرقت . راتب الأولاد ، يا مؤمنين .

ـ لا أحد ينزل ، حتى مركز الشرطة القادم . يا مؤمنين ، المرأة مريضة ، وعلي ديون . راتب الأولاد يا مؤمنين .

ـ في جيبي مناشير سرية ، علي أن أتخلص منها ، قبل بلوغ مركز الشرطة .

ـ لحسن الحظ أننا غير مطاردين ، وإلا كانت الكارثة .

ـ كان من المفروض أن لا تستقلوا الحافلة .

لو أن الحاكمين ، يستيقظون يوماً ، ليجدوا جميع سياراتهم معطلة . كلها . كلها . بقدرة قادر ، تصبح معطلة ، أو أن السواق ، يكونون يوماً في حياتهم ، مواطنـين حقـاً ، يحسـون بما يحس به أخـوهـم المـواطن ، فيخربشون في محركات السيارات ، يكسرون شمعة ، أو يقطعون خيطاً ، أو حتى يلقـون بقليل من السكـر ، في خزانـات البنـزين . آه يومها ، ستنطرح بحق ، مسألة النقل على الثورة ، انطراحاً ثورياً .

ـ احلم يا من تحلم . لن يكلفهم ذلك ، سوى تعب مكالمة هاتفية ، لمكـاتبهم ، معلنـين ، عدم حضـورهم . المخلصـون منهم جداً جداً ، يتصلون بأصدقائهم ليوصولهم بسياراتهم الخاصة ، وسترى تجار ومقاولي ومضاربي البلاد كلها ، سواق مصالح عمومية .

ـ تعبت من السير راجلاً ، فقلت أستقل هذه الحافلة ، حتى ساحة الشهداء .

ـ من نواقض الوضوء . الاشتباك . اشتباك الأصابع في بعضها .

ـ وأين : إذا قصـد ووجد ، ووجد ولم يقصد ، وقصد ولم يجد، ولم يقصد ولم يجد . . ؟ إننا نعرف ما تيسر من الفقه ، ولسنا مغفلين إلى هذا الحد .

ـ اسمـع . إن الـدين لله ، « والحمد لله » ، تكفي للصلاة . صل واسأل ، وهذا كل ما في الأمر . وإذا كان في قلوبكم ، أمر ما ، فهاتوه ، ودعوا الدين جانباً .

ـ خبـز الأولاد يا مؤمنـين . أخـوكم . أنـا أخوكم . أعيدوا إلي خبز الأولاد ، وعفى الله ، عما سلف .

ـ لعبة التوازن ، معروفة ، زد الماء . زد الطحين . لا هو خيار ، ولا هو فقوس . شيوعي في الكفة ، اخواني في الأخرى . رجل في البلطيق . رجل في الميسيسبي .

ـ ألم تشبع بعد ؟ البلل تجاوز سروالك إلى الحافي .

ـ الزيت من الزيتونة ، والحوت من البحر .

ـ يا مؤمنين . قوت أولادي .

ـ أهآه . أهآه . أح . . يـ . . . ـح . أهآه .

ـ اسمعوا ، أقسم بالله العلي العظيم ، عالم الغيب والشهادة ، على أنها أخذتكم ، في الماء . لماذا ينقطع الماء كل يوم . إن لم يكن ، ذلك لغاية في نفسهـا . والله العـظيم ، يضعون عقاراً في الماء ، يقتل الحياة . تحيون فيقتل . يقتلكم ، فتحيون . لا أنتم ذكور ، ولا أنتم إناث . من منكم ، في هذا الزمن ، ولا حياء في الدين ، يجامع امرأة ، مرتين في الليل ؟ من منكـم ليس له ملف ، لدى طبـيب في عيادة خاصـة أو عامـة أو في مستشفى ، أو في جيمعها ؟ « المريكان » ليس سهلاً . كل عرق فيكم ، موصل الى البانتاغون ، بواسطة خزانات الماء .

ـ لو أن النقابة ، تمثلنا فعلاً ، لما عجزت عن فرض نظام الوتيرة الواحدة في العمل .

ـ أية نقابة يا رجل ؟

ـ أوصلت بك الغفلة إلى هذا الحد ؟ « صالح يلعب وصالح يرشم » .

ـ الواحد إثر الآخر . الهوية في اليد ، ومباشرة إلى المركز .

ـ قوت أولادي يا مؤمنين .

ـ أنت . هو . هي . أمسك به . أمسك به .

ـ عودوا إلى أماكنكم . السارق ، هرب .

ـ هذا تواطؤ . قوت أولادي يا إخواني .

ـ أنت يا من تتحدث عن التواطؤ ، تعال هنا .

ـ تقدموا إلى الأمام . المقدمة فارغة . دعوا إخوانكم من خلق الله ، يركبون ، يا عباد الله .

ـ العرق بللني .

ـ لا يهم .

ـ الزيت من الزيتونة ، والحوت من البحر .

لم يتزحزح حضرة المستشار ، عن موقعه ظل يتشبث بالنافذة ، رغم الهجمات المتتالية ، من مختلف الأنواع ، وبمختلف الوسائل ، حتى إنه قال في سره ، كل امرأة ، تكون هنا ، لايسعها إلا أن تصمت .

كان يعرف أن الحافلة ، عادة ما تلفظ ، ركابها ، قبل الضواحي ، ففي هذه المناطق ، يندر أن يتواجد ، من لا سيارة ، خاصة أو حكومية ، في خدمته ، لكن من يدري ، فقد يجد نفسه ، ولسبب ما ، بعيداً عن النافذة ، وتفوته فرصة أن يعيد التأكد من أن الشيء العظيم يحدث فعلاً .

ـ هنا يا أخي القطاع الخاص ، هو الذي يقوم بالأمر . انظر كيف أن الأمور تنفرج . في تونس العنب بأربعين دورو .

ـ لكن من يأكل العنب في تونس . الجميع يقول للعنب ، ما قال الذئب عندما وجده بعيداً عنه : أنت حامض أيها العنب .

لا يسمعه حضرة المستشار ، لم يسمع صوتاً آخر ، آتياً من الخارج . القلب ، يبدأ في الخفقان . الروح يشتد هيجانها . الجوارح والحواس كلها ، تتأهب للحدث العظيم . فالحافلة ، تستدير ، وعلى بعد نصف

ميل الجسر الحوال . ثم الطريق المزدوج ، وهو هنالك .

يشمخ هنالك .

نظرة فابتسـامـة ، فكـلام ، فموعد فلقاء . إن لم يكن الشاعر غبياً جداً ، وهو ما لا يستبعد في حالته ، فإنه يكون من أذكى الأذكياء .

اسـ . . سـ . . ت . فـ . . ـررت . ف . . ـززززت .

تتوقف الحافلة . تنطلق . كل ذلك من أجل الاقتراب منه .

هو كائن ، ما في ذلك شك ، أي جرم كبير ، الشك في كينونته . . !

حي . ما في ذلك ريب . اطلاقاً ، ليس خشبة مصقولة ، ذات امتداد وسمك معلومين .

الأسلاك الهاتفية ، جميعها ، يتوقف امتدادها وتواصلها ، على المرور به ، وليس على تشبثه ، بها . . مع أنه في نسقها ، فإن وضعه خاص به ، جداً جداً . لا يتـأتى ذلـك ، من عوامـل خارجية ، إنما من عوامل ، وعناصر ، جد نابعة منه . ذاتية ، مائة بالمائة . من ينكر أو يشك في ذلك ؟

تلبسني . امتلكني ع . اكتبسته . استوعبته .

يعطيني وأعطيه . يأخذ مني وآخذ منه . بيننا حالة توق . بيننا حالة اكتشاف . حالة تعديل دقيق للموجة . أشهد على نفسي ، وأشهد الدنيا كلها ، على أنني أحبه .

يفعل اليوم ما يفعل ، يومض يلتمع ، يبرق ، يتألق . كل ذلك لم يعد يهم ، فالتسجيل تم ، والأسبوع منصرم . لن أعود الى الشغل ، للمكتب على الأصح ، هذا المساء . أتلفن لنجاة ، بأن تسجل غيابي ، التبرير من اختصاصها : في اجتماع مع الوزير ، أو في المطار ، ينتظر وفداً ، أو طلب في قسمة الحزب ، أو في مكالمة من الخارج ، ستطول مافي ذلك شك ،

ومن الأفضل اعادة الاتصال ، غداً أو مرة أخرى .

أستريح هذا المساء في المنزل ، أستحم ، أنام قليلاً ، على الأقل استرخي ، لحظات كاملة ، أفكر فيه ، أحاول ربط الموجة من جانبي ، أقول له شيئاً ما . أقول له مايجب أن أقول . على الأقل أتأمله ، فعلى مايبدو ، لم يحن أوان أن يقول أحدنا كلاماً ما .

لاتستطيع أمام الومض ، سوى أن تنبهر ، وإلا فانك لم تتأمله ، لم تتمكن من فتح عينيك ازاءه . ففاتتك فرصة العمر ، وأنا فتحت عيني ، حدقت فيه ، تحايلت على ذلك كما ينبغي.كلا . هو الذي أتاح لي فرصة النظر إليه ، التقت عيوننا وانني لا أرى سواه .

هاتف آخر للسائق : عطلتك متواصلة ، اطمئن الى ذاك ، أرجو أن تكون الأعمدة والأسس متينة ، وحسب المعايير ، سأتلفن لك ، عندما أكون في حاجة إليك ، خذ راحتك ، السيارة بدورها ، لست في حاجة إليها ، لا أحد في حاجة إليها ، انني في عطلة خاصة ولا أحتاج إليها ، دعها تحت تصرفك ، لكن أحذر أن تسرق العجلة الخامسة منك ، مثل المرة الأخرى ، أكره ذلك الانتظار في مركز الشرطة مدة لا أحد يعلم مداها ، الجلوس أمام كاتب البحث ، الادلاء بكل ماأعرف عن نفسي ، ماهي بالتقريب الساعة التي سرقت فيها ، العجلة الخامسة ؟ هل كانت الأبواب مفتوحة بالمفاتيح أم مخلوعة ؟ تقديم التصريح بالسرقة إلى صاحبك مسؤول العتاد ، على أمل الحصول على عجلة أخرى . المفاجأة بعد ستة أو سبعة أشهر ، بدعوة من محكمة « الحراش » لمعرفة مااذا كنت مازال أتشبث ، بالقضية ، وأنوي رفع الدعوى ، اللصوص ألقي القبض على بعضهم ، والأمل كبير في وضع حد لنشاط كامل العصابة .

المسألة كالعادة ، تتعلق بنشاط عصابات . تغيب الدولة ، تغيب

الوزارة ، يغيب نائب الحق العام ، تنحصر القضية في شخصي كمواطن عادي ، سرقت منه عجلة ، وبامكانه أن يقاضي أو لا يقاضي اللصوص ، أن يواجه العصابة والعصابات وحده ، أرجو أن لاتتكرر التجربة ، والا فستواجه المسألة وحدك هذه المرة أنذرك ، لست مسؤولاً عن العجلة الخامسة ، ولا أية عجلة أخرى .

السائق . مسألته ، تحمله بعد طلبه ، في قطاع ما من الادارة الجزائرية . كل ذلك ، ليس سوى عملية ، تحد من طرف الموظف ، للعرف العام بأن الضمير ، والإمتثال الوجداني للقانون ، لم يمت بعد ، عنده ، شأنه ، عند بقية الزملاء ، صحيح ، أن هناك قانوناً أو منشوراً ، يحرم استعمال سيارات الوظيفة ، في أغراض شخصية ، وفي أيام العطل ، ويسمح لرجال الأمن بإيقافها ، والتنديد بصاحبها ، على أعمدة الصحافة وصحيح أن سيارات الوظيفة ، قضية ، دخلت منطق الرأي العام ، كأحد عوامل الرفض والاحتجاج ، لكن ، سرعان ماتتحول القضية كلها الى « دور ياكلام ، على كيفك ، دور . . » وتتخذ روتينيتها التامة .

ـ حضرة المستشار اشتراكي ، يعطي المثل على أنه نزيه وملتزم .

ـ المسكين . غبي .

ـ لكنه يضر بمصالح زملائه .

ـ ربنا يعطي الفول لمن لا أضراس له .

ـ مصائب قوم عند قوم فوائد .

ـ يرميه السائق أمام باب بيته ، ثم يتحرر ، يفعل بها مايشاء ، تكفيه جوله في الأبيار أو في حيدرة ، ليجمع ربع راتبه .

ـ « لاينقص القرد سوى الورد » مجرد مهرج ، بالمسرح ، أحد صعاليك ساحة بور سعيد ، يصبح مستشاراً في مثل وزارتنا ، كيف لاينحط مستوى الأمور في هذه البلاد .

ـ لو كان يستحقهـا ، فعـلاً ، لو كان إطـاراً حقيقياً وليس شيوعياً متسرباً ، لكان يحوز مثل كل خلق الله رخصة سياقة .

ـ لا . يسوق . معه رخصة سياقة . وقد رأيته أكثر من مرة ، يدخل بها الوزارة وحده .

ـ ربما يحشش . المؤكد أنه كذلك ، كل وسطه منحرف .

ـ حاذر من أن يبلغ مثل هذا الكلام ، صاحب السعادة ، تعلم أن الطيور . . .

انتفض حضرة المستشار .

تبدى . يالطلعته ! ينظر . نظر . أنظر نظرت.العوامل الخارجية ، لم تغير شيئاً ، بقية الركاب غارقون في بلاهتهم ، المسألة تخصني ، تتعلق بي وحدي ، اكتشفته .

اكتشفـني.المـوجـة مضبطة في نفس الرقم ، وغير متداخلة اطلاقاً مع غيرهـا ، التيارات والتقلبـات ، لا تؤثـر . تنفتـح الأعين ، عيناي على الأقل ، لتسجل خصوصيته تفرده ، هذا التميز له .

سلامـاً ، سلامـاً ، أيهـا الـدم ، أيتهـا الروح ، أيتها العظام ، أيها الحبيب ، أيها المعشوق . من . . من . . أنا المأخوذ بك .

سريعاً تمر الحافلة ، سريعاً ينطفيء الوهج ، سريعاً يعمق الجرح في القلب .

أسـ . . ســـ . . ت . . فرررت ، تـ . . زززززت .

ينزل . تنسيه الغبطة أن هناك في هذه الدنيا حافلة ما ، يفتح الأبواب ،

يتقـوت ، يستحم يلبس المنـامـة ، يتفقـد السـاعـة السوفياتية ، فلربها تستوجب التعمير ، يفتح صندوق البريد ، رسالة من الحساب البريدي ، ربها وصول آخر راتب ربها ، استخلاص أتاوة الهاتف ، أوراق كراريس مدرسية ، فيهـا رسـوم فاحشـة ، واحـدة كتب عليهـا : فجـرية عاهرة ، تذكـار من « أتـاوة » أرسلهـا أحد مبعوثي الوزارة الى رومة ، في الشهر الفارط ، أنام قليلاً ، لن أتلفن . نجاة تعرف دورها ، المهم أن يكون المجـال أمامها فسيحاً ، لتصبغ وجهها ، كل نصف ساعة بالمساحيق ، وتتلفن الى باريس ، لتسأل في « الوطن العربي » عن نزار .

مايزال منتصباً في الذاكرة ، لا تزال استغاثة الروح تتواصل ، لايزال الدم ينفجر في حيوية ، العظام ، يشتد بها الحنين لمصدر الدفء .

عمود الهاتف ، العمود الهاتفي ، عمودي العزيز ، مسكون بقوة ما ، خارقة ، ولقد سكنني بدوره ، أنه يملأني ، ولن تنطفيء النظرة التي تمت بيننا ، رأيتها رأيتها ، لمستها ، تلامسنا ودور ياكلام على كيفك دور ، خل بلدنا تعوم في النور ، أرم الكلمة في بطن الظلمة ، تحبل سلمه وتولد نور . نظراتنـا التقت ، في النور التقت نظراتنا . الشيء الأساسي في الحياة ، تَمَّ . النظرة ياناس ، تمت .

كلانا يرمق للآخر :

ـ أنت هنا !

ـ أنت هنا !

ـ أنا هنا .

ـ أنا هنا .

ـ نحن هنا .

ـ كم انتظرتك .

ـ كم تاقت روحي إليك .

أيتها الدنيا ، أيها العالم ، ياناس ، سجلوا جميعاً ، أنني أنا ، حضرة مستشاركم ، عاشق ولهان ، سجلوا أن الجذوة المتقدة ، وهاجة .

قرة العين

الأسبوع ينقضي . اليوم ينقضي ، بعد ساعات قلائل ينقضي ، وأنا أشعر بنفسي في خفة نور انطلقت من عينين فرحتين . كل ما في نفسي ، وفي أعماقي يقول لي ، ها قد حان الموعد ، بل ، ها قد حل الموعد ، لتنفتح الأبواب على مصاريعها ، وتنكشف كل الحجب ، عن كل الأسرار . سيتم ذلك ، دفعة واحدة ، وبكل سخاء وكرم .

لقد حصل حتى الآن ، تقدم كبير ، تقدم مصائري . النظرة بين لحظة وأخرى ، تتحول إلى أصوات ذات ذبذبات وترددات ، مختلفة ، تتراوح بين تلك التي يلتقطها السمع البشري الحاد وبين تلك التي لا تسمعها إلا القلوب . تلك التي تنساب على موجات الوحي والالهام .

أحد الطرفين . أحدنا . يتلقى هذه الأصوات . هذا مؤكد . أتلقاها وأستخلص منها أحاسيس واضحة . هذا كثير ، جداً في هذه المرحلة . كثير علي ، أنا الذي دب اليأس إلى قلبي ، منذ سنوات .

لم يكذب الشاعر ، رغم أنه ، لم يعايش المعاناة ، ولم يكابدها . لعله كان في ماخور غربي ، أعجب بواحدة ، ربت على حافظة نقوده المتورمة ، فابتسمت له ، ثم قالت ، اشتر لنا « شمبانيا » ، ثرثرا قليلاً ، يحدثها عن لقب الامارة الذي لم يستطع أحد أن ينازعه فيه ، وعن أصول القبائل العربية الكبرى ، التي لن تموت حتى آخر الدهر ، ذلك أن العربي ، كالعصفور المهاجر ، وطنه مواسم زمنية ، وليست مرابع ترابية .

استزادت ، فاستزاد ، لعبت الشمبانيا بالرأس وباللسان ، فراح يقرأ لها قصائد من الصنف الثقيل ، قال إنه هو شاعرها ، وأنه سينظم لها ، وحدها ديواناً ، يكون عنوانه اسمها .

ـ اسمي المهني ماري .

ـ عاشت الأسماء . سيكون عنوان الديوان « ماري السمكة السابحة في القلب » .

ـ يا له من حبس ضيق .

ـ إن قصري أوسع بكثير ، من هذا المكان ، فتعالى معي ، وستسبحين فيه بكل راحة .

ـ وكم سمكة عندك ؟

ـ ليس عندي من نوعك يا حبيبتي ! قومك عديمو الذوق . لو أنك في بلادنا ، لكنت في حريم وزير الخارجية أو وزير الشؤون الدينية ، ولحصلت بسببك انقلابات سياسية . أيعقل أن يهمل كل هذا الزين ؟

ـ ربما لأن نساءكم غير جميلات !

ـ لسن شقراوات . هذا صحيح .

تستزيد ، فيستزيد . تحدثه عن الأسعار ، وعن النسبة التي يأخذها فتاها الجزائري ، وعن استعدادها للارتحال معه إلى القاهرة ، لتشاهد الفراعنة الذين يقال إنهم ما زالوا أحياء ، وأنهم يصدرون في الليل أصواتاً ، كثيراً ما تكون واضحة ، يفهمها السحرة والأحبار ، والشعراء والجن ، ويستعينون بها على قضاء حوائجهم . ماذا يقولون في رأيك ؟؟ لا شك أنك تسمعهم كثيراً ، وإلا من أين يأتيك الشعر .

ـ يقولون نظرة فابتسامة فكلام فموعد فلقاء . يا حبيبتي ، يا ملاكي العزيز ، يا رسول الرحمة .

ـ يا لها من طريق مطولة لا تفضي إلى غاية . كم هم رومنسيون ، هؤلاء الفراعنة . لقد أهملوا العملية الجنسية ، تماماً .

ـ في رأيك يا حبيبتي ، أنه كان المفروض أن يقال فلقاء فاغلاق للباب فنزع للثياب ؟ لا يهمك يا ماري أن تشاهدي آبار النفط ، في ليل الصحراء ، إنها تبدو من بعيد غيلاناً ذات رؤوس نارية ، تتصارع بينها ، في الظلمة ، على الفضاء ؟

ـ كلا . . « اغلاق الباب » ، هذه ، أحياناً كثيرة لا موجب لها ، إنما نزع الثياب جميلة جداً . يا لك من عبقري . هل تحب ذلك ؟

ـ « أموت فيه » . إنني ثور في ذلكم الأمر . لا تكفيني سمكة ، بل ، حوتة .

ـ مائة وعشرون دولاراً مادام الأمر كذلك . أمعك دولارات أم دوتشات . ؟

ـ يهون . يهون . يا ابنة النور . متى موعدنا ؟

ـ موعدنا ؟! هأه . هأه . الآن . حالاً . غرفتي فارغة . وأنا كما ترى بلا ثياب .

ـ ما أسعدني .

ـ أدفع ثمن الشمبانيا ، وهات الدولارات ، واتبعني . البكاء عند رأس الميت .

هذه كل معاناته . استظهار ورم زوادته . هذه كل معاناتها . استعدادها لاستفراغ كل ما لديه . وهكذا ينطلق رشاش الحمقى : نظرة فابتسامة فكلام فموعد فلقاء ، وتبقى الكلمة التي تخجل القواميس العربية الحديثة من إيرادها ، ساكنة في القلب ، وفي المخ ، وفي الجيب ورماً سرطانياً فتاكاً . وخلال كل لقاء بين ذكر وأنثى ، تفسد انسانية الانسان ،

اذ تجعل الشيطان ثالثهما .

لم يكذب الشاعر ، رغم ذلك . مع أنه لخص كثيراً رغبة طويل العمر . لقد أُلهم إلى الاجراء السليم ، في عملية الارسال والتلقي ، على أية حالة .

تجيء . ها هي تجيء . أصوات حبيبة ، تجيء . تواصل مجيئها . تصدر عنه وتجيء . تحمل معاني ، لا تصل مفصلة ، لكنها تهز القلب والكيان . تجيء قوية ، في آخر الأسبوع الثالث هذا ، لم يكن يقول شيئاً محدداً ، لعل الأذن لم تتعود بعد ، ولعل القلب ، بهرته البهجة . لعل الأناء يضيق عن استيعاب كل هذا الفيض .

الذهاب والمجيء . والمجيء والذهاب : من قبل طلوع الشمس إلى ما بعد غروبها . تطول المسافة ، تبدأ من أقصى مدخل الطريق المزدوج . ينحني الرأس يرتفع . تنغمر العينان . تنفتح . لا أحد منها ، يشعر بوجوده . كلها . كلها ـ وبدءاً من أول الصف المتصاقب ، المتسق ـ لا تعدو كونها أخشاباً مصقولة ، ذات طول وسمك واحد ، ما أن يبدأ الاقتراب منه ، حتى تجيء تغمر المكان وتغمر القلب ، أصوات بهيجة ، تدغدغ ثنايا النفس ، وتعري عن مكنوناتها ، طاردة للحزن والأسى . يتواصل خفقان القلب ، يتلقى أنغاماً فيهتز على ايقاعها . رغم محاولات الانشغال ، بترديد « يا ليل الصب متى غده » ، أو بصفير لحن النهر الخالد ، فإنه يحضر . في الأول بقوة غامضة ، تياراً جاذباً ، ذبذبات واخزة . أما الآن فتجيء ايقاعات بهيجة ، في أصوات مقتحمة . هو ذا بكل سحره . بكل عبقريته . بكل نبض الحياة فيه ، بكل الرونق والتألق . يا له من طفل . يا له من ظبي . يا له من براءة . يا له من صفاء !

حتى العمود الثالث الذي يليه ، تظل الصلة وثيقة تظل النظرة ، النظرة الرؤية ، التي لم يعرفها الشاعر ملتصقة به ، متبادلة معه ، مركزة عليه ، حتى ، نهاية حزام الجزائر ، حيث تتم الحوطة ، بوركيها ، أحدهما ، في الحقيقة فهي بورك واحد لاغير ، لعلها كانت ضحية تآكل زمني بعيد الغور والمدى ، ولعلها معطوبة حرب ، من عهد هانيبعل ؟ تنبه إلى ذلك السفير الأمريكي في القرن الماضي، فراح يكيله بحصانه وبساعته، البورك كاشفاً عن نقطة الضعف في المحروسة التي لاتعرف سوى أبراز صدرها للبحر ، فتستغل جيوش الغزاة ذلك ، وتأتيها من الجنب ، يتم انتظار خلو الخط العائد من الطريق ، فقطعه بعجلة ، فالتوقف قليلاً ، عند احدى شجيرات الكافور ، يخلو الخط العائد ، يبدو خالياً ، اذ كثيراً ماتقتحمه سيارة مجنونة ، لايدري أحد من أية سماء نزلت ، ولا أية أصوات حتف تناديه ، تتم عملية قطع الخط ، بكل صفة ، فالحي يروح . لابد أن يروح ، كما كان يصبر أهل الربع أنفسهم ، اثر كل غارة ، من هنا يبدون ـ جمع التذكير يجوز في حق أعمدة الهاتف ـ في وضع أكثر ملاءمة للمعاينة متساوين ، متصاقبين ، لونهم لايتنافر مع لون الاسفلت ، أو الوجه العام الطبيعي للمحيط الذي ينتقل من حال إلى حال مغايرة تماماً ، بين كل ربيع وصيف ، ولولا هذا الطريق ، وهذه الأعمدة ، وبعض البنايات ، لما عرف المرء أن الإنسان ، هنا قطع مرحلة الرعي بعد، أو أن يد الحضارة ، تمس هذه الأرجاء . الأسلاك الممتدة متباعدة ، في مجموعها ، جسداً رياضياً فتياً ، الأكواب الزجاجية ذات اللون الزيتي ، الجامع بين الخضرة والصفرة ، تبدو منفصلة تماماً ، عن الخيوط والأعمدة والقضبان الحديدية التي تشدها ، عجائز مسنة ، تستحم بأشعة الشمس ، وحركة الماضي . عوانس حرب ، يرتلن أنشودة الحي

يروح ، اطارات أمة ، في حضرة القيادة الثورية ، وأمام عدسة الكاميرا .
من هنا ، حتى آخر منحنى الطريق المزدوج ، تنبسط الرتابة ، ماعدا . ماعداه . عند الجسر الحوال ، شديد التخفي تحت الأرض . هو هنالك في المرسم ، المرسم الذي ابتدعه يتميز.له هيئة خاصة ، تجمع بين البشرية والربانية فيها النار ، وفيها الطين،الصورة والمثال،المادة والروح . مكهرب له صلة خاصة بالـذات الكهربية ، للكون ، لابد أن بامكانه التشكل ، واكتساب الحواس البشرية . هاهو بدوره يبادل الرؤية . . ياليل الصب متى غده أيوم القيامـة موعـده ؟ . . ياللن . . ياللالن . . بساط الريح . . جميل ومـريح . . أقيمـوا بني أمي صدور مطيكم ، فإني إلى قوم سواكم لاميل . أنــا طويري راح مع الأطيار ، قم ياصــاح وهـاتهـا. آه يانيل ياسـاحـر الوجود ، الغناء والشعر ، لايجديان في تحويل الانتباه ، فليتم الحلم ، جزء منه على الأقل ، في وضح النهار .
مايضير أن يكلف أحدهم باغتياله زهدي النشاشيبي مثلاً ، فهو أكثر الفلسطينيين ، تفهماً لضرورات المراحل ، ومعطياتها في كل ربع ، ولدى كل قبيلة ، بدل ذلك ، لم لا يطلب منه بكل صراحة أن ينتحر ، يكلف ناجي أو نايف أو جبرا ، بالاختلاء به ، ومكاشفته في موضوع الشرف . لا . ناجي . يغتاله ونايف ، سيغير مجرى الموضوع ، أما جبرا فسينتحر قبـل أن يقنعه ، ولوجاً للزمن الذي يتعتعه ، في هذه الحالة وفي تلك ، الاشكالية لا تحل ، وحضرته يسخر من هنالك .
لم كل هذا التردد ؟ أهناك في هذا الكون الكبير ، من يخشى العشق إلى هذا الحد ؟

حاضر . حاضر . حاضر .

المواجهة أفضل . التوقف هنا . والانتصاب قبالته .

مع أنه لايبالي كثيراً ، فأنه متصل ، اتصاله متواصل . يقول شيئاً ، ولكنه يتحدث . لايتحدث ، ولكنه يقول الكثير،ضرورة تفهمه قائمة ، لأتشربن الوهج .

زمام المبادرة في يده .

العضلات ترتخي ، والعرق يتصبب ، الركبتان تفشلان ، الجلوس أفضل ، لابد من الجلوس . لاتنقطع ، الصلة تتواصل.النظرة ثابتة : أنت هنا ! أي هنا ! وأنت هنا ! أي هنا ! هنا لها ذات خاصة جداً بها . أي وحقك .

من يقول ذلك ؟

لكن الكلام يصل . يجيء .

ماذا يقول أحدهما للآخر . عندما يكونان في شرفتين بعمارتين متباعدتين لايعرف أحدهما الآخر ، أو أي شيء عنه ، حتى يصبحا ، بعد أسبوع واحد زوجين ، من يوصل آهات هذا لذاك ، أية رياح تحمل نداءات العظام للعظام وحنين الدم للدم ؟ كيف تتشكل القيادة السياسية من مجموع أفراد يخفي كل واحد منهم رغائبه الخاصة .

اهتموا بلغة النحل ، والطير والأسماك والنمل ، وتمكنوا على الأقل ، من تقدير أن هناك موجات ، تحمل الخطاب،ولم يهتموا بالإنسان بالجزء الحيوي ، في الذات الكهربية للكون ، يالهم من أغبياء يبددون الوقت ، بحثاً عن ماهية الطريق ، بدل قطعها .

بعد اليوم.بعد الآن ، لاجدوى من أن أمر على الديار ديار ليلي ،؟ المواجهة من هنا ، أفضل ، لقد تأكد ، ماكان لابد من التأكد منه ، بالسيارة الخاصة ، بالحافلة العامة بالمرور على الديار راجلاً ، وأخيراً بالذهاب والمجيء .

بالمجيء والذهاب ، ومن الآن فصاعداً ، الموقع هنا ، من هنا ، نعم ياحبيبي ، أنا هنا ، وأنت هناك ، لا . هنا أيضاً ، يواجه أحدنا الآخر ، بل ينظر كلانا في المرآة .

لابـد أنهم اتصلوا جميعهم ، المسـاعدون ، السائق ، نجاة ، هتفوا أولاً ، ثم حضروا ثانياً ، ثم تساءلوا فيما بينهم ثالثاً ، فاجأهم صندوق البريد بأنـه لم ينفتح هذين الأسبوعين ، متغيب عن المدينة ، ربما لهذا السبب لم تأت الأتون في الليالي الفارطة .

ماالفائدة من الإصغاء الى صوت الموج ، إذا كنا في خضم الهدير ، ولا بد من الجلوس عنده ، بدل الجلوس إليه ، من الخلف يرى ، من الخلف أرى نرى .

كل مرة يهم أحـدنـا أن يقـول شيئاً ، يشعر الآخر ، بأن لا ضرورة لذلك ، ماالفائدة من تبين أصوات الأصوات ، اذا كانت كلها تحمل الى نفوسنا معنى واحداً . أنت هنا ! أنا هنا ! هنا هذا أنت وهذا أنا ، هنا الدفء أدفأ ، الامتلاء أوفر ، الطمأنينة أوكد ، الانسياب أيسر . أجمل ، كلما تواصل الانحدار في الذوبان والفناء ، حصل التعويض ، بعزته وقوته أسكن فيه فينتشلني من الوحشة ، وينسيني وجعها .

الاحســاس قوي ، بل راســخ ، بأن الشعــور متبـادل ، كلما تم التسامي ، عظم الشعور بأن المستوى واحد .

هكذا . الجلوس عند عتبة باب المعشوق ، فلا أحد يتقدم الى طرقه قبلي ، وعندما يفتحه لن يملأ بصره أحد غيري ، وسيلحظ ظمأ العاشق ، مافي ذلك ريب .

تمطر . تهب الشرقية العنود . الشمالية المتعجرفة . . الغربية الوقحة ، الجنـوبية الشبقة . تذهب سيارة تجيء سيارة ، تحمل واحداً متوحداً في

الحديد ، اثنين يتبجح أحدهما عن الآخر ، أو يخادعه ، جماعة لابد أن موضوع تجمعهما ، تآمر ماعلى مصالح الآخرين ، عربة نقل.شاحنة.دراجة نارية ، تفيض نفس راكبها بالتواضع ، والوقوف دون القدر المعروف الى حد الإحباط ، فأر عنود ، يصارع ضوء النهار ، وحرارة موقع أرجله ، كيف قرر أن عليه أن يغادر عالمه ، قاطعاً طريقاً عبده الإنسان لنفسه ؟ سيارات المهاجرين لاتنقطع.عندما تطل من هنالك ، تفضح نفسها ، حتى وأن كان راكبها ، يضع قبعته البلحاء في المؤخرة ، تعلن أن هذه السيارة يستحيل عليها . امتلاك هوية وطنية ، غير هذه القبعة ، وأنها تتحدى بحصانتها ، كل القوانين وكل الساهرين على حمايتها .

. . كلما تم الابتعاد ، ظلت الروح ملتصقة بالروح والدم ، يرفرف في الدم ، والعظام تناغي بعضها .

وعند باب المعشوق لا حاجة إلى الاستدارة ، أو رفع الرأس ، أو فتح العينين . الشاعر يعرف النظرة ، لكن لا يعرف زمنها . ولم يختبر توالدية ومدرارية النون ، ولا سعة أفق الظاء وقوة حرارته ، ولا رنينية الراء ، وسرعة تردد الصدى فيها . لقد كانت القيمة الزمنية في كل البيت غائبة . فالنظرة التي لا تتعدى لحظات قصاراً ، حتى وإن كانت تلك اللحظات تتكرر في كل ثانية من ساعات النهار ، هل يعرف أحد عمرها ، إذا كانت بالفعل ، تلك النظرة الفصل ؟ ثم هل أن أباالعلاء المعري ، وبشاراً ابن برد ، وعبد الله البردوني ، وطه حسين ، لم يعرفوا النظرة الاعتراف الوذْر، ولم يقدروا عمرها ؟ يا له من تسطيح ، لا يجوز إلا في مفهوم التقدير الجزائري ، الذي لم يبهره أي أعمى فرنسي ، أو ألماني .

ماذا جعل بشاراً يقول :«العين تأمل فيك قرتها»، وبأية عينين تشرب ابن برد بسمة عبدة ، أيها الحمقى ؟

التـواصــل ، حاصــل ، والنـظرة استقلت بعمـرها ، ولعل المعشوق الآن ، يفكـر ، فيما يجب أن يفضي به إلي ، وأنني لأفهمه قبل أن يجمع الحروف ويصوغ الكلمات .

- . . . . .

- موظف سام نعم . .

- . . . . .

- عمر الادارة الجزائرية لا يحسب .

- . . . . .

- كل شيء سيصلح في إبانه .

- . . . . .

- من أصل مسرحي . أعطيت للثورة وللاستقلال ، ما يرضي الواجب والضمير .

- . . . . .

- سوء فهم ، من وزير الثقافة والاعلام . لا . لا تغضب فلا بد أن هنـاك عبـارة ، أكثر وطنية ، وأكثر التزاماً ، من سوء الفهم هذه . هل تكفي عبـارة « تقـدير » شخصي للوزير ، كان خاطئاً. اوف. صادف، وكان خاطئاً. حتى هذه لاترضيه. لنقل إن شئت ، حزم مبالغ فيه ، في تطبيق مبدأ الرجل المناسب في المكان المناسب .

- . . . . .

- دون مبالغ هذه . لا بد من عبارة ثوري . لا ينزع اليسار عنكم صفة الثورية . ولا يحتكرها لنفسه . ليكن حزماً ثورياً . كما تشاء .

- . . . . .

- لا أستطيع ذلك . أرفض القرض المالي . شكراً . شكراً .

- . . . . .

- نعم أحبك . كيف ؟ المحبة لا تكفي !

- . . . . .

- والاعـتراف ، هل يؤدي المعنى المقصـود ؟ ماذا إذن ؟ ماذا ؟ وهل للعاشق غير التسليم .

- . . . . .

- أنتـظر . في حقيقـة الأمـر وواقعه ، أنا في حالة ليس لها مصطلح سياسي . العشق . العشق . في الجزائر التي هي جزء من العالم الثالث ، مؤسستها العسكرية لها طابع وطني . ذات خاصية تقربها من البلدان الاشتراكية .

- . . . . .

- هذا هو المصطلح الصحيح . إنني لمسرور ، بهذا التوفيق .

- . . . . .

- في تقديري أننا بدأنا نحب بعضنا .

- . . . . .

- صيغة المفرد ، لا بد منها هنا .

- . . . . .

- عفوك . أنا بدأت أعشقك . وأنت ؟

- . . . . .

- لا . لا تغضب .

- . . . . .

- صحيح ، وإلا كيف كنت أعرف أن قدري أن أعشقك . في البدء كان اهتمامك بي .

ـ . . . . .

ـ الاهتمام تعبير مبالغ فيه ؟ هل تعوضه الرعاية ؟ ما أسعدني ما أشد سعادتي .

ـ . . . . .

ـ نعم . لي مطلب بسيط جداً . فقط أن يحذف الصوت من التلفزة أثناء نقل مقابلات كرة القدم .

ـ . . . . .

ـ لا ، ليس صوت الجمهور . إنما . . .

ـ . . . . .

ـ أقسم أنني لم أقصد السياسة . لا . لا تغضب . ليس معارضة لا بيضاء ولا سوداء . وكيف أفكر في انقلاب أبيض أو أحمر ، أنا الولهان .

ـ . . . . .

ـ صدق غوبلز إذن .

لن أسأله ، مرة أخرى ، اليوم . لا حاجة للمعشوق . بأن يجهد نفسه فيقول ، لماذا كانت بينه وبين العاشق النظرة . وعما إذا كانت المبادرة منه ، أم هو مجرد التقاء الأعين ، في موجة واحدة . على العاشق ، فقط أن يبالغ في اتضاعه ، لاستدراج المعشوق إلى المرحلة الثانية . الاتضاع طبعاً ، بالمعنى البشري الخاص بهذه الحالة ، وإلا تهدم كل شيء . وهو ، المعشوق ، لا يعذرك فحسب ، وإنما يجد غبطة ، وأيما غبطة ـ قال المجربون ـ في ذلك ، ما لم يكتشف خطأ ما في التكون الأول للنظرة وهذا لا يتم ، إلا في حالة تحول الضعة الى خسة ، صحيح أن الطيبات للطيبين ، والخبيثات للخبيثين ، ولكن لا أحد أدخل الخسة في الخبث ، وإلا تواصل الكلام ، بالخسيسات للخسيسين . والحق أن العشق ، لا

يسكن أصلاً ، كيان خسيس أو خسيسة . أولئك قد يكون لهم مصطلح آخـر انتهازيون ، مثلاً في المجال السياسي والمالي . هؤلاء ، الخسيسون والخسيسـات ، لا يعـرفـون القيمـة الزمنية للنظرة ، بل إنهم لاينظرون اطلاقاً ، انهم يشمون ، حاسة الشم عندهم لا تضاهيها في قوتها ، حاسة الشم لدى الكـلاب ، قد يستعـذبـون ، نظرة فابتسـامة فكلام فموعد فلقـاء ، لكنهم ، لايستـوعبـون منهـا إلا ، كلمـة لقاء ، وهي كما عند غوبليزات النفط ، وشعراء الذمة ، ليست سوى كلمة ، كافها تتحول في الخليج الى شين ، إلا أن أولئك ، طوال العمر ، وهؤلاء قصاره ، الأولون يستعطون وهؤلاء يعطون ويعرضون العطاء حتى دون استعطاء. الأولون يركبون أما هؤلاء، الخسيسون كي لايختلط المعنى ، فيبرذعون، ويسرجون ويلجمون .

لقـد فهم المعشـوق ، أنني مهما كنت طيباً أو خبيثاً ، عاشق وبالتالي لسنت خسيساً .

يبدو أن عملية الاستدراج تمت . لكن نقاوة العنصر ، كانت أقوى .

لم تتعد المسألة ، حد الاصطلاحات والمفاهيم ، هذا جائز جداً ، بل ، بشري ، تماماً فمهما كان الأمر ، فعواطف المعشوق رقيقة ، ولدى اقتحام الارواح الأول لبعضهـا ، يمكن أن ينكسر جزء منهـا . فالـولـوج مثـل الخروج ، عسير . إن العاشق وإن تواضع، يعتبر نفسه دائماً ، صاحب حق ، واللغات في هذا العصر ، تكاد تختلط ، والمذاهب لم يعد يفرق بينها شيء .

ماأسمعه ليس كلاماً ، لا أحد قال انه كلام ، وإلا ضاعت المرحلة الثانية ، تفلت ومضة النظرة ، زبدتها فحواها ، وحصيلتها : البسمة ، . تتحـول العملية كلها ، إلى بيع وشراء ، تلفت البطيخة النظر ، تتسلط

الحواس ، جميعها عليها ، السلام عليكم ، وعليكم السلام ، كم سعر البطيخ اليوم ؟ مغازلة شاعر مالنجاة ، يقول لها أنت ممتلئة ، قبل أن يقول لها أنت جميلة . أو أنت لطيفة ، أو رقيقة ، حب نفطاني .

ليس كلاماً ، قد يكون الرفة الأولى لجنين البسمة ، في رحم الاكتشاف ، تفتق البذرة الأصل ، للطمأنينة ، بسمة علوية رفيفها ، لا تستوعبه الروح البشرية بيسر . رفيف، يتأمل بكامل الكيان الذهني، ذي التجاويف التي ينام فيها جميع الأجداد .

اخرسي أيتها الأشباح السابحة في الكلمات ، نامي . دعي الأشعة ، تولد من ثغر حبيبي . فانني أحس بها تغمرني ، تلفني في نفش السلام ، تخلصني من الجاذبية ، وتضع الحلمة بين شفتي ، فتسكب الرحيق في جفاف أيامي .

ياأيتها النفس المهدهدة ، اسكني الى نورك ، راضية مرضية .

ترف . ترف .

ماأشمل السكينة الآن ، عند بابك ، فتحت أم لم تفتح ، لن أطرق ، لأنني أعلم أنك هنا ، ولأنني واثق من أنك تنتظرني ، وأن الأبواب والجدران وكل الحواجز ستمنحي ، وتملأ طلعتك الروح ، حينها تأذن ، فيستحم الشلال في الشلال ، يرتوي الدم بالدم ، تسكر الذرات في الذرات .

يرقص المولود الجديد .

لن ألتفت إلى الخلف ، أنني هكذا أراه ، وماجدوى العينين اذا كان النظر قصيراً ، لا مسرح ، ولا ثورة ولا إدارة أو كاتبة اسمها نجاة ، أو مساعدون خسيسون ولا سائق تعاقد مع واحد ممن لايسمون ، على بناء فيللة ، لا عبد الله البردوني ، ولا بلقيس أو حتى نفط ، لاشيوعيون ولا

اخوان مسلمون ، لا مخابرات ، ولا غويليزات ، لاوثيقة خطيرة وقعت بين أيدي الوزير ، طلب في شأنها استشارة .

الزمن عامر برفيف ثغر المعشوق ، ومن لم يمتليء به لن يدخل العشق قلبه . خسيس هشيلة .

أنت هنا ! أنا هنا !

الأرض ذرة كهربية ، في فضاء الذرات الرحب ، تواقة لحمل شحنة ما ، من الذات الكلية ، عبر موجة مكتشفة ، في أثير ما ، أنت ترسلها ، أنا أتلقاها ، هل آمل في لحظة فوران ، كي أبث قليلاً مما يعتمل من وجد في الهيولي ؟

اخرسي أيتها الهامات الهاربة من جثث الكلمات ، انمحي افني اخفي ظلالـك فالنـور لا يسقط من منبـع واحـد والبحـر ليس قطرات تعد ، والصحراء ليست حبات رمل ، تحصى .

آه ياقرة عيني !

من أخذ حضرة المستشار من يده ، عندما أدلهمت الظلمة وقاده الى مكانه ، قطع به خطي الطريق المزدوج ، ونزل به تحت الجسر الحوال ، وصعد نحو الدرب الضيق ذي الأشجار البرية الكثيفة ، حيث لايحتاط السواق ، فينطلقون بالسرعة القصوى وحيث يحلو للكلاب المهجورة ، ولربما الهاجرة ، فمن يعلم بما في دخائل النفوس ، أن تصطاد بعضها ، وأن تتناسل سكرانة بالرائحة اللقسة ، من قال له أن المفاتيح في هذا الجيب بالذات ، وأن هذا الباب ، يفتح بهذا وليس بذلك ، وان أزرار النور، على هذا الجانب وليس على الجانب الآخر؟ من أفهمه أن الجرس عندما يرن ، يعلن بأن شخصاً ما بالباب الخارجي يطلبه ؟

هاهـو هنـا ، داخـل المسكن ، ذي السبـع غرف ، كل غرفـة لها

شخصيتها المميزة لها : غرفتها ملكة اللوحة التي لا تنمحي . غرفتهم ، تحت رعـاية ، بروميثيوس،غرفة دار الحكمة ، يتصدرها « أبو قير»،غرفة المتخاذلين المهجورة . غرفة الماضي . أخيراً غرفة الواجبات : الأكل والنوم .

ماذا يقول لنجاة التي تحمل قفة ملأى بالأكل وقنينات النبيذ وتصطحب ابنـة خالتهـا ، ذات الجمال المرعب ؟ من يثرثر في الحديث عن الذرات والقطرات ، ومن يستطيع تجزئة وهج الشمس الساطع ؟

ماذا قالت نجاة ؟ ماذا قالت ابنة خالتها ؟ كيف سكرتا ؟ كيف تمكنتا من اقتحام غرفة التخاذل ، ثم غرفة النوم ؟

هل حضرتا بالفعل ؟.

كيف تصبر الكلاب ستة أشهر عن الرائحة اللقسة ؟ كيف لا تعرف ذكـورهـا الجنس إلا بهذه الرائحة. ماذا يثيرها غير ذلك؟ كيف ارتبطت الغريزة بالأنف ؟ يالها من آلية ، لاتتحرك إلا بميقات ؟ هل العين عند الانسان تعوض حاسة الشم عند الحيوانات ؟

هل عرف أبو العلاء المعري ، ماعرفه بشار ، ولو مرة واحدة ؟ أحقاً لم يجن على أحد .

كيف هانت الحياة على الفيلسـوف ، أمـام عشقه للحقيقة فسلم في نفسه ، مقابل أن لايسلم فيها .

اليكموه سقراط. افعلوا به ماتشاؤون ، فلن يشعر بوجودكم ، إنه سكران ، شرب الحقيقة فسكر، سكتته.

إنه قرير العين، والعشق . . والله غلاب .

الصّراخ في الوادي

سيبوني يا ناس ، سيبوني ، أنا وحبيبي سيبوني .

ما بلغت الاستغاثة أذن أحد ، ولم تعد أن تكون خاطرة ذاتية في ظرف جد ذاتي ، تصـدر أو لا تصـدر ، تنبعث أو لا تنبعث ، مادام الأولون ضربـوا مثلاً بالصرخة في الوادي ، رغم أنه لا أحد يعرف أي واد كانوا يعنون ! النيل أم دجلة ، الفرات أم وديان الجزيرة ، تلك المنفرجات بين الجبال الصخرية المتأهبة من يوم خلقت لاستقبال سيل ما ، في أية لحظة ، والتي تضيع فيها الصرخة منكسرة مرتدة بين صخرة وأخرى ، حتى تستقر في قلب صاحبها ، فاترة حزينة يائسة . . وا . . وا . . لا مغيث . واجه قدرك منفرداً .

لا شك أن الصرخة كانت ولا تزال قضية ذاتية بحتة ، لا أحد يأمل أن تبلغ آخـرين . كل ما هنالك ، أصل الدافع ، أن تمتلىء الأذن بصوت الفزع الذي ترسله الخلايا ، يستهل بها الانسان حياته حال مغادرته لبطن أمه ، ويظل يتذكرها كلما واجه الفزع المرعب .

من يقـول أنها انقطعت أو تنقطع في لحظة من لحظات العمر ، وأنها ليست ايقاعاً منتظماً ، يرسله جهاز ما في الكائن يتموج في الذرات ويستقبله جهاز آخر في موضع ما من الذات الكهربية للكون ؟

من يدري ؟ وفيم يهم ذلك ؟ ثم أليس كل هذا ثرثرة ، صفيراً في ليل

المتفرد ، اخفاء للرأس في الرمل هروباً منهم . . ؟

ها هم يتجمعـون . هنـالـك. أعينهم الممتلئة شماتة ووقاحة مصوبة نحوي . الكلاب . أطفال الحي ، من قال لهم أن النظرة حصلت وأن البسمـة اندلعت ، وأن الكلام دائر الآن . دائر في مراحله المفاهيمية ، طبعاً ، طبعاً . . فمن بقي يعرف الشعب الآن ؟ من يزعم ذلك ؟ الشعب نفسه لا يستطيع أن يفعل ذلك . هو نفسه لم يعد يعرف نفسه . من مازال يذكر التفاصيل ويعلم الأسرار المختلفة ، أسرار الأمة وأسرار المدينة وأسرار الحي وأسرار العمارة ، ثم أسرار البيت الصغير ، وابن وبنت الجيران ؟ هل في امكان أحدنا أن يدعي أن قلبه اهتز ، أو أن الأرق لازمه ليلة البارحة بسببهم ، الأطفال جيرانه ، الذين باتوا على الطوى ، انتظروا وانتظروا أن ينتهي غليان الماء فوق النار إلى أن غلبهم النعاس فناموا على حلم قصعة كسكس مدبجة بقطع ضخمة من لحم الضأن .

« لم أفهم القصد من هذا اللفظ ؟! » .

هناك شيء ما مات ولا أحد يهتم بالقاتل .

« يا لها من حساسية وورومنسية ثورية . نحن لا نغرق في الفردانيات . هذه هي الثورة » .

عددهم يرتفع .

سيبوني يا ناس سيبوني .

دعــوني فإنني أسمعـه . بل إنـه يسمعني ، وإنني لأسـألـه . أرملة الشهيد ، الزهرة ، صمدت وصمدت ، ثم وقعت . تفرد بها في المكتب الخلفي ، وأقنعها بأن فرج الله في فرجها ، وأنها إما أن تحصل على واجب الأمة نحوها الآن . وفوق هذا السرير ، وتحت هذا الكلكل ، وإما أن تموت جوعاً ، هي وهم ، الأطفال ، وأنها الزهرة تتدلى في هذه اللحظة

بحبـل في جيدهـا ، وأن الجنـين الـذي ببـطنها يرسل آخر النبضات ، صرخات صامتة ، في جميع الاتجاهات .

« حوادث كل يوم وقضايا شرطة ، في أمة بالغة الكبر والعمق » .

يخططون . . يضعون خطة جهنمية تخصني . . الشياطين .

الصيادون في ميناء «قوراية » المهجور لا يرمون شباكهم سوى مرتين في الاسبوع ، خشية تآكلها وتمزقها ، والعجز النهائي في الأخير عن التقوت من البحـر ، في حين توهب أمـوال وثروات الأمة إلى فئة خاصة تسمى المجاهدين ، ليستوردوا بواخر صيد حديثة من فنلندة وايطاليا واسبانيا وتونس ومن كل مكان في الدنيا ، فينتقلوا من صف الشعب إلى صف خصومه ومصاصي دمه وتعمد بذلك الرأسمالية الوطنية .

« هل تذكر حكاية جحا وبائع الزيت » ؟

لا أعرفها أصلاً .

« لسبب ما أراد جحـا أن ينتقم من بائـع الزيت ، فسأله هل زيت القربتين اللتين على ظهر الحمار واحد ؟ بالتأكيد . أجاب البائع ، فقال جحا ينبغي أن أتأكد من ذلك . دعني أفتح هذه القربة أولاً . نعم زيتها طيب . أمسـك باحدى يديك فمها حتى أفتح القربة الثانية . آه زيتها طيب أيضاً . هات يدك الأخرى وامسك هذه أيضاً . مد البائع يده إلى القربة الثانية وأمسك بفمها أيضاً . جاءه جحا من الخلف وسأله ما تراني أفعل بك الآن ؟ افعل ما شئت شرط أن تعينني على اغلاق القربتين وانقاذ زيتي . . . لا تكونوا ضيقي الأفق إلى هذا الحد . المسألة مسألة تكتيك ليس إلا » .

يناقشون تفاصيل الخطة . أيديهم الصغيرة تشير إلى حصار من أربع جهات .

لقد ظلت تزغرد وتزغرد ، فطوم ، زوجة المواطن عبد الله الذي اقتحم باب البيت وعلى كتفه كيس البطاطس العزيز . لم تكف فطوم عن الزغاريد الا بعد أن شكت في المستشفى الجامعي بحقنة أنامتها أربعاً وعشرين ساعة . لا لا تقاطعني انتظر . المواطن عبد الله موظف ، ولقد ترك مكتبه وشغله ، والجمهور الذي ينتظره ، لينخرط في الصف من الثالثة صباحاً ، حتى الثانية زوالاً ليعلن في الأخير بيان النصر النهائي ويعود به ، كيس البطاطس العزيز . أرجوك . لا تقاطعني . دعني أفرغ ما في جعبتي قبل أن يصلوا . ومن يدري فقد يضعون حداً نهائياً لحياتي . الكلاب يبدو أنهم يقتسمون الأدوار بعد أن ضبطوا خطتهم . . قريتها « الاشتراكية » ، برجوازيتنا الوطنية سليلة جيش وجبهة التحرير الوطني .

« آمرك بأن تسحب الجملة الأخيرة . الحب إن لم يعن الاحترام ، يجب أن يتحول إلى عداوة . لن نسمح بالمس بالمقدسات » .

سحبتها . لكن سأبدلها بعبارة أخرى . . هذه القرية التي لم تدخل في برنامج الألف قرية اشتراكية ، هي قلعة المتواطئين ، والمرتشين ، والمقاولين ، والمضاربين ، وأصحاب الأمر والنهي والحل والربط .

« ثم ماذا ؟ » .

لا تغضب ، أردت أن أقول انها ورم سرطاني في قلب الثورة ، في مخها أفضل ، لا تقاطعني أرجوك ، فربما هذه هي الكلمات الأخيرة في كل ماتبقى من حياتي ، المخ يعنيكم أنتم والقلب يعنيني أنا ، وكل النحن .

« ثم ماذا بعد كل هذا الكلام » .

حلم النحن ياحبيبي أن ننصب مدافع وصواريخ وأربيجيات ، وأن نظل نقنبل ونقنبل الى أن يذوب الورم السرطاني ، وتستوى الأرض ، ويستوي الماء والخشبة . . أبسط ما ينبغي فعله هو إقامة جدار برلين بين

هذه القرية وبين باقي الوطن .

شرعوا في جمع الحجارة والطوب .

« هذه هي ـ على حد تعبيركم ـ اليسارية الطفيلية بعينها . . وإلا فكم عددهم ! وهل يعسر على الثورة حين تقرر أن تمرر يدها على هذه القرية ـ كما تقول ـ وغيرها من القرى ، لتسوي الوضع كما ينبغي ، المهم هو الثقة ، وترتيب القضايا حسب أولويتها ، ثم أننا لسنا في المريخ أو عطارد . . نحن جزء من هذا العالم . أكثر من ذلك ، نحن عصب العالم » .

لا تأكلني بالكلام . . الحزب ماذا يحركه بالنسبة اليكم مطامح وثقة الجماهير ، أم رائحة البخور . . ؟ لاتغضب . فليس مايخرج من بين شفتي ، وماتسمعه سوى ماتعلمه مما يعتلج في قلبي ، أعلم أن الحزب الحقيقي بالنسبة اليكم ، ليس حزب كل الناس ، وانما حزبكم الشخصي ، الذي يتشكل من أولئك الذين لايسمون . . ان كنت ستغضب حقاً فسأعود الى صمتي .

« لا . لا . واصل »

هاهم ينطلقون . الكلاب .

هاي هاي . ماما . . أج أج . . نون نون .

هل كان عبد الناصر مصيباً أو مخطئاً ؟

« مخطئاً طبعاً ! » .

. . هذا رأيي أيضاً رغم إصرار القذافي وجبهة ثلاثة وعشرون يوليو . . هل تسمع بها ؟ قد يأتي اليوم . . فلم تعاد نفس الخطوات . . لاتجب فهاهم يجيئون . . أسمع الإجابة ، فهذه الجوقة التي لاتتغير ، عازف البيانو اليوم ، هو عازف الأرغل غداً ، عازف القانون اليوم هو

عازف الناي غداً ، ضارب العود أو الرباب أو الدربكة اليوم ، يمكن أن يكون أي واحد في الجوقة في وقت آخر . . ماعدا قائد الجوقة طبعاً . . نعم هذا ما أردت قوله . . صبرك لاتقاطعني . أنت الذي تملك كل الوثائق والقرائن والتقارير والمستندات ، أواثق من أنه لا أحد من بينهم معاد للثورة ، عندما يكونون أمامك في اجتماع ما ؟!

توقفوا ، فجأة توقفوا . المسافة بيني وبينهم لا تتعدى خمسين متراً ، لا أحد منهم يلتفت أو ينظر للآخر ، عيونهم الوقحة مركزة فيَّ ، كأن بيني وبينهم ثأراً أزلياً . نظرتهم الشرسة تزعجني ، عيون الذباب هذه كم هي شرسة .

مجنون هوه هوه . . مجنون هوه هوه . . ماما ، جيم جيم . نون نون .

انطلقوا فجأة بالصوت الواحد ، وكأنهم آلة موقوتة ، حاولت أن أتزحزح أن أتأخر قليلاً الى الخلف ، أن أطلق ساقي للريح ، أن أقول لهم كلمات ، أعرفهم بنفسي ، أذكرهم واحداً واحداً بالروابط التي كانت بيننا ، لكن قوة ماملكتني فجمدت كل حواسي ولم أعد أتحكم في أي عضو من أعضائي ، لقد انبعث صوت حبيبي فغمرني واختفت الدنيا ومن فيها عن نظري .

ماجنون . هوه هوه . . ماما . جيم جيم . . نون نون . . هوه هوه .

مع ذلك لايتقدمون . ألسنتهم وحدها تتحرك .

ماما . جيم جيم ، نون نون . هوه هوه .

كيف التأموا . كيف جمعوا بعضهم ، كيف اتحدوا على فكرة واحدة ونغمة واحدة ؟!

ماما . جيم جيم . نون نون .

المهم أن يبقوا حيث هم . ليفعلوا مايشاؤون ، ما يضير مادام حبيبي

هاهنا .

هوه هوه .

اللعنة عليكم ياأولاد الزنا ياسلالة العسكر .

مجنون نون نون . هوهو هوه .

كلهم أولاد حارة ، يعرفونني ، ويتباهون على أولاد الحارات الأخرى بأنني أبن حارتهم ومقيم بينهم ، وبأنهم أصدقائي ، يشترون لي من المتجر خبزاً ولبناً وكبريتاً وشمعاً وسجائر ، ومن حين لآخر يركب أحدهم السيارة معي وحده ، أو مع أبيه أو أمه ، يمد رجليه الصغيرتين ويرفع رأسه في كبرياء وشموخ : أفسحوا الطريق . انني أركب سيارة الحكومة مع الفنان الكبير . حضرة المستشار.كانوا جميعاً أصدقائي ، وكنت بدوري صديقاً لهم أحبهم فرادى وجماعة ، أجاريهم فأزيل الكلفة بيني وبينهم وأمتلىء باحساس الفخر الذي يعتريهم .

فجأة هاهم ينقلبون رأساً على عقب وهاهي أصواتهم الهادرة . تحل محل حبهم ، ماأسهل العدواة في هذا البلد .

ماما . . . جيم جيم . . نون نون هوه هوه .

ماالذي حولهم فجأة الى حيوانات صغيرة قاضمة ، يمكن أن تحدث الأذى والوجع .

هل كانوا يتربصون بي من عهد بعيد ، لأنني أعزب ، لم أخرج اليهم ولداً يتباهون بصداقته أو بإيذائه ؟ من يدري .

فهذا ليس سوى انتقام نابع من حقد دفين ، لعل أخوات بعضهم العوانس اللائي انتظرن وانتظرن دونما جدوى ، استقبال قميص أو سروال حضرة المستشار للغسيل أو الكي ، اكتشفن في الأخيرة ثغرة العشق هذه فشكلن جيش الانتقام .

هوه هوه . جاجا . نانا ، واوا . نانا .

قبل أن يتجمعوا ، كانوا كائنات صغيرة ، لطيفة وجميلة لكن هاهم الآن وحش ضار .

لم يجرؤوا على خطوة أخرى بعد! لعلهم ينتظرون رد فعلي .

« كنت تحدث نفسك ولا شك ! أهذه كل تهجماتك على الثورة ؟ » .

عتاب مجرد عتاب ، بل ، أقل من عتاب ، إزالة حيرة إن صح التعبير ليس إلا .

لك ماتشاء نسمح لك أن تحول ماتسميه بالعشق الى سياسة ، وأن تحول ماتسميه بالسياسة الى عشق ، مادمنا قررنا أن نسمعك .

ذاك مصدر سعادتي !

« نعلم ذلك » .

هوه هوه . . اعطوه . . اعطوه .

الأجساد الصغيرة تنحني وتستقيم بسرعة . الأذرع تمتد بشيء ما . الرذاذ يتساقط حولي . شيء ماشبيه بذلك ، ينزل فوقي . المساكين .

ماذا تقول ؟ تفضل أن تؤجل كل الإجابات ، حتى أفرغ كل مافي جعبتي ، وهل انتظرت ياحبيبي في يوم من الأيام اجابة ما؟ بل هل سألت .

سيارة تتوقف . سائقها يلغط فيهم : « ماذا تريدون عنده . المسكين ؟ حرام حرام . ربنا يدخلكم جهنم على فعلكم هذا . . . »

امتدت الأذرع نحوه . الرذاذ يتساقط على سيارته . صوته يبلغني . المحرك يتجشأ . يهرب .

هوه . هوه . اعطوه . أوه .

ما تسمونه باللامركزية في التصنيع ، أليس نظرية قذافية بئيسة مصاغة

في شكل أذكى ، ففي حين يلغي صاحبنا ما لم تلغه لا الرأسمالية ولا الاشتراكية ، الطبقة العاملة ، ويسعى إلى احداث نوع جديد من مجتمع متحاصص ، تحت شعار شركاء لا أجراء ، نعمل نحن على استحالة تبلور هذه الطبقة بوعيها وفعاليتها ، وذلك بتشتيتها في مختلف الأصقاع ، وبابعادها قدر الامكان عن المراكز الاشعاعية للعمل النقابي . شأن الجامعة التي نظل نتسول أساتذة لها ، ثم بعنوان ديمقراطية التعليم ، ننشىء لكل فرع من فروعها ، جامعة في بادية أو حاضرة ما . أريد أن أعرف ، أن جاز لي ذلك ، هل تنظرون أو بالأصح ، هل تستمدون ، نظرتكم ، من الماضي ومعطياته ، أم من المستقبل وحتمياته ؟

هذا سائل أحمر ، يترقرق أمامي .

هوه . هوه . ماما . جاجا . نون نون . هوه هوه . اعطوه اعطوه .

هذا رذاذ أحمر . الأيدي الصغيرة ما زالت تتطاول نحوي . . إذا ما توفرت الفرصة لافراغ ما في القلب ، فليفرغ المرء قلبه حتى الأخير . حالة عشق ، يتفق عليها جميع العاشقين ، وإلا كيف يمكن أن يقال أن هناك تلاقياً ما حصل وتم ؟ ثم أيناء الوزير أم أنا ، أحق بالمنصب . . ! لا حاجة للاجابة ، فبامكاني أن أعلن أن السؤال لا يتوقف عند هذا الحد ، أو عند هذا الشق . . إنها معارضة صريحة أعترف بها ، لأنه هو نفسه ، سعادة الوزير ، يبيح لنفسه ، كل ليلة ، حق التوغل في أسئلة من هذا النوع . . ولقد قال لي مرة بأنه عجين يأبى أن يتخمر . نعم قال لي ذلك ، وهذه ليست بالمرة وشاية . . حالة العشق تنعدم تماماً ، لتفسح المجال لتسلط الخسة على جميع مرافق الحياة .

« ألا تخجلون ! دعوا المسكين »

« لن ندعه حتى يتزحزح من موقعه . هوه هوه . . أعطوه طوه » .

الأذرع تمتد نحو السيارة ، شظايا الزجاج الخلفي تتطاير . السيارة تهرب . حتى أنا قدرت أن موازين القوى المختلفة لا تسمح باعلان الاشتراكية العلمية . الماركسية اللينينية في مثل بلدنا تهور وطني وقومي وأممي . قلت لهم هذا الكلام قبل أن أنفصل عنهم ، فاتهموني بالتخاذلية والتوفيقية . الانفصال لا يعني أكثر من رفض الارتباط بهم . تعلم ذلك . لكن لم أكن أقصد اضافة أي جديد ، وليس هناك أية صلة أصلاً لهذه المسألة بأحقية الوزارة - مجرد خواطر .

أح . أح . تزحزح . هوه هوه . نون نون . مجنون .

الحجارة والحصى تتكدس حولي وتغطي السائل الأحمر . هل لكم يا حبيبي مفهوم خاص للوضع الذي لا يعدو أن يكون وهمياً ، حسب رأيي واعتقادي ، وإلا كيف يعقل أن يتسرب إلى وهم كل جزائري أنه ما تجمع ثلاثة ، إلا وأحدهم ، بالضرورة وبالتأكيد والقطع ، احدى عيون آرغيس . أعلم ذلك ، أعلم أن التدريب يتم أما في الاتحاد السوفياتي وإما في كوبا . اشكالية الامية الثالثة ، كما قلت لهم . بدل تكوين المناضلين يكونون المخبرين ، ويعطونهم أسرار مقاومة الحركات « الهدامة » الامر الذي يجعل شخصاً مثل سعادة الوزير ، رغم ما أوتي من ذكاء ودهاء ، ورغم ما أتيح له من التعرف علي وعلى أفكاري وعلى مبادئي لا يتستطيع أن يتصور أنني غير داخل ، بمعنى أدق موغل ، وأنني لست ضمن عيون آرغيس . في هذا البلد الآية تنعكس وكل شيء تحول إلى « هف » وطني وإلى غميضة ثورية .

هوه هوه . اعطوه . اعطوه . مج . مجـ .

اهتفوا . تكلموا أنتم أيضاً . لنتكلم جميعاً فنجد الراحة . لنتكلم قبل أن تضيق الصدور الرحبة . . كيف نحكم هذا البلد . . نـ . نـ . نحـ .

نحكم . نعم ، فأنا بدوري أحكم ، هذه هي الورطة ، كلنا نحكم ولا أحد يحكم حقيقة ، سوى « هم » . كيف لا أحكم ، وأنا من استدعى عبد الله البردوني . أبداً . لا أحد ـ وأنا قلت هذا ـ يشتكي من عنف ، أو استعمال قوة ، أو ضغط أو حتى مساومة ، ما عدا قدماء المجاهدين ، فهم وحدهم الذين فتحوا كراسة مطالب لا تنتهي إلا عندما يحلون محل المعمرين والمستعمرين . لتكن معارضة إن الكلام يريحني ، وليكن ما يكون . أعلم أيضاً . . السجون فارغة ، والعسكر في شبه عطلة دائمة يلاحقون مصالحهم ، الشخصية ، الحزب ، ربنا ولك الحمد . . وقليل من ضجيج من هنا ، وأنات من هناك ، في هذا الطابور ، أو في هذه الحافلة ، أو في مركز البريد ، أو في الولايات والدوائر ، أو المستشفيات لا يمكن تسميته بالتضجر الوطني أو اعتباره ـ كما تفعل الصحافة الغربية المغرضة ـ كارثة اقتصادية واجتماعية . نعم قلت لهم ، أن كل شيء على مايرام لحد الآن . غير أنهم أفحموني ، عندما قالوا أن المذيع لا يستطيع أن يقدم مقابلة في كرة القدم ، صامتاً ، وهذا هو بالضبط منطق المعارضة . تجريد الثورة من سلاحها .

آح . آح ، تزح . . زح . آح آح .

أعلم بالتأكيد . أن ما يهمكم ليس هو كيف نحكم ، هذا البلد ، وإنما كيف نواصل حكمه ، نعم . كنا ، كانوا تسعة ملايين ، وها هم الآن عشرون مليوناً ، عدد الشيوعيين ، بما في ذلك حضرتي ، يعد على الأصابع ، عدد الأخوان المسلمين والمتزمتين والمتخوفين والمترددين من كل مغامرة اقتصادية ، لم يكن يتجاوز بعض وزراء ، والآن علمه عندهم وعندكم وحدكم . في مساجد الثورة ، المعارضة كانت عاطفية ، وعلى مر الأيام ، أضحت موضوعية ، طبقية يدعمها الاستعمار والامبريالية ،

ويعمدها المجاهدون وبنوك الثورة .

هوه هوه . اعطوه . اعطوه .

هذا السائل الأحمر ، يبدو أنه دمي . كل شيء ينمحي ، كل الأصوات تخفت . أنـا أقع . ربما فعلت ذلك . . أاه ، كم أنا مسرور أيها الأب العظيم ، بوجودي في حضرتك . غير أن نور هيبتك القوي يبهرني !

« فيم جئت ، وما قصدك من زيارة هذه القلعة يا فايتون ، يا من لا يملك أبوك أن ينكر أبوتك ؟» .

أبي أيها الاله فوبيوس ، يامن يستمتع كل مافي الكون الفسيح بنورك ، وإذا كنت قد أجزت لي أن أناديك أبي ، وإذا كانت الثورة لاتكذبني ، ولا تخفي عني أسرار خطيئة ارتكبتها ، فلتقدم لي دليلاً على صدقها وبرهانها ، يثبت بنوتي ويبدد شكوكي .

« اقـترب مني ، انـك حقيق بأن تكون ابناً لي ، وقد صدقتك جبهة التحرير فيما حدثتك به عن نسبك ، وسوف أستجيب الى أي طلب لك كي أبدد شكوكك ، مشهداً على ذلك ، هذه البركة التي يقسم عندها الآلهة ، والتي لم يقع عليها بصري قط » .

هل أطلب المركبة بخيولها المجنحة الأقدام ، أم الشفاعة لبروموثيوس ، أم الاعتذار عن الكلام الذي عن لي ولم أقله ؟

« فيم تفكر ؟ هل تخال السماء ملأى بالغيضات المقدسة ومدن الآلهة والمحاريب تفيض ثراء ؟ ماأبعد ذلك عن الواقع يابني . أن عليك أن تشق طريقك وسط شراك خطرة ، وحيوانات مفترسة ، ولو قدر لك أن تنجح في البقاء على طريقك السوي دون أن تنحرف هنا أو هناك ، فسوف يكون عليك أن تتجنب قرني برج « الثور » الخطير وقوس برج « الرامي » وانياب « الأسد » الهائج ، وأذرعة « العقرب » التي قد تطبق عليك من ناحية ،

على حين تهددك أذرعة « السرطان » من ناحية أخرى » .

كم يوماً مضى علي هاهنا؟ من أتي بي ؟ ماهذه الضمادات التي تلف رأسي ؟ رائحـة فجـرية تعبق في الدار . فالس ينبعث من هنالك . من غرفتها ، من فعل بي كل هذا ؟ ما يهم ، ماجدوى معرفة ذلك ؟

كل مافي هذا الكـــون عرض لجوهـر . للعـاشق في حالـة عشقـه ، وللمعشوق في أوج كبريائه .

مانغالا لاتغنّي

لم يشتط المعشوق في أي طلب . ومن قال أن له طلباً ما . العاشق ، هو الـذي يتخـذ المبادرات ، ليؤكد صدق التجربة وصفاء النية وصدق العزيمة ، فيجر المعشوق الى ابداء رغبة ما ، ولو كانت مستحيلة . فتكون برهـانـاً ساطعـاً على الـرضـا التـام . وعلى الفناء الكلي ، يحمل الرجل السكينة ، ويبطح ابنه ، ويروح يحز رقبته ، تصديقاً لحلم ، تهزه البسمة عند الساقية ، فيهب عقداً من عمره يرعى الأغنام ثمناً لها تلكم البسمة ، تركب بالصـدفـة نغمةِ ناي ، فتعثر عليه ، وتظل هنالك ، تعزف لكي لاتفارقه . رصد غوص في العمق . التجربة من أولها .

التخلي عن ركوب السيارة الوظيفية ، وتسريح السائق واستعمال الحافلة العمـومية ، الـوقـوف في الصف الـطويل ، التـظاهـر باحترام الأعراف والقوانين ، تأتي الأولى ، ينهار جرف الرمل الذي نقف عليه ، ننحدر . نصعـد . ننحـدر . تنصرف الحـافلة ، لتجد نفسك من جديد في آخر الصف . تأتي الثانية . يبدأ كل شيء من الأول . مرة . مرات عديدة . يحتجـون . يتـظاهـرون بالاحتجـاج ، تطيب نفسـك لذلـك ، ترى المحتجين ، أول المتسابقين . تمتلىء في أعماقك ، ينهار الجرف . تستعمل منكبيك ، ذراعيك . كل مافيك ، تنطلق الحافلة ، فتجد نفسك ضمن من فيها .

الحي يروح .

بعد أيام تتحول العملية الى روتين ، الى صرعات جماعية يومية ، وإلى ادمان لاغنى عنه ، الى أحد اسرار المعرفة .

آلة عزف خصوصية جداً ، لدى كل واحد . ناي عند هذا . دربكة عند ذاك . عود من هنا ، رباب من هناك . دف في هذه اليد ، طبل ، في تلك ، وتنشأ جوقة وطنية ، لجذبة كبرى ، تتكرر أربع مرات في اليوم ، يسهم كل واحد فيها بآلته .

من يستطيع القول ، أن المعشوق أمر بذلك ، أو أنه طلب منك ؟

تأتي اليوم ، بلا ربطة العنق ، أو بلا سترة ، أو بهما معاً ، لكن بدون حذاء ، وبجوارب حمر ، نعم اللون الأحمر كان جزءاً صميمياً ، في التجربة : يغمرك العرق والغبار أو الماء والطين، تبدأ الحرارة، أو البرودة ، تنفذ من الأصابع ، ثم من المشط ، وتصعد الى الكعبين فالرسغين ، فالعرقوب ، وتسكن الجسم كله ، تزول الرؤية بالتدريج ، أو تسكن بصفة نهائية .

تأتي غداً ، حافياً تماماً ، خطوة على المشط ، خطوة على العقب ، خطوة على هذا الجنب ، خطوة على ذاك ، حصاة من هنا ، شظية زجاج ، وشلخة ، هناك . لسعة شوكة أو عود يابس ، من هنالك ، متر ، اثنان . أمتار . تصميم جلد . مكابرة ، اقتناع تام بالحلم ، ذوبان كامل في البسمة ، فناء نهائي ، في النغمة ، سكر . ودر ، عشق .

تلكم هي الحالة المراد تبليغها الى المعشوق ، أو التي على العاشق ، أن يبرهن عليها في كل تجربة اتصال وليتوقف أصحاب السيارات ، والشاحنات والدراجات ، في الطريق المزدوج ، عند الجسر الحوال ، ليسخروا ، ويهزأوا ، أو ليشفقوا ، ويتحسروا ، ماشاؤوا . يسأل بعض الزملاء والمعارف ، عما اذا كان في امكانهم ، تقديم خدمة ، أو مساعدة

ما ، منتظرين استشفاف بعض ما يدلهم على الحالة الصحية ، وعلى درجة خطورتها ، يكبرون ، ويحوقلون ، ثم يمضون آسفين ، مهزومين .

مهـزومـون نعم . ولتتكـرر هذه الكلمـة ، فقـد ظلوا يهتفـون أياماً عديدة ، مجنـون ، وظلوا أيامـاً عديدة ، يتفننون في الإيذاء وفي وسائله استعملوا الحجارة ، المهازيم الأبر ، وفي الأخير انهزموا .

تجمعـوا في الأخيـر ، تحت الجـدران ، والأشجـار الـظليلة يتندرون بالمجانين ، وحالاتهم ، حسب ماعرفه أو سمعه كل واحد منهم . حتى وصلوا الى الحالة الخاصة التي شهدها الحي ، هذه عدة أسابيع .

أجمعت الأغلبية ، على أنها جنون طبيعي ، يمس الفنانين العظماء ، وحضرة المستشار ، الرايس قبل أن يجعلوه مستشاراً ، لم تعرف بلادنا فناناً أعظم منه على الأطلاق ، بعضهم روى أنه شاهده في أحدب نوتردام ، كازيمـودو بالذات والصفات ، بعضهـم يذكر أنه شاهده مغربياً أسود ، بطرطور رمادي ، يخنق ديدمونة بوسادة حرير .

ـ كان اسمه « أصدق » في مسرحية لا أذكر عنوانها ، لكن أعرف جيداً أن أصـــدق كان قاضياً للشعب . رغم أنـــه أبله ، فإن الجميع رضـوا بحكمة ، في اعطاء الطفل الى الأم التي أرضعته الحنان ، بدل الأم التي أرضعته اللبن .

ـ في دارنا صورة . تملأ جدران غرفة كاملة .

ـ غرفة أختك .

ـ لا . غرفة أمك العاهرة .

نشبت معركة صغيرة ، سرعان ماحوصرت . ووضع حد لها ليستأنفوا درس حالة حيهم .

ـ المجانين في رؤوسهم الدود .

ـ لا . المجانين تسكنهم جان .

ـ بعض الجان مسلم ، وبعضه مسيحي . وبعضه يهودي .

ـ الجن اليهودي ، هو أخطر جان على ماقالت جدتي ، فهو ماكر ، وبالاضافة الى ذلك ، شرير ، لاينفع معه سوى الحرق .

ـ ومن أي دين تظنونه جن حضرة المستشار ؟

ـ مسلم .

ـ لا . مسيحي .

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ رأيت في داره الخمر .

ـ أمي تقول ، أن البنت السوداء فجرية ، هي التي به ، وقد قالت ان فجرية ، ليست من الأنس ، وانما ابنة جني أسود . وهي تركب روح حضرة المستشار ، وتسافر الى بلادها ثم تعود ..

استمع أخوها بتلذذ الى الحكاية ، وعندما انتهت تماماً ، انتبه الى أن من واجبه أن يحتج .

ـ لقد اتفقنا ان ندع أخواتنا وأمهاتنا . حيث هن

ـ انه لم يقل كلاماً يسيء الى فجرية .

ـ تهزأون منا لأننا فقراء .

ـ لاأحد هزأ منك ، أو من فجرية ، أو قال انكم . تعيشون بنقود حضرة المستشار .

ـ لو كانت فجرية ، جنية ، لما اضطرت الى الشغل ، كي تعيلهم ، ولكان بامكانها أن تغرقهم في الذهب .

ـ أبي يقول انه مسكون بجن روسي أحمر .

ـ أبوك يكرهه لأنه لايصلي عنده في الجامع .

ـ أنا قالت لي فجرية ، انه مسكون بالكهرباء ، نعم سألتها فقالت انه مكهرب ، وعندما قلت لها لماذا ، قالت لأنه عبقري .

ـ مامعنى عبقري ؟

ـ مكهرب .

ـ قدم كبيرهم . اقتراحاً عملياً :

ـ المهم ، حضرته ، ليس مجنوناً . إنه على اتصال ما ، بملكوت الفن ، بواسطة عمود الهاتف،لماذا لا نفعل مثله . إنه يصغي ، فلنحاول بدورنا الاصغاء فقد يسمع أحدنا بعض ما يصله .

راقتهم الفكرة جداً . ابتهجوا لها ، أيما ابتهاج ، وسرعان ما قرروا تنفيذها .

انتشروا على مسافة بضعة أميال ، يقفون ، عند الأعمدة ، في سكينة ووقار . بعضهم يمد ذراعيه ، فيبدو كأنه مصلوب ، مع العمود ، أو جمع يديه على صدره ، فكأنما هو يصلي . بعضهم حاف . بعضهم انتزع سترته ، بعضهم انتزاع سرواله . لقد اتفقوا على أن يتبع كل واحد منهم الحالة التي يذكر أنه رآى حضرة المستشار عليها ، وأن يعيدوا ما أمكن من الأوضاع التي اتخذها أو يتخذها .

تناقلت السيارات العابرة . الخبر ، فاندفع أطفال الأحياء القريبة ، يتراكضون ، ويتخذون أماكنهم حول الأعمدة الهاتفية ، ونظراً لقلة الأعمدة بالنسبة إلى عدد الأطفال ، فقد راحوا كما قالوا ، يردفون بعضهم البعض ، فيتجمع ثلاثة أو أربعة أمام عمود واحد ، ويتخذون وضعية واحدة ، يشترط الأول على من يردفه أن لا يخالفه في الوضعية ، فيمتثل هذا شاكراً صاغراً .

بدأت حركة المرور ، تعرف مصاعب في المنطقة ، الأمر الذي تسبب

في عدة حوادث ، تسببت بدورها في تواجد عدد لا حصر له من سيارات الشرطة ، بمختلف ألوانها وأشكالها ، وهيئاتها . وجعل أجهزتها اللاسلكية ، تنشط مرسلة للمعلومات ومتلقية للأوامر .

كان أول تقرير شبه مفصل ، من سيارة مدنية ، يركبها شخص ، يبدو أنه على جانب كبير من الأهمية والخطورة ، والتعقل مع ذلك :

« من العين الزرقاء . إلى النبع الصافي . الأمر لا يتعلق بمظاهرة سياسية البتة ، ولا حتى بحركة احتجاج . ضعوا هذا في الحساب حتى لا يحصل ارتكاب أي خطأ . لحسن الحظ ، أن عيوننا في الوزارة وافتنا ، في الوقت اللازم بالتقارير . وإن لم نحللها قبل اليوم ، فذلك ، لأننا ، كنا بصدد ، جمع الحد الأقصى من المعطيات . موظف سام ، تبدر منه ، تصرفات ، لا ندري أهي مرضية ، أم اعتزالية . ينبغي الاحتفاظ بهذا الاصطلاح الأخير ، فقد استعمله تقرير مخبر أصدقائنا ببروكسيل ، وقد نخصص له ملفاً نجمع فيه حالات أخرى . . نعم . شيوعي سابق ، من ذلكم العهد . يطلق عليه بعضهم ، نعت الغراب الأحمر . أقيل من ادارة المسرح الوطني ، بتدخل من مصالح غير تابعة لنا ، وفي ظروف جد خاصة ، الأمر الذي اضطرنا للتدخل والسيطرة على الوضع . ماضيه الثوري ، ومكانته المرموقة ، مكنتنا من تعيينه مستشاراً بالوزارة . ليس هناك شبهات حوله . رغم أننا منزعجون للرسائل التي يتلقاها أسبوعياً من موسكو . رسائل غرامية ، في ظاهرها ، لكن المخابر العالمية كلها ، تجمع على أنه لا يمكن أن تكون مثل هذه الرسائل ، بريئة . ولقد طمأننا وطمأن أصدقاءنا ببروكسيل ، تأكدنا العيني ، من أنه لا يفتح هذه الرسائل ، ويكتفي بوضعها في صندوق خاص . بغرفة خاصة . وسيكون موضوع هذه الغرفة محل تقرير لاحق . غير متزوج لكنه يعيش مع فتاة سوداء ،

تقول أنها تخدمه . كل ما عندنا ، ضدها ، أنها حامل منذ ثلاثة أشهر ، وأنها تهتم بالمسرح . الخبراء يقولون ، أن هذا أمر طبيعي . آلمته ضرسة العقل . تركها تتعفن سنة كاملة ، ثم اقتلع كل أسنانه ، واصطنع فماً في سويسرة . التحق بخلايا جبهة التحرير منذ ثلاث سنوات ، ويواضب على حضور الاجتماعات ، وإن كان عديم المشاركة في النقاش . عرف ، هذه مدة ، حالة غريبة حيرتنا ، فقد قرر أن يحتفل بالمولد النبوي الشريف . حيرتنا لأنها تحدث لأول مرة . نعم . اشترى علبة شمع ثمين ، وضعها في غرف الفيلة السبع وفي الحديقة ، رغم أن الريح كانت تهب شبه قوية . اتصل أصدقاؤنا بأقمارهم الصناعية ، ورصدوا المنطقة ، فكانت لهم شكوك ، في أن جسماً غريباً ، يتواجد مقابلاً للمنطقة ما إن انطفأت الشموع ، حتى اختفى . لقد كدنا ننساه . ونهمل ملفه ، لولا التقارير التي وصلتنا ، والحالة الاعتزالية التي نرصدها بدقة . انتهى التقرير . حول » .

« من مخبر بروكسيل إلى أصدقائنا بالجزائر . كبار العلماء ، في واشنطن ، يشيرون إلى احتمال عصيان مدني ، من نوع جديد . فكري أو خلقي ، أو ثقافي أو ما شابه ذلك . لقد حدث بعض ما يشبهه في الولايات المتحدة ، أثناء المحاكمات المكارثية ، التي شملت ضمن من شملت رجل مسرح ، يدعى بريخت . عندما ننتهي من دراسة الموضوع ، نوافيكم بالتقرير النهائي » .

« من موسكو إلى الأصدقاء الجزائريين ، علماؤنا ، يطمئنونكم ، إلى أن الحالة ، ليست مرضاً ماوياً ، ولا تروتسكيا . صحيح أن أقمارنا ، سجلت إشارات لاسلكية غريبة موجهة من الفضاءات الخارجية ، نحو عاصمتكم ، وتوتراً مغناطيسياً في المنطقة ، يشبه الحالات التي تسبق

الزلازل . لكن لا شيء حتى الآن ، يثير المخاوف . سنتصل بكم مرات أخرى اطمئنوا لتضامننا معكم » .

« من باريس إلى مونيك ، اتركي المركز الثقافي ، والتحقي بالقصبة . السر هنالك ، وليس في الطريق المزدوج . نريد تقريراً مفصلاً عن علاقة صالح وعليوات بفجرية» .

« من كوبا إلى أصدقائنا أرسلوا ميليشيا إلى الموقع واجعلوا الأغلبية لصالحكم ينبغي اخماد النار من الأسفل »

«من بوركينا فاصو إلى أخواننا. نحن نتألم كثيراً لما يحدث عندكم. وتعبيراً عن تضامننا الأخوي . يصلكم بعد حين أكبر سحرتنا ، مع فريق من معاونيه . سيسيطرون على الوضع بحول الله » .

« من مدير الأمن الوطني ، إلى الساعد الأيمن . اينك الآن . . ؟ أنا في العمود المحاذي له . يحيط بي ثلاثة أطفال ، يلازمون الصمت ، ويأمرونني بذلك ، مهددين بطردي من عمودهم ، كما يقولون . . صف الحالة لنا . . السيارات والشاحنات ، تعبر الطريق ببطء ، رغم أوامر رجالنا ، الحافة اليمنى للطريق ، انطلاقاً من بن عكنون ، تبدو سوداء ، وكأنها هي خط نمل ، صاحبنا ، غير مسرول تماماً تماماً . لكن السترة والقميص ، يستران عورته . ذراعاه ممدودتان ، وأصابعه منفرجة . حتى أنه ليتهيأ لي أنه يشد خيوط الهاتف . لست أدري من أين يستمد كل هذه القدرة ، للاحتفاظ بهذا الوضع الصعب . أقترح التدخل لتفريق الجميع . . ماذا تقول . . ؟ انتظر . هناك جديد . أفواج جديدة ، تلتحق بنا . يبدو أنهم منهم . أكتافهم عريضة ، وخصورهم ضامرة ، وشعورهم حليقة » .

« إلى جميع الوحدات ، انطلقوا في عملية التفريق ، نريد الرأس

حياً » .

« هنا الرئاسة ، جنابه في أشد انزعاج ، وغضب هل نحن بالتشيلي ، دعـوا المثقفين وشأنهم ، لانريد أي ضجيج ، يبلغ وكالات الأنباء ، أو مسامع صندوق النقد الدولي ، أتسمعون ؟ لقد كنا ننفذ أوامركم ، لكن الأوامر تغيرت . سمعاً وطاعة».

«إلى جميع السيارات، الأمر الأول ملغى، عودوا إلى أماكنكم».

ما أن بدأت الساعة الثالثة تقترب ، حتى شرع الأطفال في التسلل ، واحـداً إثـر الآخر ، عائدين الى بيوتهم ، وأحيائهم ، فاضطر قائد فرقة التـدخل الخاصة ، التي يتوزع أفرادها ، على كامل الطريق ، ليشكلوا الأغلبية ، الى أن يسأل قيادته ، عما ينبغي فعله ، فالوضع محرج الى حد كبير ، وقد صرنا نلفت الانتباه .

ـ تسللوا بدوركم .

تفرد العاشق بالمعشوق من جديد ، وتفرد بهما الطريق المزدوج ، وبقيا محل تركيز النظارات المقربة من كل نوع ، ومن كل مكان .

مايزال مصلوبـاً ، عنـد الجسر الحـوال ، انفعـالات ، وتعابير وجهه متناقضة تمام التناقض ، ينشرح ينقبض ، يبتسم ، يعبس ينبسط يتكدر ، كل ذلك يتم بسرعة خارقة وكأنما هو يتابع مشاهد فيلم وستيرن ، أو رسوم متحركة ، لا ينقطع .

انه ، مهما كان الأمر ، في ذروة اللامبالاة ، والطمأنينة .

الحياة ، عمـومـاً ، في المنـطقـة ، عادت الى حالتها الطبيعية ، بعد انصراف الأطفال ، ذهاب ، إياب ، صعود ، نزول كل شيء نسبي ، وحسب موقع المرء ، إلا أنه ، ومن موقع حضرته ، صعود ونزول وذهاب وإياب ، السرعة تتعالى ، والعجلة ، هي شعار كل من يقصد الطريق

المزدوج ، وهي كل ما يحسنه الناس في هذا البلد ، وكأنما هم يهربون ، من ثعبان يطاردهم ، من الخلف .

المطر الذي ، بدأ رذاذاً ، منذ لحظات والذي أخذ يسح كلما تواصل ، يمنع من الرؤية الجانبية ، ويجعل كل شيء في هذه اللحظات يتقوقع على نفسه ، حتى الهيليكوبتر العسكرية ، التي ترف كالفراشة ، حول المنطقة ، فقدت ألقها وظلها ، فلم تعد تثير الانتباه ، وهاهم الأطفال ، يحتمون تحت أشجار الصنوبر العالية ، الكثيفة الموازية لفيلات الحي ، المتشابهة كلها ، في معماريتها ، وفي ألوان طلائها .

ـ اللغة المستعملة كانت انقليزية ، لذا لم أفهم مما كان يقال ، سوى أوكي ، وياس .

ـ أنا فهمت كل شيء ، الجن لايستعملون إلا الفرنسية بعض كلمات كانت بالبربرية .

ـ أنا لم أسمع أي كلام ، فقط كنت أحس ، في الأول أظلمت الدنيا ، لشد مافتحت عيني ، فلم أبصر شيئاً ، ثم وبالتدريج ، وجدت نفسي ، كما لو أنني في مسرح ، من هناك ، حيث يمثلون وليس من حيث نتفرج ، حاولت استشفاف شيء ، فلم أفلح ، كان النور طاغياً باهراً ، كنت ملكاً ، على رأسي تاج وعلى كتفي برنس مطرز بالذهب والحرير . ظللت كذلك ، حتى انغلقت أبواب المسرح ، فوجدتني أمام منزلنا ، أكاد أموت جوعاً ، لاشك أن جنا ماعاد بي بمثل هذه السرعة .

ـ أنا لم أسمع سوى قراءة القرآن ، كانت أصوات كثيرة ، وعديدة رجالية ونسائية ، ترتل « عبس وتولى . . » ما أن تنتهي منها حتى تعيدها ، حتى حفظتها ليغلبني النوم بعد ذلك ، أستطيع أن أسردها عليكم : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى . . » .

ـ كفى . . كفى .

ـ أنا لم أسمع سوى صوت المرحومة أمي . كانت تخاطبني طول النهار ، بجملة واحدة .

ـ ماهي ؟

ـ ماذا كانت تقول لك ؟

ـ لن تراني في الجنة إذا لم تقتل اباك .

ـ فقط .

ـ فقط .

ـ لو كنت مكانك لفعلت .

ـ الليلة أقتله .

ـ تكذب .

ـ سترى .

ـ ليت أمي ماتت لتأمرني بذلك .

ـ أقول لكم الصح . جميعكم تكذبون . ليس هناك سوى صوت الريح . ريح كبيرة . هوجاء ، مع طقطقة أصوات ، كأنها لأخشاب أو أشجار تحترق ، صحيح أنه كانت هناك أصوات كأنها لآدميين ، تشبه استغاثات وأنات ، ومواويل حزينة لكنها كلها ، وأنا متأكد من ذلك ، لم تكن إلا أصوات الريح .

ـ أنت كنت في جهنم . هذه سرقات الحلوى من متجر « حموش » .

ـ أنت من يذهب الى جهنم ، أنسيت أنك تحك زنانتك على كف يدك ، مستعملاً الماء والصابون ، وأن فجرية ، قبلتك مرة بين شفتيك .

ـ رضعت لساني .

ـ هاها .

ـ كذاب .

ـ دعوا الأمهات والأخوات في المنازل ، ألم نتفق على هذا ؟

ـ هو الذي بدأ .

ـ لا أنت . هو الذي كذب على فجرية .

ـ لم أكذب .

ـ اسمعوا . أنتم كلكم مخطئون ، الصحيح عندي ، لم يكن هناك سوى « مانغالا » تغني طوال الوقت ، يتهيأ لي أنها كانت جريحة ، يسكن قلبها خنجر أو سهم ، وهي تناديني : بقبلة منك ، حتى ببسمة ، حتى بنظرة ، أقهر الموت وأشفى .

ـ لعلها نسرين ، ابنة جاركم ، هي التي كانت تغني .

ـ لم لا تكون أمك ياعطاي .

ـ وما الذي أغضبك أنت ؟

ـ البنات مثل الأولاد ، ولنا كلنا أخوات ، الأطفال يحبون بعضهم ، ثم أنه لابد لكل واحد أن يختار زوجته من الآن .

ـ ونسرين لماذا لم تتزوج ؟ ألأن حموش ، ضحك عليها ، وأسكن في بطنها جنيناً ، بعد أن بعجها ؟

ـ رب ربك ، ياولد الهولندية ، سأقول للجميع ، ماقلته لي من أن المزابي ، بعجك بعشرة دورو ، وعلبة شوكولاته .

ـ والله العظيم ، لن تفلت مني هذا المساء ، سأريك أمي الهولاندية ، يابن المجرابة .

ـ دعوكم من المهاترات . كم مرة رددتم هذا الكلام وهذه التهم ، مللنا . أليس لديكم ، جديد ، تقولونه ، حموش المزابي فجرية ، نسرين ، هذه حكايات عرفناها ، ولم تعد تثيرنا .

ـ انتبهوا جيداً ، أحك لكم ، ماكان يقوله عمودي أنا .

ـ أششت . انتباه ، ياأولاد حمود لم يتعود المبالغة أو الكذب .

ـ كان الحديث ، كأنما يجري بين شخصين ، أحدهما فوق وثانيهما في الأسفل ، وقد كان صوته يشبه صوت حضرة المستشار ، الذي فوق يقول اغطس ، أريد مزيداً من الاسفنج ، والذي تحت ، يقول تعبت ، تعبت ، رئتي تكاد تنفجر ، أقول لك أغطس مرة أخرى . أقول لك دمي يمتلىء وذراعي الأيمن أحس به يشل ، هذه آخر غطسه ، هذه وننصرف ساد الصمت مدة طويلة ، ثم راح الذي في الفوق ، يسأل لماذا لاتسحب الحبل ، أصعد ، قلت لك أصعد ، فجاءته أصوات أخرى ، صعدت من تحت . لقد مات .

ـ مسكين .

ـ بأية لغة كانوا يتحدثون ؟

ـ لا أدري أنا فهمت ماكانوا يقولون ، وهذا كل ما في الأمر .

ـ هذا حلم ، وليس شيئاً آخر .

ـ ومانغالا التي كانت ترجوك أن تقبلها ، ألم تكن كذباً .

ـ ماذا لو نسأل الرايس شخصياً ؟ لن يبخل عنا بالحقيقة .

ـ الكبار لهم لغة خاصة .

ـ من قال انه يسمع ، لعله ، كان يتدفأ لاغير بالكهرباء ، كما قالت فجرية .

ـ في رأيي أنه بصفته فناناً عبقرياً ، كان يشحن مخه بالعبقرية . مثلما يشحن أبي كل ليلة بطارية سيارته بالكهرباء .

ـ مع ذلك لابد من سؤاله .

ـ لا ضرورة لذلك ، أنا أقول لكم بالضبط ماكان يسمع . كان

الصوت الذي يأتيه ، لايقول سوى عبارة واحدة ، أنت طيب أنت طيب .

ـ كيف تمكنت من سماع ذلـك ، وأنت في العمود الثالث بينما أنا في العمود المحاذي له مباشرة .

ـ كل عمود كانت له أحاديثه ، ولغته ، وأصواته ولهذا سمعنا جميعاً .

ـ تفرقوا ، متسللين كما تجمعوا ، وشمل الهدوء الحي الصغير ، مثلما شمل الطريق المزدوج وأفسح المجال لحضرة المستشار ليواصل شد الأسلاك الهاتفية ، كل سلك ، في أصبع من أصابع يديه الممدوتين ، منذ الصباح الباكر .

وثق فيه المعشوق ، وأبدى له رغبته . . حدثه للمرة الأولى . لم يقل كلاماً كثيراً ، ابتسم طويلاً ، وهو يتأمل الجوارب الحمر ، ثم عبر عن رغبته .

آن الحلول .

لم يضف شيئاً آخر ، ماجدوى ذلك ، اذا كان العاشق هو المعشوق ، وكانت الرغبة واحدة ، لماذا التساؤل عن صحة الحلم ، أو صدق الابتسامة أو شفافية النغم ؟

ـ لقد اتضح أنه سيتغيب لأمر ما ، وأن الحياة بدونه تنقطع ، وأنه لابد من التواصل ، لابد لذلك من بقاء أحد الجزئين بالمكان .

ـ زال العالم الآخر ، الداخلي . صوتاً وصورة ، ظاهراً وباطناً انمحى ، واستوى التلاحم ، العالم الخارجي ، هو وحده المتميز اليوم .

بوسطن هنا كاليفورنيا لابد من تجميد الدولار اليوم . لا تحويل لليابان ، باريس ولندن والعواصم الغربية لا تتحرك اليوم ، إلا بالتليكسات . الدب الأحمر ، يقع في الفخ الأخضر ، احكموا خناقه ،

هنـا حيدر آبـاد ، علماء معهد العلوم الزراعية ، تمكنوا من التوصل الى اضـافـة سبع كالورات ، الى حبة القمح ، بلغوا الامم المتحدة ذلك ، يانيودلهي ، هنا باريس ، أما تزالون في الجزائر ، نائمين ، مافتئت أطلبكم التـوقيت ليس واحداً ، ولكن انها الثامنة ، وعندنا السابعة فقط ، ماذا تريد ؟ كيف حال الجزائر ؟ والله كما تعرفها . كيف تريدني أن أعرفها من خلال الهاتف ؟ أنني لم أرها منذ عشرين سنة . أحسن . ماذا تقول ؟ بخير والحمـد لله.وهـل الطقس جيد . الشمس ساطعة . عندنا الثلج ، بلغ عشرين متراً ، هل تريد شيئاً معيناً ، أم مجرد سؤال ؟ أريد أن أخبركم عن حميد ابنكم ، أهـو قادم ؟ لا البركة فيكم ، والبقية في رؤوسكم . ماذا تقول ؟ لاشيء عندما خرج البارحة من « البار » كنا معاً . هاجمتنا سيارة وأطلقت النار .

أصيب في رأسه . فمات على الفور . كانت ميتته رائعة ، لم يتألم ، ولم يتعذب ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . سأحاول أن أكون هناك اليوم ، لأي مستشفى نقلوه ، آه . . كف عني تعال وسنرى ، أرسل لي برقية بذلك ، حتى يتسنى لي استخراج رخصة الخروج . ها . . الجزائر ، أريد المدير . الساعة التاسعة . . الصباح رباح . افتحي عينيك ، انها الحادية عشر وليس التاسعة . . سيان عندنا . اسمعي . . قولي له أن غنية تلفنت من باريس ، وهي الآن مع واحد ممن يخيفون ويرعبون . أما أن يعترف بابنه ، ويتزوجني ، واما أن يستعد لخراب بيته . . فاقوا . . قولي له ، فاقوا . . يعبث ببنات الرجال ثم يصطحبهن إلى باريس ، ويهرب عنهن ، دخـول الحـمام ، ليس مثـل خروجه ، ترن . . أحوال الطقس رديئـة . في أوروبا ، وسينعكس الوضع علينا.الرئاسة . نعم الرئاسة . أريد موعداً مع سيادته ، خير أن شاء الله . خير،فيم تريد سيادته ، أريد

أن يساعدني ، على دخول التلفزيون ، كمذيع ، أنت مسجل في القائمة ، لكن لم أعطكم اسمي بعد ، ترنن . بيروت ، نعم بيروت . محمود من باريس ، الخط مشوش ، لا أسمعكم جيداً ، الوحدة العربية ينبغي أن تتحقق أولاً هنا ، على ضفتي السين.ماشاء الله ، كل ضحاياها من الأقصى الى الأقصى .

هنا.سلامتكم في باريس ، سلامتكم في بيروت ، وأخبار البورصة الوحدة العربية ، لايمكن أن تتحقق إلا في باريس ، ترن ، أغمضي عينيك ، وأفتحي أذنيك ، أذني فقط ، وقلبك وروحك،فقط ، لا . أيها الخبيث ، ماذا تعني ؟ سيداتي سادتي . أعلنت الساعة تمام التاسعة ، وهذا موعد برنامجكم اليومي ، ما يطلبه المستمعون . فأهلاً بكم معي من الآن حتى السادسة ، موعد ركن فلسطين ، سنستهل تلبية رغباتكم ، بقارئة الفنجان من أداء نزار قباني ، نظم عبد الحليم حافظ. طلبتها الآنسة . . كيف عرفت أنها أغنيتي المحبوبة ؟ لا والله . لم أعرف شيئاً ، انها قمرت ، قلت حظي وحظها ، ان أعجبتها شربن من العين . وأن لم تعجبني « الشرع يحكم على ثلاثة » حظك ليس سيئاً على كل حال . . كما طلبها السيد ب . . ويهديها الى زوج أمه ، وإلى صديقته ك . . قد أشرب من العين إذن ؟ مفقود ياولدي مفقود . ألا تعرف الأغنية ، وسلوى من الحراش تهديها الى فرقة الدرك الوطني . أغلق مذياعك . ماتزال نوال تخطب ، كيف نمت البارحة ؟ مستلقية على ظهري ، في قميص نوم أحمر ، وفي سرير عريض . . كفى . كفى . ترن . الخط انقطع . حسناً فعل . موسكو . الجزائر ، لسبب ماألغت مشروع معمل الاليمينيوم بالمسيلة . من المخطط الخماسي ، تعليلات غير مبررة ، لا ، فالبلد يستودر كل احتياجاته الخشبية من الخارج . البحث جار . وسنحاول . استشفاف

الحقيقة كاملة . ماعدا ذلك ، العلاقات في إطارها العام نشيطة ، القوى المعرقلة تتراجع بانتظام ، مكتب الجبهة ، أي نعم ، مكتب الجبهة ، أبو بسام ، يسأل عن أبو بسام ، أم بسام ذهبت الى الحمام اليوم ، حول . حول . الدال يبحث عن الياء ، والياء تتوق الى الباقي . . حول . الرب واحد ، الطريق فلسطين ، حول . حول ، اليعلول ، متواصل ، والتحامل متحامل ، حول حول . أبو بسام حول . ام بسام تخرج من الحمام في نقاله . حول . ترن ترن ، أبو هرمسة ، أبو هرمسة ، الطبيب يكشف عن المريض ، حول ، المريض يموت ، إن شاء الله يموت ، الشمس مشرقة أعيد . عم يتساءلون عن النبا العظيم « بكره يطلع النهار ، ياخال ، وتبقى الدنيا عال » حول . تبقى الدنيا عال . حول . اليعسوب يعود . حول . يعود . تزبب قبل أن يتعنب ، حول . ترن.مدير الشركة الوطنية للآلات الدقيقة ، نعم هو بعينه في الخط ، لا تقطع ، الحضرات معكم ، سبع ثلاجات من ذوات البابين ، سبعة أجهزة ملونة ، بال سيكام ، ذات النظامين ، الأوروبي والفرنسي ، هل هناك جديد آخر ، يكون حضرات يكون طلباتكم ، هل سمعتم بأحدث فيديو بنظام أمريكي ، قراءة ، وتسجيلاً ؟ أنا شخصياً لا . أريد واحداً أو اثنين ، يكون حضرات. مع الكاميرا، يكون حضرات، كنت من مدة أفكر في الاتصال بحضراتكم ، الملف النقابي ، كما تعرف ، آه ، لقد درسته ، ساضع حداً لنشاط شيطانكم الأحمر ، هو رأس الفتنة ، شكراً حضرات ، أرسل السائق غداً ، أي غد ، يارجل ؟ الآن ، أمركم حضرات ، الآن . ترن . نعم الوزير نفسه ، أرغب في موعد عاجل ، مع سيادته ، كل الوزراء ، يطلبون اليوم موعداً عاجلاً مع سيادته ، ماذا هناك ؟ انتظر . أنا في الخط . ماهو الموضوع ؟ أمن الدولة . قل لسيادته ،

الأمر يتعلق بأمن الدولة ، فهمت ، كيف ذلك ؟ لقد قالوا كلهم نفس الكلام . السبت القادم ، على السابعة مساء ، معقول ؟ لكن الأمر عاجل ؟ لو لم يكن عاجلاً ، لقلت لك ، الشهر القادم أو الذي بعده . أهذا هو الحد الأدنى ؟ الأدنى ! والأقصى ، حسب ماتريد ، وقد ضبطه سيادته بنفسه ، سيادته . نعم ، ولقد كان في انتظار هذا الطلب الذي ، تأخر بعض الشيء ، ترن . كما تهديها الى خطيبها في الخدمة الوطنية ، والى جميع شباب الخدمة الوطنية ، وكذلك إلى جارها ، عين قاف ، وإلى كافة عمال الاذاعة الوطنية ، وبالأخص ، نوال ، شكراً لك ، على هذه العواطف . الرخصة في يدي ، والعملية في الجيب ، فلم الخوف والتردد ؟ موافقة وزير التجارة تمت. تأشيرة وزارة المالية تمت، وكل شيء تم. أعرف أن «الشركة مافيها بركة» كما قال الأجداد، لذا أعرض عليك، التنازل الكامل، أسمع مائتا بقرة، معناها مليار سنتيم، أتعرف هذا، أعرف، لكن ينبغي أن مائتا بقرة ، معناها مليار سنتيم ، أتعرف هذا ، أعرف ، لكن ينبغي أن لانبالغ كثيراً ، فهناك دائماً الرياح المعاكسة ، فقط أطلب مائة ، لا . هذه مبالغة غير معقولة ، صداقة الوزراء ، في النظام الاشتراكي ياحبيبي تعني ماتعني ، ماذا تسوى المائة مليون اليوم ، من قسنطينة الى الجزائر ، لولا مزعجات الليالي ، لما ترك القطا طيب المنام ، كم أفقست ؟ لا شيء . الحمد لله ، كيف تم ذلك ؟ حذام تقول لكم ، غداً كل شيء ، اليرابيع تغادر أوكارها والشموع مضاءة في معمل الحجار للحديد والصلب ، الوضوح خمسة على خمسة ، والعقبة التي كانت على الذئب ، صارت على السلوقي ، الطاء طالع واللام لامع ، والياء والعين في عناق . طلع البدر علينا من ثنايا الوداع . . ترننن ، الله أكبر الله أكبر ، أذن المؤذن سيداتي سادتي ، لصلاة العصر ، فتقبل الله صلاتكم ، نستأنف حصتنا بالاستماع

الى فريد الأطرش ، في أغنيته الرائعة حليوة ياحليوة طلبها من الجزائر . « كلاب الدوار لاتنبح في السوق » كلكم . كلاب دوار . كمشة من الحمر ، تنغص حياة الثورة ، تصرف ، وإلا فأنت مطرود من الحزب ، ترن . كما طلب أغنية « يا الخاتم نشريك » كل من . . هل تعجبك الأغنية ؟ أنا ؟ نعم أنت . ومن يشتري ، لي الخاتم ؟ أطلبي ربنا أن يحظى طلبي بالقبول ، فيعطوني سكناً ، في الدفعة القادمة ، وسترين . « دبر رأسك » لو أن المسألة بيدي ، لانتظرتك ، العمر كله ، لكن أمي حلفت أن تزوجني من أول خاطب « يا الخاتم يا الخاتم نهديك » .

ظلت الأسلاك ، تأخذ وتعطي ، وظل حضرة المستشار في حالة توحد تام ، وتفرد خالص ، من السابعة الى السابعة ، بالتوقيت الأرضي الظاهري ، فقد كان الزمان اليوم ، لايعني سوى المدة التي يستغرقها الصقر المجنح في أكل المخ ، والمدة التي تستغرقها إرادة زيوس ، في إعادة المخ الى الرأس ، ولحظة تقرير أصدق ، القاضي الأبله في دائرة الطباشير القوقازية ، مصدر الأمومة الحقيقي ، أهو الدم أم الحليب ، أهو الحق ، أم العشق .

عاد جذلاً ، يحاول أداء بعض الألحان على الوجه الصحيح ، غير مبال بالماء الذي يقطر من كامل جسمه ، ولا بتجمد بعض أطرافه .

من الآن فصاعداً ، لاخشية من صد المعشوق ، أو هجرانه . العاشق معشوق ، والمعشوق عاشق ، والجبة ليس فيها شيء اطلاقاً ، ولتتواصل الحياة ، في نسقها العادي ، مالله لله ، ومالقيصر لقيصر . أتلفن الليلة للسائق ، فعلي أن أنزل غداً الى المكتب .

آه . ماأجمل وصال المحبوب . ماأسعد الإنسان ، في حالة العشق الحقيقي ، ماأروع التجربة .

صدر اولغا الرحب

عرف مساحة الزمان وحجم المكان ، تذوق الخطوات حافياً،استشعر أنامل الريح الشمالية الباردة ، تمر في لحظة واحدة على كل ذرة في النصف السفلي من جسمه ، وفي وجهه.طعمها في مسام جلده ، مياه المطر الصافية المشبعة به ثيابه السترة السوداء ، القميص الحريري الأبيض ، ربطة العنق الحمراء ، مريول القطن الداخلي .

أحست العظام بأن للطقس ، لكل جزء من المليميتر في الفضاء وفي الهواء ، لكل لسعة من لسعاته طعماً ومذاقاً يختلف عن الآخر ، لكن يضيف الى شفرة الخنجر الذي يحز في القلب حدة وإلى الأمل الذي يراود الروح في زوال كل ذلك لذة ونشوة .

احتاط لقطع خطي الطريق المزدوج ، لم يلتفت يميناً أو شمالاً ، لكن تحسس بسمعه النسمات المارة ، فعلم أن أقرب سيارة ، تبعد عنه بحوالي كيلومتر، وفي ذلك مايكفي من الوقت . لقد اكتسب خبرة في ركوب الموجات ، وأصبح فارساً بارعاً ، نزل الى أسفل وصعد الى أعلى ، ليجد نفسه في الدرب الدغلاء . يواصل الصعود ، متشبثاً بالأغصان ، ثم في الطريق الملتوي الضيق الموازي للمزدوج ، والذي خلفه هذا الأخير، يقطعه أيضاً يعرج يميناً ثم مباشرة شمالاً ، يسير تحت أشجار الصنوبر محني الرأس لايهتم بصف الفيلات الصغيرة المتصاقبة ويمن يمكن أن يكون

يراقبه ، ثم هو أمام باب المنزل ، تذهب يده الى جيبه ، تتحسس الأشياء المبتلة ، تخرج رزمة المفاتيح ، تقوم السبابة بجولة ، تتعرف على المفتاح اللازم ، يعضدها الأبهم ، يدور المفتاح ، يرتاح القلب ، عندما يتجاوب الباب لدفعة صغيرة من القدم الحافية . قام البصر ، رغم الظلمة بمسحة للحديقة ، لاشجار البرتقال والليمون ، ولأشجار الورد والياسمين . . لن تتطلب سقياً ، لمدة أسبوع آخر ، تابع حركة يده أثناء امتدادها بالمفتاح الى الباب الخشبي ، ثم إلى أزرار النور ، أولاً فأول ، استوعب كما ينبغي جرس الباب المدخلي ، لم يزعجه الجرس ، بل على عكس ذلك ، شعر بنوع من الراحة . وكأنما كان ينتظره ، لم يفكر في أحد ، لكن وهذا مجرد احتمال ، ربما شعر ويده تمتد الى أزرار النور ، بخلو الدار من فجرية .

انفتح باب المدخل الحديدي ، جاءه بطبق يغطيه منديل وردي ، مر مباشرة الى قاعة الأكل ، وضعه فوق السفرة ، وخرج راضياً .

ـ تسلم عليك فجرية ، وتقول انها مريضة الليلة . ,

ـ سلم عليها ، يكفي أنها مرت في النهار ، ورتبت أوضاع المنزل . لست أدري مايكون وضعي بدون فجرية ، أشكرها كيف حال أمك ؟

ـ تتعافى يوماً وتنكس يوماً آخر .

ـ وأخبار أبيك .

ـ كل عام يقول هذا العام . لكن لم يروح . هربت البرتغالية ، بعد أن تركت له خمسة غرق معهم ، أرسل إلي تذكرة طائرة ، فجرية تقول أذهب لزيارته ، لكن أمي تقول لعنة الله عليه وعلى بلجيكا .

ـ تصبح على خير أريد أن أستحم .

ـ لكن أسمح لي أن أ.. ألك .

ـ خيراً إن شاء الله .

ـ كل أولاد «الحومة» كلفوني أن أسألك .

ـ تفضل .

ـ ماذا كنت تسمع ؟ أصحيح أن مانغالا كانت تغني ؟

ـ سلم على أمك وعلى فجرية . أنا بردان . تصبح على خير .

عمر الماء الساخن . استحم بتأن وتمهل ، حتى أنه أغفى أكثر من مرة . ارتدى منامة القطن المكوية بيد فجرية ، حديثاً ، على ما يبدو . تعشى ، غسل أسنانه ، بالفرشاة والمعجون ، على غير عادته في الليل . أشعل سيغارا كوبياً سميكاً ، واتخذ القرار .

« أسهر في غرفتها الليلة . عندها . معها . أولغا . أولا الحبيبة » .

عندما زارت فرقة الثورة الفنية في الخمسينات ، الاتحاد السوفياتي ، كانت أولغا مرافقته الشخصية . من اللحظة الأولى حددت له أنها ليست مترجمة بالمعنى العادي ، وإنما مرافقة تقوم لأول مرة في حياتها بهذا العمل ، إكراماً للثورة الجزائرية ، وتشريفاً لحضرة مديرها ، الممثل العالمي الذي برهن على جدارته وعلى عبقريته الفذة في الكوميدي فرانسيز ، وأيضاً وهذا يأتي في المرتبة الثانوية جداً ، مساعدة شخصية لها من بعض الأصدقاء الأكاديميين ، كمستشرقة عالمة ، تهتم بشؤون الثقافة غير الكولونيالية في الجزائر ، قدمت الماجيستير ، ثم الدكتوراه ، وهي الآن بصدد انجاز رسالة التخرج على يد العلامة . . وبمساعدة العلامة . . وارشاد الدهقان . . ذكرت أسماء عديدة ، لم يحفظ منها سوى الحروف الأخيرة ، أوف أو إيف ، وفوق هذا وذاك ، ماالفائدة من هذه الأسماء في مثل هذه الحال .

كان فتياً ، ممتلئاً بالتمرد على الاستعمار وثقافته ، وعلى كل المفاهيم الرجعية والمحافظة ، يعشق الهدم والتحطيم ، متشعباً بأفكار ماركس وأنجلس ، وبآراء لينين ، وشديد الاعجاب بعفوية وبساطة ماو التي

يشبههـا ببسـاطة وعفوية السحرة والبهلوانيين . يتمثل فيه بأتم معنى ، شباب الخمسينات الثائر ، ولد الانتصارت والمد الأحمر ، وحركة التحرر الوطني التي لم تزن مع الاستعمار بعد . لا يصرح بانتمائه الايديلوجي ، فقد كان ذلـك يشكل خطراً كبيراً على حياته ، فمهما كان بعيداً عن الحزب الشيوعي الجـزائري أو الفرنسي ، فلأنه أدرك ، ومنذ اليوم الأول الذي التحق فيه بجبهـة التحـرير الوطني ، أن معاداة الشيوعية احدى سمات هذه الحركة. لم يفكـر كثـيراً ، فطبعـه الاستقـلالي ، كفنـان عن الانتـظام ، والانضباط ، وإيمانه الراسخ ، بأن مصير البشرية ، شاءت ذلك أم أبت ، هو الاشتراكية ، كل ذلك جعله يؤجل اعلان انتمائه ، بل ويغض الطرف عنه في أحيان كثيرة .

فيه كل صفات وخصال المثقف الثوري المعاصر ـ كما لاحظت ذلك أولغا منذ اللحظة الأولى ـ باستثناء راسبين اثنين ، بدآا لأولغا أساسيين في تركيب شخصيتـه وفي كل دراسـة للثقـافـة والفكر في هذا البلد . لباقة الفرنسي الراسخة المتوارثة ـ كما يقول دوستويوفسكي ـ أباً عن جد ، والتي ليست سوى قناع شكلاني يكسو الشخصية الفرنسية ، ولكنها مع ذلك تسحر الفتيات الروسيات وتغويهن ، ثم هذه الأنفة العربية ، ذات الجذور الاقطاعية .

لا يسمح لنفسه ـ على سبيل المثال ـ باقتحام المطعم ، قبلها ، ينحني قليلاً ، ويبسط يده . « بعد الآنسة البهية » . لكن لا يسمح لها باختيار مقعـدهـا ، ومـوقعهـا . يسبقهـا ليتظاهر بالحذلقة أيضاً ، فيسحب إلى الخلف ، المقعد الذي يختاره لها . يجبرها ، وكلمة الجبر ، هنا تقول أولغا ، في محلها تماماً ، على عدم مواجهة غيره ، خاصة ، إذا كان من الشبان . يبدي ما يمكن نعته ، بدون أية مبالغة ، بالغيرة ، احدى سمات البداوة

والأنانية وحب التملك والسيطرة . يحتج على النادل إذا ما سأله قبلها ، عما يطلب ، أو قدم له لائحة المأكولات دونها ، يشعره بغضاضة ، بوجود سيدة على السفرة، وبأن الأصول والاتيكات والتحضر، يقتضي، تشريفها، لكن بعد مفاوضات شكلية ، يقرر الأصناف المطلوبة . يلح على دفع الثمن ، ويستغرب أن تفتح حقيبة يدها في حضرته . يلح على دفع ذلك ، نهض أكثر من مرة على المائدة قبلها ، وسبقها إلى الباب ، مستظهراً للجميع ، تبعية المخلوق الذي وراءه له وحده . حريمه المصون .

افسح المجال في الأسبوع الأول لنفسه ليتحدث وحده ، يزرع درره ، وحكمه ، وآراءه ، كنجم عالمي ، عضو الكوميدي فرانسيز ، ورئيس الفرقة الفنية للثورة الجزائرية ، كل ما يقوله ، لا يعرفه غيره ، حتى وإن سبق وعلمه ، فإن المعنى الذي يعطيه له هو ، متفرد ، وينبغي أن ينتبه اليه الناس . لعلع في كل شيء ، في كل ما يعن . ألجمها . فرض عليها التزام حدها ، كمرافقة أو مترجمة أو ما شاءت ، إنما وبصفة خاصة ، كامرأة ، بقطع النظر ، عن محتويات ومختزنات رأسها . أحست في الأول ، بشيء من الانتشاء لهذه التجربة المزدوجة ، مرة في الايليزي ، وأخرى في قصر السلام ، كانت أشبه ما تكون في أرجوحة ، تندفع من موسكو ، تحوم على باريس ، ثم تمر على موسكو ، فتحوم من جديد في بغداد . تروح ، تجيء . تروح ، وفي كل ذلك يحلو الضحك ، يحلو الانتشاء ، يحلو تذوق التجربة البريئة . في الأخير قررت أولغا أن الثقافة الجزائرية غير الكولونيالية ، مهما كانت مرتكزة على الايتيكات البرجوازية الرفيعة ، لا تخرج عن طابعها العربي الاسلامي ، وهي أشبه ما تكون بثقافة الجمهوريات الاسلامية السوفياتية ، تركمانية ، أو أزبيكستان ، أو غيرهما ، وسجلت في دفتر مذاكراتها هذا السؤال : هل كان دوستويوفسكي

يشير وهو يتحدث عن الفرنسيين والانقليز والبولونيين في « المقامر » إلى أن الثقافة تنتقل بين الأجيال بيولوجيا ؟

أفـرغ ما عنـده ، وبـدأ حماسـه في الحـديث ، يفتر أمام صدر أولغا الرحب ، أولغا التي قصرت معارضتها لحضرته على الابتسام . شعرت بأن الارجوحة أخذت تتثاقل في حركتها ، وها هي تتوقف تماماً في موسكو ، وها هي قدما حضرة مدير الفرقة الفنية الثورية ، تستقران على الأرض . تجدان موقعاً لهما فتستقران .

بدأ الهجوم المضاد .

عبارة الهجوم في الحقيقة ، في غير محلها ، وفيها كثير من العدوانية ، والتحـدي والاستفـزاز ، وهي لا تنسجم اطـلاقـاً لا مع بسمـة أولغـا السمـوح ، ولا مع رحـابـة صدرهـا . أولغـا الأكـاديمية ، عضـوة الكومسومول . الاوروبية المستشرفة التي لم تعرف الفونية والبنيوية ، ومعنى الصبر إلا مع النص العربي ، أو القواميس العربية ، التي تثبت في الآن الـواحـد أن هذه المفردة أو تلك ، تستعمل للاستحسان ، كما تستعمل للاستقباح والاستهجان ، تدل على العروس المزدانة ، كما تدل على الناقة الجـربـاء . وقـد أدركت بعـد جهـد جهيد ، بعد عنت المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة . أن كل كلمة عربية ، إنما تتوقف على سياق المعنى ، وهذا ما ينعكس ، ربما ، ربما ، على السلوك العربي العام ، غير منتبهة على عكس استاذها ليف إلى قبلية المفردة العربية ، ومايستخلص من تحليل الـدكتور الأعمى . طه حسين ، في كتابه حديث الأربعاء ، وفي تحليله للحديث النبوي « نزل القرآن على سبعة أحرف » ومايحس به كل كاتب مقضي عليه بالتخلي عن لغة الشعب اليومية ، والعودة الى الذاكرة ومارسب فيها من مفردات ، والى القواميس للتأكد من صحة المعنى ، ومن عربية

الكلمـة ، وبـالتـالي من كونها ليست شعبية ، أو للعثـور على مفـردة ، مقاربة ، على القارىء كي يستوعب المعنى أن يتوقف وأن يفتح القاموس وأن يراجـع الكلمـة ، ويستخلص من عدة معـان المعنى القـريب من السياق . يهون ، يهون الأمر . عندما يتعلق بقارىء عربي ، له من قريب أو من بعيد شبـه ذاكـره ، يسهـل إزالـة الصـدأ عنهـا ، لكن إذا تعلق بمستشرق ما ، فذلك هو قصور اللغة العربية بالذات ، اذا لم تكن يمانياً أو شامياً ، أو شمال افريقي للمفردة طنين مافي ذهنك ، وفي وجدانك ، يجعلك تدرك المعنى العام ، ويغنيك عن المفهوم الدقيق الصريح للعبارة ، فاللهم لغة الطير ولا اللغة العربية ، التي جنى عليها الشعراء ، والنحاة ، واللغويون في العصر العباسي ، بدل اعتماد لغة القرآن كقاعدة اساسية ، ويضيفـون اليهـا مايستجـد في المـدينـة من مفردات يحتمها تطور وتحرك المجتمـع ، أنكـروا هذا التـطور وهـذه الحركة ، وراحوا يؤمون البوادي يلتقطون معنى من هذه القبيلة ، وآخر من تلك ، لنفس الكلمة ، ثم يعودون يملونها على الحياة : هذه لغة العرب فاحفظوها ، احفظوا المعنيين المتناقضين ، وتذكروا العروس المزدانة ، في الوقت الذي تصفون فيه الناقة الجرباء ، وكذا العكس .

بدأ تواجدها ، أولغا ، في ذهن الفنان الشاب الثائر كشخص مستقل ، له قيمتـه ، له أبعاد ، وعمق وسطح ، ورأي،من خلال أسئلة محددة ، مدروسة واضحة أنيقة لها قبل ، ولها بعد ، ولها آن أيضاً : ماهي الخلفية الـتراثية لرقصـة العصـا التي شاهـدناها البارحة ؟ ماهو عنصر الوجدان الشعبي في مسرحية « ابناء القصبة » ؟ كمؤلف ، ومشرف على إدارة وتسيير فرقة فنية ثورية ، كبيرة مثل هذه ، ماهي رؤيتكم لتوظيف الفن في معركة التحـرر الـوطني ، وفي نفس الوقت من أجل إيقاظ الحس الطبقي عند

الجماهير الشعبية ؟ هذه أسئلة بدائية ، في امكان أي واحد ، يتمتع بقليل من الحذق والذكاء أن يعثر في القاموس الماركسي اللينيني على أجوبة ذات صيغ جاهزة ، أو شبيهة لها ، لكن عندما تعلق الأمر ، بجدلية الشكل والمضمـون ، وبليخانوف ، وجـدانـوف وشيللر ، وفيشر وبيلينسكي والـواقعية الاشتراكية . . ورحابة صدرها ، وما ينتظر من مبدعي حركة التحـرر الـوطني في افـريقيا وآسيا وأمـريكـا الـلاتينية من الاضـافـات والاثراءات ، بما يقدمونه من أشكال جديدة ، لممارسات ثورية متنوعة ، بدأ يكتشف أن المـوهبـة وحـدها لاتكفي ، وأن الانتماء الأيديولوجي أو الفكري الى فلسفة أو مدرسة يحتاج الى مؤهلات ثقافية ، وأنه طال الزمن أو قصر ، سيجـد نفسـه في حاجـة الى سلاح آخـر غير سلاح العبقرية والموهبة ، أولغا ، هذه البسمة الدائمة ، من تكون . ماذا تكون ؟ أولغا تحتاج الى اكتشاف .

يستمع الى الأسئلة بامعان ، ينتبه الى امكانية توالد مثل هذه الأسئلة في رأس امرأة ، جميلة اسمها أولغا ، لا يقول ذلك ، ولا يعلنه صراحة ، حتى بينه وبين نفسه ، فقناعاته وانتماءاته كلها تحول دون ذلك ، لكن هذا الصوت المبهم التائه في الوديان والآتي من خلف الصخور الجرداء ، يجعله يحس بشيء من هذا القبيل ، كيف كان ذلك ؟ لماذا كان ذلك ؟ يهرب الى مواضيع أخـرى . يستشـيرهـا ، برومـوثيوس . يحلو له الحـديث عن بروموثيوس ، خاصة عندما تبدى أولغا موافقتها لفهمه له ، مع إضافات ترتكـز على علـم الاجتماع ، وعلى التقسيم الطبقي للمجتمعات ، وعلى المادية التاريخية وتستشهد بآراء عمالقة الفكر الماركسي في الميثولوجيا ، كل الامر يتعلق بتفتح العقل البشري وبما عاناه في سبيل ذلك ، إن بروموثيوس إله انتمى إلى البشر ، فأعطاهم سر النار ، سر الطاقة ، وهل تعتقد أن

السر يتوقف عند هذا الحد ، في رأيي أن بروموثيوس ، يتجدد كل ليلة كل لحظة ، في أولئك الباحثين في جميع الميادين ، والذين سينتزعون ، لا محالة كل أسرار الطبيعة والكون . نعم ، كما تفضلت بالقول ، ما الذي أزعج الاله عندما عرف البشر سر النار؟ أليس هذا الاله رمزاً للسيد المستغل المستبد ، الذي يمتلك وسائل القوة ، علينا على كل حال أن لانستسهل هذا التحليل ، فننساق فيه الى ماقد يكون مثيراً للسخرية والهزء ، لكن علينا أن نكون في كل لحظة من لحظات حياتنا أوفياء لما نؤمن به .

المرعب في أولغا ، هو هذا التواضع ، هذه البساطة التي تبدو بها ، مع أنها أولغا ، لو جزئت الى أجزاء ، لاستطاعت أن تكون أستاذة بجامعة . وبمعهد نقابي أو حزبي ومرشدة سياسية لفرقة من المقاتلين . وممثلة بارعة ، ومديرة مسرح ، ومصممة أزياء ، ومترجمة ومرافقة ، وامرأة وساحرة ، تعيش في هذا العصر ، كما تعيش في قصص ألف ليلة وليلة . كل ذلك في الوقت الواحد ، وفي البسمة الواحدة . في رمشة عين قصيرة .

بدأ يحس بأنها تسكنه شيئاً فشيئاً .

يستجديها الحديث ، ويستطيب الإصغاء إليها ، يرصد بسمة لها ، فيعبر عن الاستيعاب الدقيق الكامل لها يميز نبرات الصوت نبرة أثر أخرى ، الرخمة الموحية بالألفة والحنان ، الحادة المائلة أكثر الى الرقة ، هذا النطق اللذيذ ، بالعين وبالحاء وبالخاء ، اشتراك الأنف والحلق ، والهدوء والصخب ، والرضا ، والانزعاج ، في أداء الصوت الواحد والنبرة الواحدة ، حركة الحاجبين المتماثلة تماماً ، للحروف العربية ، لا أحد يستطيع رصد ارتفاعها أو نزولها ، ولا أحد يستطيع أن يقول أن أولغا لا تكتب بحاجبيها الجملة ، قبل أن تنطق بها ، وجبهتها ، صحراء اذا ماتذكر المرء افريقيا ، وقمم الألب اذا ماأراد أوروبا ، والهملايا اذا ما

كانت آسيا ، تنبسط تلتمع ، تصحو ، تلتوي ، تنبسط ، تتعقد تشمخ . تنفرج ، والعينان ؟ آه . يالعيني أولغا حجمهما يستطيع أن يستوعب الكون كله .

عنـدما تكون أولغا تتحدث تكون عيناها ، تلتقطان شيئاً ماتبعثر في القارات السبع .

اشتد اهتمامه بكل مقومات فكر ورح وجسد أولغا ، وطار النوم ، ولم يعد السحر يليق سوى لنظم الشعر .

تبـدت البسمـة في ازدهـار حدائق موسكـو بمختلف ألـوان الـزهور والورود ، وتبدى الجبين في حيوية قمم الأطلس ووقار الكرملين ، والساحة الحمراء ، وتجلت العينان في غابات الزيتون على سواحل البحر الأبيض المتوسط ، وفي حساسية نهر موسكو لكل مايجري في السماء ، من صحو أو كدر ، والضحكة بزغاريد جنيات الشواطيء التي تسكن أفريقيا ، وليل الصيف المزدان بالنجوم في الطاسيلي والهغار.من ارتعاشة جسم أولغا من هنـالك . من سحر ليالي موسكو التي لاتعرف الحزن ، ولد الحلم . في سلام أبـدي ، وفي اكتشـاف الـذات الكهربية للكون ، ليمسكا ، هو وأولغـا ، بأيدي بعضهـما ، ويعـبرا الفضاءات الخالدة ، زارعين في كل الآفاق ، نسلاً جديداً ، لا يعرف حرباً ولا لاجئين ، ولا جوعاً أو عطشاً وعـرياً ، ولا يجد مبررات للأثـرة والأنـانية ، وأسالة الدم ، ولا الحاجة لاستعمال الدولار معبراً للعلاقات بين الشعوب .

ـ هيا ياأولغا هات يدك .

كاد يقول لها ، إلا أنه تذكر أن بلده في حرب . في حرب غير متكافئة في كل شيء ، يموت فيها الرجال بالآلاف ، وتبقى النساء يحدوهن الأمل في الـرجـال البـاقين ، وفي نسلهم.يتقوقع على نفسه ، يحاول اقناعها ،

بأشياء أخرى .

لا أحد يطمح الى أولغا دون أن يكون انساناً كاملاً ، سيبيرمانا بحق ، بوسعه أن يكون محافظاً سياسياً ، في الجزائر أو الفيتنام ، ومحاضراً في مدرسة إطارات الحزب أو النقابة ، وممثلاً يعرف غيرة عطيل ، وعقلانية هاملت ، وإنسانية بروموثيوس ، ووجد كازيمودو ، ووفاء بينيلوب ، ذاك أن في أولغا رقة الآسيوية ، ولطف الأوروبية ، وإثارة الافريقية ، وأمومة الروسية ، وكرم الامريكية ، في أولغا سعة أضلع حواء وقابليتها للعطاء فيها البدء والمنتهى ، فأي رجل في هذه الدنيا يكون في مستوى أولغا ؟

ظنها كائناً ملائكياً ، استحم في الكوثر ، على يد ربانية ، وانتزع من قلبه ، كل فوران للدم ، كل اندفاع ، كل خطأ ، غير أنها أبهرته ، بامتزاج عصمتها بالبشرية ، بأنها بروموثيوس ثان . في يدها النار ، وفي قلبها السلام . رقصت على إيقاعات التانغو ، والفالس والجاز ، وارتوت بالكونياك والفودكا ، ولم تفرط في لحظة الامتزاج به .

سكنته ، سكنته إلى الأبد ، الى أبد الآبدين .

قال لها لدي كلام طويل ، تمنع ظروف بلادي من قوله . ملأت الدنيا بابتسامتها وتمتمت :

ـ ويحك، المرأة تقرأ كل مافي قلب الرجل ، فما حاجتها لسماعه ، سأنتظرك .

طافت الفرقة في مختلف أنحاء العالم ، لكنه في كل مرة يجد نفسه في فندق راسيا ، في الطابق الثامن عشر ، من المدخل الشمالي ، تقابله الكنائس ذات الأجراس الثملة ، والقباب الذهبية ، حاملة الأنجم الحمراء ، وماتزال الدمعة ، شفافية القطرات المنحدرة من نهر موسكو ، علي وجنتي الكون ، ماتزال بين عينيه .

ارتفعت أعلام الاستقلال الوطني ، ومثلت الفرقة لبريخت وغوغول ، وابسن ، وايسخيلوس ، وكاتب ياسين ، وألفريد فرج ، وظلت أولغا ، وأنوار مسرح موسكو ، الليلة التي مابعدها ليلة ، الليلة المتفردة في العمر كله ، كل أكف بيضاء تصفق هي لأولغا ، كل زهرات اعجاب هي من أولغا ، كل ضحكة جهورية انما هي ضحكة أولغا .

وضعها . صورتها ، في إطار ، خصص له غرفة بالمنزل ، أعطى الصورة لأشهر رسام ، ليضفي من عند الجميع ، مايليق بمقام أولغا ، علق اللوحة . أحاطها بمختلف الأنوار والمؤثرات،علق مبخرة ، يضع فيها بخوراً اصطحبها من حيدر آباد ، يوقدها كل ليلة أحد .

سنة ، سنتان . ثلاث ، عشر سنوات ، فصارت أولغا الحمل الذي لايطاق ، الحمل الذي تعجز البشرية جمعاء عنه .

تريد الروح المسكونة ، أن تستكين قليلاً ، فتستريح إلا أن الراحة الحقيقية تحتكرها أولغا .

قصدت المرحومة أمه فقيها مغربياً اشتهر بكتابة أحجبة ، تحرر الأرواح من ساكنيها . حللت الرقية في طست ماء ، وسقتها له سبعة أيام كاملة ، لكنه لم يحجم عن ولوج الغرفة كل ليلة أحد .

أحرق من تلقاء نفسه الصورة ، أعد إناء نحاسياً وقنينة عطر ثمين ، قبلها بشغف ، اضرم عود الكبريت ، قدم احدى زواياها ، اخذت النار تلتهمها مليمتراً بعد آخر ، ولما تقدمت سطعت في الغرفة ذات النور الخافت ، فشكلت مع موسيقى تشايكوفسكي ، جواً ساحراً ، خرافياً ، جمع الرماد ، ذرة فذرة ووضعه في قنينة العطر ، وأسرع به الى غرفة نومه ، ليضعه فوق الخزانة قبالة سريره ، أتى بعلب دهان مختلفة الألوان . طلى اللوحة بالأبيض وظل يأمل انمحاء أولغا، غيابها على الأقل.

أبت أولغا الانمحاء .

جرب الأسـود ، الأزرق ، الرمادي ، البني الأحمر ، إلا أنها ، أولغا تشبثت بغرفتها ، بالبقاء فيها ، وعدم مغادرتها .

كانت تطل بعينيها الواسعتين ، وببسمتها المتلألئة وكأنها تقول له :

ـ ويحك.كيف تخرجني من بيتك ، قبل أن تخرجني من قلبك ؟

شهـر أشهـر ، سنة ، سنوات ، فسدت كل مشاريع الصداقات مع الزميلات الفنانات ، ضاعت فرص الزواج . الواحدة تلو الأخرى ، من يتطاول عليها . أولغا ؟

أكلت النار من جديد أولغا ، في رسمها ، باللوحة المجللة ، وضعت رفـاتها ، في قنينة عطر ، وحملت الى المقبرة العائلية ، قبالة السرير ، إلا أنها ، إلا أن أولغا أبت مغادرة غرفتها

ظلت تنتصب في موضعها . ببسمتها السموح ، وبصدرها الرحب .

واجهها بنور مختلف القوى . مائة واط ، خمسمائة.ألف . عدة آلاف ، استعـار من المسرح ، فرقـة الإنـارة ، وشن هجومه . ظلت تنتصب في موضعهـا ، تتراقص حدائق موسكـو على شفتيها ، ويطل الكرملين من جبهتهـا ، وترف أجنحة نهر موسكو في عينيها ، وتزغرد جنيات الأبيض المتوسط المسحورات حولها .

تعاقبت الألوان على الجدار . كامل الجدار الذي تسكنه ، لكن دون جدوى ، فأحضر* منقاراً ومطرقة واقتلع قوالب الآجر ، التي كانت خلفها .

ظلت هنـاك . كلما دخل ، انتصبت أمامه ، تصغي ، تسأل تناقش تضحك ، تفصح عن التفهم الإنساني ، في بسمة ودود .

اقتنع أخيراً بأن أولغا قدره . قدر الفن والانسانية في هذا العصر .

فتح الباب . امتدت يده إلى الزر ، انبعثت الأنوار تتلألأ بمختلف الألوان ، في سحر غامض ، استلقى على مقعده السريري وواجهها .

ـ أولا! أولـــــــــــــلا! سلاماً أولا . طوبى لمن أحبك أولا . رسائلك، ماتفتأ تصل بانتظام، وسأجد، أنا العيي العاجز، الأعزل، ذات يوم الشجاعة فأفتحها، فاعرف هل كان مافي بطنك ولد أم بنت ؟

أعرف ماتقولين . أقدره . أخشاه . أذل أمامه . أخجل.عزائي ياأولا أن بقاءك هاهنا ، دليل على غفرانك .

قولي لحدائق موسكو . ازهري ، مري نهر موسكو، بشرب السماء . كل السماء ياأوللا .

هل تسمحين برقصة الفالس هذه أولاً ؟

نهض تناولها . أولغا ، في ثوب السهرة الأرجواني الرجراج ، تذاوب وإياها مع اللحن ، واستسلم للصدر الرحب والأنفاس الحرى .

(*) بعض هذه الصور يوجد ما يشبهها عند توفيق الحكيم.

مايزعج التينة

على موعد في الليلة القادمة .

أذكر جيداً العبارات التي إستعملتها ، البارحة ، أو هذا الصباح ، بالأصح ، فقد كان الوقت لحظتها ، تجاوز بكثير منتصف الليل . لعل الساعة السوفياتية ، في الجدار ، طنت طنتين أو ثلاثاً أو أربعاً . لا أذكر بالضبط ، وليس ذلك لضعف ذاكرتي ، وإنما ، لعدم إكتراثي بالوقت . برصد الزمن يتعاقب . يجيء ويروح . يروح ويجيء . يبيض ويسود . يسود ويبيض . لايفعل سوى ذلك ، وكأنما كلما إعتراني ضعف أو حالة بيولوجية ، قدرت الوقت . الصباح . المساء . الظهر . القيلولة . الليل النهار . أول الشهر آخر الشهر . أول السنة . منتصف السنة ، أترى القطط والكلاب ، والحيوانات القادرة على الرؤيا ، والحركة في الليل ، تعير إهتماماً لتلون الزمن . ما الجدوى بالنسبة لي إذا كنت أدرك تمام الإدراك ، إن ذلك لايعني سوى تواتر الذات الكهربية السرمدي ؟

هنا في غرفة المتخاذلين ، أمارس العملية . هنا أفضل . نعم . نعم .

السلام عليكم أيها الأنذال ! ليس الماضي سهلاً إلى هذا الحد ، حتى تتمكنوا من إغتياله بمجرد الخروج منه . لا . ليس بهذه السهولة ، وستظلون هنا .

التينة قيل لها : ـ نقطع جذعك .

إبتسمت ساخرة .

ـ لن تقتلوني بذلك ، سأخلف جذوعاً أقوى .

ـ إذن نحرقك .

ضحكت هازئة : لن تحرقوا سوى الشعث .

ـ نقتلعك .

ـ يالكم من أغبياء ، سيظل هنالك ، دائماً ، عرق يخلف.

غضبوا ، وراحوا يستشيرون جميع الأشرار ، عم يمكن أن يخيف التينة ويرعبها . ثم عادوا إليها يكررون ماقالته ساحرة شريرة :

ـ نقتل مولاك .

فوجئوا بالدمع ينهار من عينيها والحزن والأسى يستوليان عليها ، وبالذبول يداهم المسكينة

إنبعثت الأنوار المستترة من الزوايا ، تشع بضوء نهاري ، هادىء مريح . تهالك ، حضرة المستشار في أريكته المعهودة . « العرش » كما كانوا يطلقون عليه ، هذه سنوات . راح يتأملهم واحداً واحداً .

كعادتكم ، كل ليلة ليس فيها عرض . ها أنتم تلتفون حولي . كل واحد منكم يحاول جاهداً ، إرضاء « الرايس » ، بإدخال الغبطة على قلبه ، وإيناسه ، أو إقناعه بأنه يختلف عن الآخرين ، عن الباقي رجالاً ونساءً ، بأنه أنزههم ، وأكثرهم إستقامة وصدقاً ، وضعفاً أيضاً . بعضكم يلجأ إلى النكات ، يظل يرصدها ، أو يصنعها ، حتى يلقيها هنا ، فتنتزع قهقهات الزملاء ، وبسمة الرايس .

ـ كم مرة أعدت علينا هذه النكتة ؟!

ـ ظننتكم نسيتموها . أوعلى الأقل ، تتحاشون إحراجي ، فتجاملونني وتعيرونني ضحكة .

يتعالى الضحك مرة أخرى . بعضكم يفصح عن حقيقة ، يرى أنها موضوعية ، يحاول دائماً أن يجعل حديثه يرتكز عليها . مامصير المسرح الجزائري ، لو لم يخضع على يدك ، للمعرفة . للعلم والقوانين ومنطق الجمال ؟ من في هذا البلد ، تخرج من معهد التمثيل العالي بباريس ، ومثل في الكوميدي ، تحت إشراف كبار المخرجين العالميين ، وإلى جانب عظماء ، نجوم الكوميدي ، حصل للثورة شرف إستقطابه ومنحه قيادة فرقتها ، ليقف على خشبات مسارح القاهرة ، ودمشق ، ولاهور ودلهي ، وبيكين ، وبلغراد ، وفرسوفيا ، وبيده بيست ، وبرلين ، وموسكو .

ـ أعد موسكو هذه . أعدها . هل في الدنيا غير موسكو . ؟

ـ لاتقاطعني . الموضوع جاد . قلت ، يقف ليواجه العالم ، مؤكداً بعينيه ، وحاجبيه ، ووجنتيه ، وذقنه وأنفه ، ويديه وأصابعه .

ـ قل ، بكل جوارحه ، وأرحنا .

ـ قلت لك لاتقاطعني . أنا أعرف ماأقول ، وحضرة الرايس ، يعلم أفضل مني ومنك ، مالكل الأعضاء التي ذكرتها ، من أهمية في مجالنا ، هذا . يؤكد ، قلت ، أن الأمة حية . كما يسقط أبناؤها ، طائرات البي 26 ، يصوغون الجمال . . ؟ سيكون المسرح ولاشك ، مثلما هو جار الآن في القطاعات الأخرى ، مرتعاً للأميين ، ووكراً للخونة ، يحطون من الذوق العام ، ويتملقون الإقطاع والبرجوازية ، والفئات الطفيلية . إنظروا إلى الإذاعة والتلفزة ، وتأكدوا أنه إذا كانت في هذا البلد معارضة وثورة مضادة فهي هنالك ، بالأفلام الأمريكية ، والأغاني التافهة والمدائح الدينية ، والله العظيم يارايس لايوجد شعب يطرب على قصيد ، عن الليلة الأولى في القبر ، وهم يريدون أن يجعلوا المدائح والأذكار التي لايفهم مؤدوها معناها ، فن الطرب في الجزائر الثائرة . . إنك يارايس . أحد

الأركان الأساسية ، ليس للثورة فحسب ، وإنما ، لنهضة هذا الشعب .

تسكته الضحكات والنكات ، وأخبار الوسط ، الطريفة والمأساوية ، ثم يستأنف فجأة ، وبدون سابق إنذار .

ـ كلاب الدوار ماتنبح في السوق ، يارايس .

ـ ياسلام . من أي زير غرفت هذا المثل . .

ـ من زير شعبك . شعبنا . أردت يارايس أن أقول ، أن المجتمع الريفي بقيادة الفلاحين ، الثقافة بالنسبة إليه ، لاتعني شيئاً . لاتعني في الحقيقة أكثر من التهريج . لاشك أنك إستوعبت المعنى الحضاري الذي أردت أن أفصح عنه .

ـ ومن هم كلاب الدوار هذه . قلها ولاتخف . كلنا هنا « جرابة صافيين » ، كما يقول التونسي .

بعضكم يتظاهر متبجحاً ، بأن القوى الديمقراطية ، التي تضمه ، وينتمي إليها ، بالطبع ، ترى في المسرح الوطني الجزائري ، أحد المجالات الهامة ، لممارسة النضال الطبقي . وأنه ، هو ، صديق المحرر الفني للجزائر الجمهورية ، وراء المقال المصور ، عن دائرة الطباشير القوقازية ، وعن القاضي الشعبي ، والعلاقة بين عاطفته ، وعاطفة « غروشا » أم الحب المستقبلي . لقد كان المقال زخماً عميقاً .

بعضكن تفرض تأكيد ولائها وولاء « خطيبها » بتقبيلي من شفتي ، أو بالجلوس فوق ركبتي ، أو بتمرير أنفها على خدي ، لتطمئن إلى حدالة ملمسه ، تتناول رأسي بين يديها ، وتنهمك في سحب أنفاس عميقة ، شامة رائحة شعري ، ضاغطة قدر الإمكان ، بصدرها على كتفي .

ـ أيها الأب العزيز . تأمل الغيرة على وجهه . ألا تراه عطيلاً فاشلاً ؟ أتسمح لي ، الليلة ، أن أدفىء ظهرك ؟ أنه لا يفتأ يكرر ، أنت لاتحبينني شخصيا ، وإنما تعشقين الرايس في شخصي . تتعلقين بأغصان التينة ،

لتصلي إلى حبة ناضجة . كم هو مغرور منذ أعطيته دور الفدائي ، يارايس.
بعضكن ، تحاول من حين لآخر ، أن تكشف عن مكنوز صدرها من الوجد ، والتباريح ، برفع عقيرتها بالمقطع المأساوي ، من الأغنية الشعبية « رولي يا الزرقة رولي ماكي رواله ، غاضني البرقادي ، وأميته تبكي في حالة » . (*)

ـ كيف الحال بو علام ؟ دور الشرطي الكولونيالي ، جعل منك رجلاً ! كائناً يتمتع بإعتبار ما . أتذكر ؟ كنت جالساً في « طانطن فيل » ، مقهى الجزائر حالياً ، على بعد عشر أمتار من المسرح . كان منع الخمر يومها ، الشرب ، بصفة عامة ، إيذاناً بالإنهيار ، نحو التأصل البدوي ، بالديماغوجية ، وبالجهل . الواحد منهم لايتورع أن يقف في منصة ، ليعلن عن إفتخاره بأنه فلاح إبن فلاح . لايدري أنه يعني بذلك أنه لم يعرف الكهرباء والنور ، ولم يعرف الحضارة حتى في شكلها البدائي ، أمي إبن أمي ، إبن أميين . لايبعد عن الذئب والضبع إلا بالنطق . يقتلع شجرة الورد ، ليغرس بدلها الصبار ، جرياً وراء المنفعة الآنية ، والمحسوسة . لا يدرون أنهم يقولون للعالم أجمع أننا جئنا من الجبل ، من السهوب والصحارى ، لنخلف أبناء أوروبا ، أبناء باريس بالذات .

كان النادل ، ورئيس مجلس التسيير الذاتي للمقهى ، قبل أن يستولوا عليها ، وجميع العمال هنالك ، يفهمونني ، حق الفهم .

ما أن أجلس ، حتى تأتي « الكوكا » مفتوحة ، جزء مزعوم منها في الكأس مع الثلج . أثار الويسكي المتنكر ، وأهاج همومي . من يقوم بدور

(*) بعض كلمات الأغنية بالفرنسية والمعنى العام يخاطب سيارة شرطة أيام الاستعمار «أسرعي أيتها الزرقاء فعهدنا بك سريعة . يحزنني الضابط ، كما يحزنني بكاء أمه الحزين» .

الشرطي ، بعد أن دعي صاحبه إلى مهمة والي على ولاية ؟ قبل أن ينصب بشهر ، غادر الفرقة ، وتركني أقوم بالدورين . دور الأب المحتار من سلوك أبنائه في هذا الزمان الذي يتحتم فيه على كل واحد من أفراد العائلة ، فتق الشرنق بنفسه ، وكما يحلو له . ودور أحد الأبناء . الشرطي المتلبس في أعين الواقع بالخيانة . أجهدني الدوران . أدخل من هنا أخرج من هنالك . غير اللباس . غير الماكياج . السن في دور الأب ، بطبيعة الحال ، تختلف عنها في دور الإبن . الإبن ككل شباب الخمسينات ، مغرم بالشوارب الدقيقة ، الممتدة على عرض الفم . الصوت يجب أن يتغير . الحركات أيضاً تختلف . ليس هنالك أي مجال للحظة تنفس .

ـ مذا تفعل في الحياة ؟

سألتك ، وقد كنت تجلس بجواري ، تحتسي قهوة ، وتلح في طلب كأس ماء بارد ، بينما العامل المنهك يتجاهل طلبك ، تأملتني ، بدهشة المسافر الغريب ، الذي لايتوقع أن يتوجه إليه أحد بالحديث .

ـ كما ترى . أحاول مقابلة رئيس الجمهورية .

ـ هكذا ! ولماذا تريد مقابلته . لاشك أن قضيتك خطيرة !

ـ آمل أن يرسلني إلى القاهرة . حلمي كله في هذه الحياة . طلبي كله من إستقلال الجزائر ، يتلخص في أن أدخل الجامع الأزهر الشريف .

ـ هل سبق وأن زاولت الدراسة .

ـ ستة عشر سنة في زاوية سيدي بالحملاوي . أحفظ الستين حزباً ، والآجرومية ، والألفية ، والقطر . وسيدي خليل .

ـ في إنتظار مقابلة رئيس الجمهورية ، هل يسرك أن تجد عملاً ، تشغل به نفسك ؟

طرت فرحاً ، قبل أن تعرف نوع الشغل ، وعندما عرفته فقدت كل

إتزان ، فنهضت تسعى لتقبيل يدي . وتثرثر عن أدوار خالد بن الوليد ، وعبد المطلب بن عبد مناف ، وإسماعيل بن إبراهيم الخليل ، التي قمت بها في الزاوية .

حل مشكل السكن . تقطن عندي ، حتى يفرجها الله . لم تكن فجرية يومها تتجاوز السادسة عشر ، فكنت تصر على القيام بكل شؤون المنزل . تغسل الثياب . تنفض الغبار . تطبخ الطعام . تكنس الغرف . لم تكن تعرف يومها مسح القاعة ، أو تلييق الزليج . علمتك وداد التي حالت بينك وبين الصلاة . في الحق ، نمت عندك ، منذ اليوم الأول ميول تركها . بدأت تتكاسل شيئاً فشيئاً . تصلي الصبح سراً عند الظهيرة ، ثم تجمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء . تتيمم بدل الوضوء . تجمع كل أوقاتِ اليوم . ثم صرت تقضي . إلى أن إلتحقت وداد بالفرقة، فكانت الجنابة تلازمك، كما كنت تقول. تستغفلاني، وتظهران الإنشغال بالكتب في «دار الحكمة»، تخونك وداد، عندما لا تتمالك عن الصراخ ، كلما بلغت ، بين فخذيك الذروة . تعود تضحك . تتناول سيغارة . سيغارة واحدة في الأول . ثم ، يخلف الله . سيغارة وكأس ويسكي .

ها أنت ذا رجل ، يدخن السيغار ، ولا يخلط الويسكي بالماء . يعرف ماكبث والملك لير وهنري السادس ، ويقارن بين بريخت وكاتب ياسين ، ويعجب لتشابه الأسماء ، بين آلهة الإغريق والرومان ، وبين أسماء جبال الجزائر . أوراس . آريس . آرغيس . مؤكداً أن وهران ليس لها معنى آخر سوى أورانيوس . ويقارن بين باريس ورومة وبين أثينا وصوفيا ، وبين القاهرة ودمشق . يفرق بين الرأسمالية والإشتراكية ، ويستطيع أن يؤدي بحماس نشيد الأممية ، رافعاً ذراعه ، مهدداً بجمعه ، في مقطع النصر

النهائي .

كم أنا مسرور بك يابو علام . لكنني أسألك ، بكل عناء ، هل تذكرني ؟ هل يذكر الغصن التينة . . ؟

لايهم . لايهم يابو علام .

مجيد . أنت يامجيد ! كيف الحال ؟ سبحان مغير الأحوال . سبحان من لاينسى أو يسهو . إلتقينا بالقصبة . كنت في حجر موحو ،تتظاهر بخدمة ولي الله ، والتفاني في العبادة على طريقته وتتلهف لأعقاب سغائر الحشيش ، ولمداعبة أفخاذ الحشاشين ، والنوم بين أيديهم ، أو الجلوس عارياً بينهم . كان إسمك هنالك ، « نعمة ربك » .

إستدرجتك ، فخرجت معي ، قبل أن « تزطل » . شربنا شاياً في مقهى التلمساني ، ورحنا نتمشى ساعات على الرصيف . تأملنا البواخر الراسية ، وتحدثنا عن عواطف البحارة ، عندما يشتد هيجان البحر ، وتغيب اليابسة عن أبصارهم . قلنا أنها « زطلة » . حالة « زطلة » مهما كان الأمر . كما تحدثنا عن البواخر الإنكليزية التي يفرح بها حشاشو القصبة ، إذ لاتخلو من غلمان حجم أثدائهم يفوق العادة ، تساءلنا عن مصدر الكهرباء ، وعن مستقبل الإنسان ، عندما يسيطر تماماً على الموجات . كنت تسمع أكثر مما تتحدث ، ويقين أنك كنت تنتظر أن أراودك ، لكن بادرت ، إثر حديث البحارة الإنكليز مباشرة ، أصحح نظرتك لي . سردت سورة يس ، وسبح إسم ربك ، وقرأت بسهولة ، عموداً من صحيفة كانت بين يدي . صحيح أن النحو والصرف ، بالنسبة إليك ، لامعنى لهما ، وأن طريق القراءة غير معبدة . بل وجبلية . ترفع وتخفض وتنصب وتجزم كما يصادفك . لكنك ، كنت بالنسبة لي وجهاً جديداً .

بدأت تظهر على الخشبة رويداً رويداً ، يتغير موقعك في كل مرة ، حتى بلغت دور الفدائي . كم كنت رائعاً في أدائه ، قلت في نفسي ، معركة الجزائر لايحسن أداءها غير أبناء القصبة . تلقيت باقات الزهر . هتافات . هتاف من موحو المزطول مازلت أذكره : وأما بنعمة ربك فحدث . صدق الله العظيم . جاءتك رسائل الإعجاب والغرام ، صور لتوقعها ، تسابقت العذارى في إقتناصك ، تفانت الممثلات في الوله بك . ذقت كل إهتزازات الأسرة ، وتلمست حساسيتهن في مختلف الأعمار . إشتريت سيارة ، أطلت شعر رأسك ، أطلت لحيتك .

ها أنت ذا بدورك رجل . نسيت « موحو » والطريقة ، ونعمة ربك ، والحشاشين وعالمهم ؛ وعمليات الإمتصاص الطويلة . تتحدث عن جانب الضعف في شخصية هذا الوزير أو ذاك ، بعد الكأس الثالثة ، أو أمام كل إمرأة جديدة في المجلس . لا تقول مثلهم الرايس ، وإنما تجهر مزهواً فخوراً : بابا الرايس ، بدورك ، تتحدث عن الطبقة العاملة ، عن التسيير الذاتي ، وقرارات مارس التاريخية . صحيح أنك تبالغ في إتباع التقليعة في اللباس ، وفي النظارات بصفة خاصة ، وفي كيفيات عقد ربطة العنق ، وما زلت تتعطر أكثر مما يجب ، لكنك ، وفي عمومك ، تدور في فلكي . تحضر الدروس المسائية . تتابع الأفلام ، تلهث وراء مجالس المثقفين .

إسمع يامجيد . عندما تمر على بناية ساهمت ، عاملاً أو مهندساً ، في بنائها ، ألا يجب عليك أن تقول : ها هنالك شيء ما مني . شيء من ذاتي وكياني ، تحول دون أن ينفصل عني إلى جزء لايتجزأ من هذه البناية ؟ هاهنا كياني يمتد ويتواصل ، ويربطني بالزمن . فما تراني أقول ، وأنا أسجل أنك لاتختلف عن مجالس الأسرة . تتفاعل . تتناغم . تنسجم .

تضيف . تستضيف . تتوحد. ترفع صوتك علي أحياناً ، فينهرك أحدهم ، وأغمرك ببسمة الأب .

لا . لن أخدع فيك ، مهما كانت الظروف ، ولن أنسى نعمة ربك .

عليوات ! كيف حالك ، عليوات ، يارفيق الدرب والساعد الأيمن ؟

لم يبق من التينة ، غير عرقين حيين . أنت وأنا . قطعوها . أحرقوها . حفروا تحتها وراحوا يقتلعون جذورها ، ثم زرعوا الملح حولها . لكن عرقين إثنين ، فلتا . كان لابد من ذلك ، فإنبعثت التينة من جديد . نمت أغصانها ، وإزدهرت ، وباتت تعطي الظلال والثمار .

عندما كلفت بإنشاء الفرقة الفنية للثورة ، كنت أول من لبى النداء ، هجرت مونبارناس ونهج « لاقيتي » ، وسلمت في مكاسب منتج بالتلفزة الفرنسية ، وإستجبت . طلبت عطلة مرضية ، ركبت الطائرة . باريس . جنيف ، رومة . تلفنت من هنالك .

- بروموثيوس .

ذكرني صوتك ، بإسمي لدى جمهور باريس ، فخفق قلبي . كنت بتونس ، وبالذات بالحي العتيق منها ، باب سويقة ، بجدرانه المهترئة ، وأبوابه المتآكلة الحزينة . خفق قلبي وهزني الشوق إلى مونبارناس ، وإلى كأس باستيس .

- آه . من هناك . عليوات . أينك ياعليوات ، تأخرت كثيراً .

- في روما ، بالطريق إليكم . غداً إن شاء الله أكون عندكم .

- اليوم ، يارجل ، وليس غداً .

- تعرف الطائرات ، ثم إن ترتيب أمر سفري ، ليس بيدي .

- تعلم .

- ليتك كلمت من باريس ، فتحضر لي أصل العائلة لأنغلس .

ـ سأشتريه من هنا . تعرفت على مكتبة ، تبيع كتباً بجميع لغات الدنيا . لاتغتم .

حاولوا سجنك ، بمجرد وصولك ، فقد سبق ملفك ، عليه باللون الأحمر وبالخط البارز ، « عضو بالمركزية العامة للعمال . أحمر » . تدخلت ، تدخل كل أصحاب النوايا الطيبة ، وتدخلت بعض جهويات ، وحساسيات عرقية . لم يسجنوك ، في إنتظار ان يذبحوك ، إنما أرسلوك إلى مركز التدريب . قرروا إلحاقك بالوحدات المسلحة . كانت المعركة صعبة . إختطفوك من الفندق ليلاً . غبت . إختفت آثارك . لاباريس صارت تنبىء عن أخبارك ، ولا رومة تبشر بوجودك .

بعد شهرين ، عثر عليك في « ملاق » ، بالحدود التونسية ، تسير في صف طويل ، بالخطو المنتظم ، الموزير على كتفك ، وأنت تهتف مع الهاتفين من الأعماق « من جبالنا أطلع صوت الأحرار ينادينا » .

عدت بك .

سكرنا ليلتها ، بالبوخة ، في غرفتي ، قلت لك ، الشرب ممنوع ، ممنوع تماماً ، وقد يكلف الحياة ، خاصة بالنسبة لذوي السوابق أمثالنا ، لكن لنتعاون على خنق ديدمونة بوسادة الحرير .

إستيقظ أبو نواس فيك ، فحاولت أن تخرج عن الموضوع ، لكن سرعان ماغلبك النعاس . كنت تقسم أن لاتنام على هذا الجفاف الذي لازمك طوال هذه المدة ، إلا أنك سرعان ما إنهمكت في الشخير . لم تعتذر في الغد ، بل ، تجاهلت الموضوع تماماً ، وإكتفيت بالحديث عن قوة مفعول البوخة ، التونسية ، وتقارن بينها وبين الريكار ، والكريستال ، وتؤكد أنك لم تذق الفودكا بعد ، وأنها إذا كانت في قوة البوخة ، فستحتاط لها ، كل إحتياط . تركت أمر الإحتياط مبهماً . قلت لك ، سنحتاط

جميعاً ، هذه المرة .

بدأت الفرقة ، تأخذ شكلها ، شيئاً فشيئاً ، على نغمات الدهماني ، الذي راح يطرق الذاكرة الشعبية ، في الأوراس وسفوحه ، « ياعين الكرمة وأعطني الأخبار على الطفلة الشخمة ، ومنها ضاق الحال » ، و « طيطة ياطيطة غريب وبراني ياطيطة » ، « والطلاب يطلب ربي ، جواد الموالي ، واللي حبوه أهل الله يرزقوه في فج خالي » لم نجد مغنياً في مستواه ، لكن مزماره الذي لم يكن من شمع ، وإنما من دم ، كان يغني عن كل مشحون الكلمات . كان وحده ينطق ، فيفهمه العالم أجمع .

ولدت « أبناء القصبة » ، و «الخالدون » ، وبرزت الإيقاعات واهتزازات وجدان الأجداد ، فبان الوجه الحضاري للجزائر ، بدأ العالم يتذكر ، أن الجزائريين كانوا جزائريين قبل أن يأتي إليهم الفرنسيون ، بالأمس القريب ، القريب جداً ، هذا الذي مازال الدهماني ، يغرف أنفاسه الحرى منه .

لم تتغير ، عليوات . الشيب وحده يلفت الإنتباه ، إلى مرور السنين ، وضخامة التجربة ، أما القلب ، أما الروح ، فما تزال فتية . أتذكر ، صاحبنا الوالي ، الوزير . كم تعبنا في عملية صقله ، وإدخال التغييرات على ملامحه ، وصوته ، وحركاته ، أثناء كل مسرحية . كنت تقول أنه خشبة ، لاتنشر . قولبناه ، بعد جهد ، فلم نصنع منه ممثلاً ، إنما إنتهازياً ، يتقمص شخصية الذل ، والتملق . لك الحق . نظرتك إليه ، كانت أصدق من نظرتي أنا ، فقد كان موهوباً ، لكن لم يكن بالمرة فناناً . أتذكر ، يوم قرر قتلك في بيكين ؟ ظل يحمل الخنجر ، ويتربص بك . ليلتها نمنا معاً في غرفة واحدة . لعلك بالغت في سقيه مشروب اللفت الآسيوي العتيد ، أطفأنا النور ، ونمنا ، لنفاجأ به صباح الغد ، يستل

الخنجر ، ويهجم عليك . فهم الجميع ، ماوقع في الليل ، وقدرنا كلنا الموقف . عرفنا أنك تدحرجت من تحت إلى فوق . . لكن لا أحد سواه ، وسواك ، يمتلك الحجة والدليل .

أنت جزء من التينة ياعليوات . لن تموت . لن أموت . سيظل مولانا ، بروموثيوس ، حياً . لن نذوب ولن يرعبونا .

صالح ، مهندس الضوء العظيم . أهلاً بك .

كنت لاجئاً ، تتأهب للفرار من الخيمة ، والأسرة الصغيرة ، فتلتحق بوحدات جيش التحرير . إستصدرت أمراً لأبيك ، فإنتزعتك منه . كنت تعشق البطاطس ، طيلة ثلاثة أشهر ، لاتطلب إلا « بطاطا باللحم » ، ويوم أقسم عليوات أن تأكل طبقاً آخر غير البطاطس ، بكيت . بدأنا في الأول بوسائل بدائية ، وإضاءة بسيطة . نور . ظلمة . نور عادي . نور خافت . نور قوي . ظلمة . أبيض . أسود . قرمزي . أصفر . أزرق . أحمر . نور . ظلمة . بدأت تخترع ، بدأت عبقريتك تتفتق . حتى في هذه الجلسة ، وفي كل مثيلاتها ، كلامك ، يلعب دور الإضاءة ، لكل الزملاء . تستر عيب هذا ، تخفف وطأة ملاحظة في غير محلها . تهدىء إهتياجاً ، تخشى تطوره . بسمتك ، دائماً ، هادئة ، وبصرك بإستمرار جوال . روحك متيقظة ، وبديهتك ، حاضرة . كلما ، حصل لي إضطراب ، قلت في نفسي ، لابأس . سيغير صالح النور ، فلا ينتبه ، الجمهور .

كيف حال البطاطا ؟ حتى في موسكو ، طلبتها . أتذكر حادثة الجورجي ، في مطعم باكو ؟ قلنا نهرب ليلتها من الفرقة ، ومن الرسميات ، ومن الذين يبالغون في الشرب . جلسنا . أولغا . أنت . أنا . على طاولة يجلس إليها شخص أصلع . حيانا ، ثم سأل عنا ،

ورحب بنا ، بطلب قنينتي شامبانيا ، واحدة له وحده ، وواحدة لنا جميعاً ، ما أن أنهيناها ، حتى راح يحتج على تباطؤ النادل . طلب هذه المرة أربعاً دفعة واحدة ، تفادياً للتباطؤ ، كما قال . إندهشنا . إعترانا الخوف والظنون ، غير أن أولغا ، طمأنتنا بأن المسألة جد عادية ، بالنسبة للجورجيين ، الذين يفنون أعمارهم . في تأكيد كرمهم . ملأ كأسه ، ورفعها : في نخب الصداقة بين الشعوب . تبعناه . في نخب السلام على الأرض ، تبعناه . في نخب إستقلال الجزائر . تبعناه . في نخب السيدة الجميلة ، الوحيدة التي تجلس إلى مائدتنا . تبعنا . نخب ستالين . تبعناه . ظل يرفع عقيرته ، وكأسه ، وظللنا ، نرفع كؤوسنا ، ونتبعه . هات يانادل . خذ يانادل . وإختلطت القناني ، الفارغة ، بالملأى ، والفودكا بالشامبانيا والكونياك . سكرنا قبل أن نتعشى ، بينما ظل الجورجي الأصلع الأصيل ، ثابتاً في موقعه ، مصمماً ، على أن لايخرج كوبيكا واحداً إلا من عنده .

ماأطيبها من ليلة .

تنازلت أولغا عن وقار العلماء ، فضحكت كثيراً ، وفي الفندق ، غنت لي « أنت عمري » .

نزعت معطفها ، وتأملت ساعة يدها .

ـ لامجال للعودة . الوقت متأخر جداً ، ولن أجد سيارة . أتأذن لي بقضاء الليلة في غرفتك .

طارت السكرة ، وزال كل أثر ، لكرم الجورجي الأصلع . توهج بياض جسدها . مستني رعشة العضلات الفائرة .

عرفت لحظتها أن أولغا ، تحبني ، وأنني سأسكن بها إلى يوم يبعثون .

صالح . كيف تحولت « ياواحد الخبيث » ، إلى صقر أحمر ، يتكتم ،

يعرف فائض القيمة ، والمادية التاريخية ، وحتمية إنتصار الإشتراكية في العالم أجمع ؟ أين مستك اللوثة ، ياصالح ؟ أين وقعت ؟ أفي بيكين ، أم في موسكو؟ ضاعت بيكين ياصالح ، الفلاحون لم يصمدوا للنظرية العلمية ، ياصالح . سألتني ، على ما أذكر في بلغراد ، فأفهمتك أن الجبهة ، لاتتسامح في هذا الأمر . تعادي الشيوعية ، وتقتل المنتمين إليها ، كما تقتل الخونة ، وأعداء الثورة . ترصدهم ، وتطاردهم في كل مكان من العالم .

ـ لماذا ؟

سألتني ، فلم أجد ، ما أجيب به ، سوى هذا :

ـ « الأم الجحود ، تأبى أن تبيح للإبن سر بنوته ، والأب الماكر يستدرج ، الإبن إلى العربة الجانحة ، ذات الخيول المجنحة الأقدام . . » ، القضية ياصالح ، تتعدى عقدة أوديب ، وتتجاوز سرقة النار ، وأكثر من حقد « هيرا » على « أيو » ، وإختلال التوازن بين داناؤوس ، وبناته الخمسين ، وبين إيجيبتوس ، وأبنائه الخمسين . . أو تعرف « المستجيرات » ، أحد أسرار بروموثيوس ؟

ـ لا . لا . يكفي أن أعرف الضوء وألوانه . لادخل لي في داناؤوسك أو غيره .

ـ كيف كتمت سرك حتى الآن ؟ وفي أي مستوى قيادي أنت حالياً ، ياصالح يامهندس الضوء ، هل تنبأت يوماً ، بطريقة مصرعك ؟ وهل ظننت في يوم من الأيام ، أن العاشق يمكن أن يخفي عشقه إلى الأبد ، مع أن العشق ماخلق إلا ليظهر ؟

صالح ! هل تستطيع أن تنسى ، هذا الوجه ؟ ملامحه . تقاسيمه . تقاطيعه . تعبيراته ؟ ألا يحضرك من حين لآخر وأنت ترسل أنوارك في

غيابه ، على ملامح تحاول ، عبثاً ، أن تكون صادقة ؟
وداد . فطوم . سلوى !

أيتها القطط الأليفة . من أغواكن ؟ لا . أكون جحوداً إذا إستعملت الغواية . كلا ، ومليون كلا ، فالمغويات والمغويون في هذا البلد كثيرون . لكن أن تختار « الريميتي الغليزاينة » ، الغناء بالذات ، وتظل تصدح وتصدح بتباريح جروح قلبها ، تضمد صدرها ، وصدور عاشقيها ، وكل المهانين والمهانات عبر التاريخ ، فهذا مايفوق ذاكم الشيء الشبيه بالغواية .

في كل نفس بشرية ، معدن أصيل ، والروح الحية ، هي التي تنساق وتنجذب لقوة أصالة المعدن ، ولقد كان في إمكانها « الريميتي » أن تتزوج من أثرى أثرياء الغرب الجزائري ، وأوجه وجهائه ، وأجل ضباطه وموظفيه ، وكان في إمكانها أن تجمع أكبر ثروة ، وأن تبني قصوراً وعمارات ، وتمتلك عبيداً وجواري ، لكنها ظلت تتطاول . تتجاهلهم وتتطاول . تدوس على أعناقهم ، وتتطاول . تراهم منبطحين ، يلثمون أقدامها فتتطاول . تصدح وتصدح . صاحية تصدح . سكرانة تصدح . «أتوشم في الصرة. الضرة مرة. أنوشم في ظهري. هذا ماأعطاني زهري » . تعلم الريميتي يابنات ، أن عشاقها ، لايحبون فيها المرأة ، فالعالم مليء بالنساء ، إنما يحبون فيها التميز والتفرد الإنساني . عشتروت ، عليس كوثير التي تسكنها . تغترب إلى الشيء الذي يسكنها ، ويميزها ، فتعشقه بدورها . تفرغ كأسها فتستزيد . تسكر فتستزيد . وتتوجه إلى الذات الكلية ، منطلقة فيها ، هاربة منها ، وتصدح : « آه وإذا مت . . إبكوا على الريميتي ورحموا » . تعلم الريميتي يابنات أن ماتعطيه يفوق حد ما تعطيه المرأة العادية . العالم مليء بهن ، لكن البشريات فيه قليلات .

لاتحاول أية واحدة منكن ، إبراز الأنوثة فيها ، إلا بقدر ماتتجاوز حد الرجل والمرأة ، وما يمكن أن يجمع بينهما ، وتقترب من سحر المزج بين الذات والكون . لاأستطيع أن أفصل في شأن كل واحدة منكن ، فأنتن لاتثبتن بمكان ، ولا تتحن لي جمع خيوط كل واحدة بمفردها ، ثم إنكن ، وإسمحن لي على صراحة الأب والأخ الكبير ، ما تفتأن تستحممن ، في نهرها . نهر أولغا العظيمة . نهر الإحتواء والشمولية .

إنها أولغا، تغفر لكن الزلات. أولغا تبارك فيكن الإنسان.

آه . ماأشد ماكانت حياتي ، تمتلىء بنا . . حتى في حالة تفاقم أنانية الواحد منا .

أغتر أنا . أنتصب مظلة تحجب عنكم أبداً الكون . تعيشون أتباعاً في الظل ، أو تموتون .

ينبهر أحدكم بتصفيقات القاعة له ، فيقرر أن ليس بينه وبين العملقة ، وملء الدنيا ، سوى الرايس . يوجه له نظرات الحقد والبغضاء . ويغتاله سبعين مرة في الليل قبل أن ينام ، إلا أنه سرعان ما يستسلم لنداء الفنان فيه ، لنسغ التينة التي إنبثق منها ، فيرى في الرايس ، مجداً وطنياً ، لا يمكن التفكير في نكرانه ، أو في البناء على هامشه .

تستيقظ الثقافة والحضارة في النفس ، فتستصغر حالها ، أمام ضخامة التراث الإنساني .

أنتم . جميعكم . بقوتكم ، بضعفكم ، بإنتصاراتكم ، بهزائمكم ، بالحقد والغرور ، وبالتواضع والتسامح ، بضيق قلوبكم ، وبسعتها . فنانون . تتشكل نواة الحق والخير والجمال ، في هذا البلد منكم .

لكن لم تخليتم ، عني ، بمجرد إستسلامي للقرار . بمجرد أن أدركتم أن التاج الذي على رأسي ، لم يصمد أمام حمق نيرون . لقد إحترقت روما

على يديه ، حريقاً بحجم التاريخ ، فهل زال مجد روما في يوم من الأيام ؟
أسألكم . أسألك يا صالح ، ويا بنات ، ويا عليوات . ويا بو علام .
أسألكم جميعاً . لم تخليتم عني . لم تركتموني وحدي ؟

شيئاً فشيئاً ، بدأت سهراتنا تقل . بدأ الكثير منكم ، يتخلف عنها .
شعر البعض منكم . شعرتم جميعاً ، في الحقيقة ، أن المسألة ذات طابع
إنتقام بين المدير القديم والمدير الجديد ، « مجيد » ، « نعمة ربك » ،
الذي أضحى إسمه مقروناً بسي .

أفرغتم غرفتكم . تركتم الغبار ، يتراكم على أرائككم . نيستم عادة
السؤال ، هل إستيقظ الرايس ؟ هل وجد مايأكله ؟ هل أعد أحد
قميصه ؟ هل سوي سريره ؟ هل لاطفه أحد بالحديث عن أولغا ؟
نيستم ، حتى التهنئة بالأعياد .

آه . أيها المتخاذلون . رأيتم أكمة ، فتصورتموها في لحظات الخور ،
حطاماً لجيف ، ورحتم تتجنبونها . تنسونها .

نسيتموه . الرائحة اللقسة ، ملأت أنفاسكم ، فأحطتم بها ، دون أي
تأمل للوضع !

لم تعمر غرفتكم هذه ثلاث سنوات . ما أقبح فعلكم . ماأقسى
قلوبكم . ما أرذلكم . توهمتم أن التينة تموت ، بمجرد قطع جذعها أو
إحراقها . لو كنتم جذوراً أصلية في التينة ، لهزأتم من العالم أجمع ،
قائلين :

ـ بروموثيوس لايمكن أن يموت ، لأنه يملك سر موت الآخرين .

لكنكم ، توهمتم أن الفنان يمكن أن يقتل . مولى التينة ، يمكن أن
يقتل ، فرحتم تتباكون ، وتذبلون .

آه ! ما أشد شوقي إليكم جميعاً . وما أشد حبي لكم جميعاً .

الكابوس

عنـدمـا ، غادر ، محموماً ، قاعة الجلوس ، أو غرفة التخاذل ، بعد غرفتها ، لاأحد ـ وفي الحقيقة ، لم يكن هناك أحد غيره ـ إنتبه إلى عدد الـطنـات في السـاعة السوفياتية ، النابضة بالحركة ، في الجدار الميت ، مرسلة تكتكـة ، متنـاغمـة ، مع حركة الزمن ، وتواتر الذات الكهربية للكـون ، ومحـدثـة أصـواتـاً موسيقية ، رغم رتـابتها ، فإنها تملأ المنزل الفسيح ، بنبض الحياة ، وتبـدو أشبـه ماتكـون بطفل وحيد ، لدى أم مهجورة ، كل مافيه ، حتى الإزعاج ، الذي يسببه مرضه وإرتفاع الحمى المفاجىء ، يؤشر إلى صلتها بالزمن . بالحاضر ، بالماضي ، بالمستقبل . إلى غريزة الإمتداد ، والتواصل والتجدد والتفاعل الكونية في المادة . إلى الضعف في الكائن البشري ، الذي لابد أن يأتي يوم يتأله فيه ، يمتلك فيه كل الأسرار ، فيستغني عن رحمة من كائن آخر ، بجرعة ماء ، على فراش الموت ، أو العجز ، أو مد يد نجدة عند السقوط ، في حفرة ما . تنقـطع دقـات الـطمـطام الأفريقية ، حول أسد محاصر ، في حاجة إلى حصـار ، أكثف ، وأضيق ، وإستغاثة المرأة العربية ، مولولة ، تتناقلها صخور الوادي « وينكم يانشامة » ، أمام غارة الغرباء ، وسريان الرعب الأزلي في العروق . تموت البدائية ، وينـقضي عصر مئات ، وآلاف الخلايا العـاملة في المـخ ، ليحـل عهد الملايير . عهد التوحد الكلي مع الذات

الكهربية للكون . مع الزمن فلا يبقى هناك ماض وحاضر ومستقبل . إنما النبضة الواحدة ، التي هي إرادة الإنسان .

لربما طنتان ، لربما ثلاث ، لربما أكثر ، عندما وجد نفسه ، يتناهض ، مهزوماً ، مبتل الوجنتين ، مرتعش الأوصال ، مقشعر البدن ، ويسارع إلى إطفاء الأنوار ، ودخول الفراش .

كان إلى جانب كل ذلك ، حزيناً . حزيناً جداً ، لكنه ، لم يكن يشعر بأي يأس . مولى التينة أبعد مايكون عن متناول أيدي الأعداء والخصوم . إنه هنالك ، في صلب الذات الكهربية ، وإلا كيف لم ينتبه زيوس ، إلى أن إستلال قلب بروموثيوس ، يكفي ؟ إنها لعبة مكشوفة بين إثنين . بين عارف الحقيقة ، وبين الخائف منها . بين من يمتلكها . من تكشفت له فإمتلكها ، وبين من يريد شراءها لتشويهها .

لعبة العذاب .

يتحمل جسم بروموثيوس ، لسع السياط ، ونهش الكواسر ، وكي حمم البراكين . يتلقى ، ذلك ، ويتحمله ، وتتحمل روح زيوس ، آلام إنتظار ، مصير جهل الحقيقة .

الجلاد يدرك أن نهايته حتمية ، بينما تتأكد الضحية من خلاصها . هات ، وهاك . هات الجزء ، وهاك الكل . الحقيقة هي مولى بروموثيوس ، وهي ملك له وحده ، يحلو له أن يوزعها على الجميع ، ماعدا ، زيوس . لذا لم يخش الموت . لم يدمع . لم يذبل . لم يشعر بالفناء يداهمه ، أو باليأس يتهدده . يعرف أن الجذور ، والعروق ، ستظل تنبثق ، وتنبثق ، لتؤكد للنور ، أن الحياة تدب فيها ، إنها تشترك معه في الحياة . في الإتصال ، بالذات الكونية .

على عكس ماكان منتظراً ، قرر الرايس ، أن لا يتنازل عن قيادة

المـركبـة ، حتى وإن كانت جانحة ، ذات خيول مجنحة الأقدام ، على الـرغم من الحسرة التي بعثهـا المتخـاذلـون في نفسـه . لم يأذوه ، بقدر ماأشعروه ، بأنهم آذوا أنفسهم . سلموا في الحقيقة ، تركوها تفلت من بين أيديهم على أمـل أن يجدوا ، أن يصادفوا ، في مواقع حوافز البقرة ، في طريق هروبها الطويل ، تحت وطأة لسع الذبابة ، جزءاً منها .

سلمـوا في بروموثيوس . شذوا عن سكان كهوف ومغاور الأطلس ، ولعنوه ، بدل أن يباركوا مأساته .

اللئام ، وحدهـم ، لايكترثون لإنتزاع الحياة ، لمغادرتها ، لجسم ما . ذلك أن حياتهم هم ، لاقيمة لها .

سأسحقهم . سأجتـاحهم كالـطوفـان فأطمرهـم إلى الأبد . أؤسس فرقة . أنا وفجرية ، وبعض شبان ، ربما عليوات يلتحق بنا . وأكتب لها أول عمل .

إبتداء من الليلة القادمة أشرع في تأليف مسرحية العمر . نعم .

أفكر بالحرف ، بدل أن أفكر بالتأمل . يتواصل بروموثيوس ، في معاناة أشيل جديد ، متجدد . طافت هامته في التاريخ والزمان ، والأجساد ، والأرواح ، وسكنتني ، لتظل ، خفاقة ، تواقة .

أصفع التخاذل . أدوس عليه . يدلع لساني ، من جديد ، في وجه زيوس .

ـ من أفوسك من لمسة يدك الخشنة ، تحبل البقرة بمن يقتلك . أيها الوغد .

نمثلها ، في كل مكان . تنشر ، بجميع اللغات ، أرسل نسخة منها إلى أولغا كي تترجمها . ستكون مقدمتها الأساسية ، العلاقة بين الذات والموضوع ، أو كما يقول المثل الشعبي « إكس خشبة ، تبدو جميلة » . نعم

أمـامي خشبـة ، لايكسوها الغير فحسب ، إنما تكسو نفسها ، بنفسها أيضاً . بل ، أخشاب ، وكم عرفت منها .

أكتب . نعم سأكتب . لقد قال لي فيما قال ، على ما أذكر : إكتب . أمرني حبيبي ، ولا شك ، بالكتابة . سأفعل .

ليظهـر عروة بن الورد ، وأبو العلاء ، وطه حسين ، وإبن المقفع ، وإبن خلدون ، وإبن رشد ، وإبن سينا ، والجاحظ ، وإبن عربي ، من جديد ، في هذا الصقع ، وهذا الصقيع .

كان ذلك ، لاهو بالعزم ، ولا هو بالإمتثال ، بين يقظة ونوم . لكن المؤكد ، أنه حديث ليل ، زبدة ، يطلع النهار فتذوب ، يقع لها ، ماوقع كل هذه السنين . لكن من يدري ؟ من يدري ؟ حبر وأوراق بيضاء ، وقلم ، وتصميم في قطع الخطوة الحاسمة ، كما يقول ويليام جيمس ، ثم « هوب » ، وثبة فإنتحار .

أصفي معـه الحسـاب . زيوس الكلب . عن عمد وعن تصميم ، وسبق إصرار . ثم من جديد ، أقف على قدمي . أستعيد ، بالأصح موقع القدمين . هنا كان . هاهنا . مايزال . وسيظل ، يشمخ ويشمخ ، فوق الأقـزام . لن يغيب عن الأعـين ، لن يحجبـه ضبـاب ، تنشره النفس الشريرة لايزيس . سيظل حاضراً في الأفئدة ، وسيظل يملأ الأنوار . لم تصفقوا البارحة ، وأول البارحة ، جزافاً ، لم أخدعكم في أية ليلة ، ولم أدجل في أي موقف . لم تفتحوا أفواهكم مشدوهين أمام هول العاصفة ، مسلمين له رقابكم ، ولم تركبوا معه السفينة ، وهما .

الرايس رايس ، والمركب مركب ، والبحر بحر . حاجتكم إلى الرحيل أكيدة ، وهـاهـو السر بين أيديكم . سرقتـه منه ، لأجلكم . خذوه . تفضلوا ، خذوه . إسموا فوق مستوى الفلاحين الحمق . تألهوا . تألهوا .

دقوا الصوان بالصوان ، وسترون . يفلت جزء من الذات الكلية ، يسري في المادة . تلكم هي النار . ذلكم هو السر . الطاقة . الطاقة . حركة الأرضين والسموات . . « خلقتني من نار ، وخلقته من طين » . و « نفخنا فيه من روحنا » . . و « تحول إلى رجل ـ إمرأة ، بذر في الماء بيضة ذهبية ، لمعانها كالشمس » . . خذوا . إليكم السر . فلا تتوانوا عن التأله .

نام ولم ينم . في حين كان في منتهى الإستسلام ، للحمى ، وللإسترخاء ، يتابع تكتكة الساعة السوفياتية ، ويلتذ لطنينها ، الذي يقترب بصفة أو بأخرى ، من طنين الإيذان برفع الستارة .

هاهي الستارة ترتفع . وهاهو ، منبطح بين ماء وماء ـ هكذا يخيل إليه ـ مشطا قدميه ، يتلقيان برودة ، ورطوبة ماء ما . أصابع يديه ، تغطس من حين لآخر ، في نفس الشيء . ماتحته يصعب تحديده بدقة . لاهو بالجمر ، ولا هو بحرارة رمل الصيف . أشواك حيناً ، وأوتاد حيناً آخر . ثلج وصقيع هنا . مسامير ، ومراجل هناك . العينان المغمضتان ، المغروزتان ، في شيء لايشبه أعماق السباخ ، ولا قار النفط ، أو الصمغ ، تلحظان في الوقت الواحد ، بدقة عجيبة ، تفاصيل الأعلى .

له رجل واحدة . لعلها ليست طبيعية ، من خشب ، أو من فولاذ ، أو زنك ، أو ورق ، أو رخام ، أو ماشابه . مع ذلك ، يتمكن من التماسك عليها بشكل طبيعي جداً ، وبتوازن يثير الإعجاب . له سبعة أعضاء تناسل ، بكل لواحقها . بطنه شفافة تطل منها ملايين البطون الشفافة ، العامرة بدورها ، بالبطون الشفافة ، العامرة . صدره مستدير . دقيق ومستدير . لاهو بصدر إمرأة ، ولا هو بصدر رجل ، أو حتى صدر ضفدعة ، به ثدي واحد ، في حجم بحر ضخم ، ذو سبع حلم . إلى جانب الصدر ، سبعمائة يد . ليس له رقبة ، ولا رأس ، ولا

أذنان ، أو فم أو أنف . أعلى الصدر المستدير مباشرة ، تنتصب عين في حجم كوكب ، ليس فيهـا سوى البؤبؤ . يبـول لبناً ، وطيناً ، ونفطاً ، ومنياً ، ومذياً ، وقطراناً ، وويسكياً ، ونبيذاً وبوخة وعرقاً . في كل يد من أياديه السبعمائة ، أداة مسلطة على الجسم المنبطح . بل ، إن كل أصبعٍ من أصابعه الأخطبوطية ، ملايين العلق العطشى ، منغرزة في كامل الجسم .

تنـزل ، مرة معـاً ، ومـرة منفـردة . النار . الكهرباء . السكاكين . الملح . الحامض . السيوف . النشاشيب . الرماح . السياط .

من يستطيع أن يحصي . سبعمائة أداة ، تنزل ، وتنزل ، كلما تعاقبت ، تسارعت أكثر ؟

لشد مايشبه ذلك ، محاولة تصور قطرة الماء الأولى ، في البحر ، وذرة الـرمل الأصلية في الصحراء . حيث تتحول عملية التمييز ، هنا ، إلى صرف خاطر ، إلى تلهي هروبي ، لتجاوز الوضعية .

الشـدي ينـز ، من حلمـه السبـع ، ومن خلال أذرع ، وأفـواه ، ومصـاصـات ، أخـطبـوطية ، بكل السوائل ، المعروفة وغير المعروفة . الحوامض مركبة . الرصاص وكل المعادن مجمعة ، القيح الدم ، الويسكي العرق، الغاز.

عينه تتبع بنشاط ، حركة ، كل مسام الجسم .

رجله . الشيء العجيب فيه فعـلاً . لاتعمـل على حفظ التـوازن فحسب ، إنما ، تسهم بنشاط ، في العملية فوق جسمي . تنتقل من الماء للماء . تدوس ، بتعنت وإصرار على كل ذرة في الكائن المنبطح ، ويبدو أنها على صلة وثيقة ، بمحتويات الأرض ، وتعمل بتنسيق بالغ معها .

كان . يصحب العملية ، الغناء .

أم كلثوم في الرباعيات ، أو ولادة في النونية ، أو فيروز في موشح ، زرياب أو سيد درويش ، أو الشيخ إمام أو حمام ، أو مارسيل خليفة ، لعلهم جميعاً ، في كورال واحد .

عبـد الباسط عبد الصمد، أبو العينين شعيشع، وآلاف غيرهـم، في يس ، والحاقات ، والكهف ، والقارعة والكوثر ، والناس ، في جنازة تشبه العرس وفي عرس يشبه الجنازة .

وكان . المتنبي يقرأ ، إلى جانب نزار ، ومظفر والعيسى ، وأبي فراس وابن تيمية ، المدح ، والهجاء ، والرثاء والغزل ، والوقوف على الاطلال ووصف الناقة ، أصوات تجمعت كلها في صوت واحد ، يخرج من دبره في شكل غاز كيماوي خانق .

تحمل الجسد المسكين ، كثيراً ، صبرت الروح ، وصابرت.تحملت كل شيء ، عدا أن تظل العينـان المغمضتان المغروزتان في الأسفل تلحظان بدقة تفاصيل الأعلى .

آه ، كم هو مسيء ومهين ومذل ذلك . آه لو أن الوهن النهائي يصيب بصر الجسد الطريح .

انبعث صوت قوي ، لعله من المنفذ الوحيد فيه ، كأنما يرد على الآهات :

« يتبعهم الغـاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمـون ، وأنهم يقولون مالايفعلون » ردد ذلـك ساعـات وساعات ، ثم توقف ، فجأة ، وكأنما يصغي إلي أسأله ، عما يضيره ، إذا كان مقتنعاً بذلك ، ليزأر من جديد :

« ولم لا تعدل ، وتكف ، عن أقيموا بني أمي صدور مطيكم ، وعن خفف الـوطء ماأظن أديم الأرض . . وعن القدح في بني أمية ، وترتيل القـرآن ، والقـول بالمنـزلة بين المنزلتين ، والله نور السموات والأرض ،

وأذكـروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم ، وأدعاء حداثة كلام الله ، وبخلود آتي الكبيرة في النار ، وأمرهم شورى ، والرحمان على العـرش استوى ، ويده فوق أيديهم ، ثم أن رضوان ، مهما غالط الأعمى ، وسواء أكان ممنوعاً من الصرف أم لا ، عربي ، من قحطان ، وليس من عدنان ، لم يكن هناك ، أصل لقبيلة ، أو لطائفة أو لملة ، أو لمذهب لا لكنعـانيين ، ولا لآشـوريين أو فراعنـة أو بربر ، أو فرس أو أعاجم ، أو أحباش كل من تكلم لغتكم فهو منكم . حسان تاب وكتب الوحي ، زهير ابن أبي سلمي أخرس ، المغنون والمغنيات ، لم يوجدوا في المدينة أطلاقاً ، وخالد بن الوليد ، لم يوقف حرب الردة إكراماً لعيون امرأة ولتجربة في العشق ، وعمر بن الخطاب ، كان يعني شيئاً آخر لن تفهموه خير أمة أخرجت للناس . خير أمة أخرجت للناس . إذا مااعترفت بكل هذا ، بهذا فقط ، أرحتني بتـذاويـك في الأرض ، بين المـاء ، والماء ، وأرحت رجلي وأتحت لي فرصة الاستلقاء .

كان الحـوار يتواصل ، بجميع اللغات ، وبجميع الأساليب وكانت الساعة السوفياتية ، تشاغب بطنينها ، الذي يتحول الى زمزمة رعد ، تهز سكون الليل ، وكان الجسم المنبطح ممتد الأطراف ، بين الماء والماء ، يعاني من وعيه الحاد ، بالزمان والمكان .

يذكر لمن يكون هذا الجسم . وفي امكانه ، أن يسرد اسمه ، واسم سعد الله ونوس ، وممدوح عدوان ، سعدي يوسف ، وفريدة النقاش ، وألفريد سمعان ، وغائب طعمه فرمان ، وجمال الشرقاوي ، ومحمود أمين العالم ، وعبد المحسن طه بدر ، وحمده خميس ، وعبد اللطيف اللعبي ، كما في امكانه أن يتلو ، والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها . . وتبت يدا أبي لهب ، ماأغنى عنه ماله وماكسب . ويتحدث عن الحلاج ، وابن عربي

ويمـزق الجبـة ، لكي لايبقى هنـالك شيء آخر ، سوى نور السماوات والأرض ، وبالاضافة إلى ذلك ، يعلن عن عدد طنات الساعة السوفياتية في غرفة التخاذل ، واسم وزيره ، وأسماء بعض ضباط المخابرات ، واسم السـائق واسم كاتبتـه الخاصة ، نجاة ، واسماء مساعديه من الشعراء ، المتحـاشين لكل مصدر ، معاناة ، المتخمين بالنقود والوظائف ، وأسماء الغاضبين في باريس ، ولندن ، يشربون ، دون أن يرتووا محاولين عبثاً ، اطفاء حريق ، شب في قلب أبي ذر الغفاري ، هذه قرون ، ويتحدثون دون أن يسمعوا ، ويأكلون دون أن يشبعوا ، أكثر من ذلك ، بامكانه ، أن يتحدث إليه هو الجثة الضخمة ، ذات القدم الواحدة السيلوفانية ، والعين الواحدة الخزفية ، عن امارة موناكو ، وعن عدد كيلومترات السكك الحديدية في الربع المنخفض ، مع مقارنة ، بينها ، وبين نظيرتها من الماء للماء ، عن تاريخ تأسيس الأمم المتحدة ، وتاريخ اعلان حقوق الانسان .

المصيبة . تكمن هنا . في منزلة وعي الإنسان ، بين اليقظة والنوم ، بين التفكـير المنطق في أمره ، وبين المعايشة الاجبارية للكابوس . بين المعرفة الموضوعية للحالة والمعايشة العاطفية لوقعها .

ارتفع صوت مرعب ، يهز الأوصال ، وخيل إليه أن الهيكل الضخم ، ذا العـين والرجل الواحدة، قد طعن بحربة ما، في عينه. شعر بالخوف الشـديد . همد لحظات جامـد الأنفاس ، الى أن تبينت بعض عبارات الصوت المرعب ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح .

ثلاثة مساجد ، رغم أن لكل واحد منها صومعة تناطح السماء ، فإن المؤذن لايكلف نفسه ، اطلاقاً قطع الدرج ذهاباً وإياباً ليعلن من هناك ، بصوته الإنساني المهموم ، كما كان بلال يفعل ، الصلاة خير من النوم .

لقد استعد احدهم الاستعداد الكامل ، وأدخلوه غرفة معزولة ، ووضعوا أمامه آلات وراح يسجل في اسطوانة سوداء ، من مادة قابلة للالتهاب والانكسار ، الأذان كاملاً ، ثم قبض نقوداً وهاهم يكتفون قبل أن يستيقظوا تمام الاستيقاظ بمد أيديهم من تحت اللحاف ، والضغط على زر ، لتمتلىء السماء ، بصوت بلال المشوه ، ولشدة مكرهم ، وحرصهم على أن يتميز كل مسجد عن الآخر ، وكل آذان عن غيره ، لا يديرون الأزرار في الوقت الواحد ، رغم أن ساعاتهم ، التي لايفعلون في الحياة ، سوى النظر إليها وضبطها ، لاتختلف في توقيتها،ينتظر أحدهم ، حتى تقترب اسطوانة الأول من التوقف ، ليضغط على زره ، فيملأ السماء من جديد ، وكأنما يهمه أن يقول : نحن أيضاً ههنا ، وليس الله أكبر الله أكبر .

لينقطع كل شيء ، الأفضل أن ينقطع ، الآن . وليس بعد،الاستماع الى تكتكة الساعة السوفياتية ، في غرفة التخاذل ومتابعة أصوات المآذن الثلاث ، تردد كلاماً واحداً ، اتخذ منه رهين المحبسين ، موقفاً هذه قرون ، والتجاوب مع الهيكل ذي الرجل الواحدة ، المنتصب فوق الجسم المنبطح من الماء للماء ، والوعي الكسول بالذات ، وظروفها ، ومحيطها ، وحوافزها في الشروع في تأليف مسرحية عن علاقة الذات بالموضوع ، عنوانها تجربة في العشق .

هذا قرار اتخذ منذ سنوات ، وسينفذ الليلة القادمة ، مساء نهار اليوم بالأصح .

ليعشق المرء ، بدل أن يثرثر ، في الحديث عن تفاصيل التجربة ، يذهب السائق المتواعد معه على الساعة الثامنة ، الى الجحيم ، ولتظل نجاة سيدة الهاتف كامل اليوم أيضاً وليناور الشعراء ، من أجل الوصول

الى الديوان ، ومن أجل دعوة رؤساء تحرير المجلات الأدبية ، « الآداب » و« أقلام » و« المعرفة » ماأمكنهم ووسعهم ، ولتغلق أبواب المسرح الوطني في انتظار فتح منافذ النجدة ، وليتلاش الجسدان ، المنبطح فوق المسامير والأوتاد الحادة ، والرمال الساخنة ، ومداخن البترول ، وأشجار االأرز ، والصنوبر والواقف على الرجل الواحدة ، ذو الأعضاء المتعددة .

المعشوق ينتظر .

عله في حاجة أكيدة إلي ، يحيل علي أسلاك الهاتف التي يحملها ، أو يقول خاطرة ، عنت له في الليل ، وفي عنت الوحدة ، أو يرسم قبلة الرضا على جبيني .

مالله لله ، ومـالقيصر ، لقيصر ، والليل والنهار علاقة نسبية بين توتر الأعصاب ، وبين ارتخائها ، وهنالك في القطبين ، ليل لاحصر له ، ونهار لاحصر له ، كما أنـه في موسكـو ولينـين غراد ، مايسمـونه خطأ الليالي البيضاء ، وهي في الحقيقة أيام رمادية أو أنهر زرقاء .

لم يأمر حبيبي بلباس معين ، أو بهيئة خاصة ، استوى الماء والخشبة ، والطالب والمطلوب .

اشتعلت الأنـوار وانـطفـأت . انفتحت الأبواب ، وانغلقت قطعت المسافة المكانية والزمانية . التحق العاشق بالمعشوق . التأمت الروح بالروح .

بوركينا فاصو تتدخل

سلاماً ، صاحب الزمان والمكان . سلاماً ، عارف الحق . برد العظام يزول بالنسغ . عطش الروح يرويه ريق النحل . وحشة الدم تذيبها ، حرارة العودة إلى النبع .

لم تسطع الشمس بعد . لكن ما الحاجة إليها ، عندما لا يكون هناك ظلام .

تعرف العين موقع القدم ، وتعرف القدم أنها في غنى عن موقع .

تأخذ الذرة ، حجمها الحقيقي في الكون ، وتضحي المدارات أمواجاً ، فما الزمان سوى المسافة بين نقطة ، ونقطة ، بين بداية ونهاية . بين ميلاد وموت ، بين يقظة ونوم . وحين تضحي الأمواج في اليد ، ويكون المسافر في كل من البداية والنهاية ، تزول المسافة ، ويتوحد العاشق بالمعشوق .

ـ كيف يرى العاشق المعشوق ؟

ـ العاشق ليس في حاجة إلا لأن يحس .

ـ بكم رجل يتصوره ؟

ـ التوازن هو الأساس .

ـ بكم رأس يجده ؟

ـ الرؤية أهم مميزات الرأس .

ـ بكم يد يظن أنه يعالجه ؟
ـ الشعور بالاحتواء ، يغني عن إحصاء عدد الأيدي .
ـ كم ثدياً ، يلهث لسانك ؟
ـ أنا أرتوي .
ـ كم جهاز تناسل تتعامل معه ؟
ـ عندما تزول المسافة ، يزول الزمان . والعاشق والمعشوق ، عضو واحد .
ـ ما المسافة بين الخليج والمحيط ؟
ـ ادراك الأصابع للرطوبة .
ـ التحقي أيتها النفس المطمئنة ، راضية ، مرضية ، بالنفس ، وامتزجي أيتها الدماء الظامئة ببعضك ، وادفئي ، يا أيتها العظام البردانة بالنسغ . لا زمان بعد الآن .

لم تتم عملية التوحد ، بالسهولة المعتادة ، أو المتوقعة . المعشوق سأل . أول مرة يسأل ، ولقد فعل ذلك في ذعر . والعاشق ، تجرأ على الاجابة . أجاب ببلاهة بالغة .

هكذا تراأى له .

لعله كابوس الليل ، يأبى الانقطاع . ولعل التصميم على الكتابة ، يخرق الثقة . حتى التوحد ، ليس كاملاً . ها هو السمع يلتقط أزيز محركات السيارات ، في خطي الطريق المزدوج ، وميز بينه وبين أزيز طائرة مروحية ، تروح وتجيء ، وها هي أصوات الأولاد والبنات ، يحكون أحلام الليل، وهم في طريقهم، بالسطول، من الأكواخ إلى الفيلات، لملئها بالماء ، البعض يحث على التمهل ، حتى تمر شاحنة القمامة ، فحينها ، تكون ، على الأقل الخادمات مستيقظات ، البعض يستدرك موضحاً ، أن

مرور شاحنة القمامة ، لا تعني أبداً أن الرجال ذهبوا إلى الشغل . سكان الفيلات ، لا يبكرون مثل سائر من يعمل . هم لا يعملون وإنما فقط ، يكتبون في المكاتب ، ويعطون الأوامر ، لمن يشتغلون . النساء أرحب صدوراً من الرجال . لم يطردننا أبداً .

نور الصباح ـ على حد الاصطلاح المعهود ـ يملأ الدنيا ، بل إن البصر لينبهر ، على غير العادة ، بالصحو . الطقس جميل اليوم . لا شك أن المذيعة ، تعلن ، في مذياع أحدهم .

أنا حاضر ، والغياب يستعصي اليوم . المعشوق غاضب ولا شك . لعل الأجوبة لم تكن مقنعة . كانت عفوية ، نابعة من الاقتناع القوي ، بوعي الاحساس ، أكثر من اللزوم ، وهذا أغضبه . أكيد أنه لم يكن يسأل ، فليس من عادته أبداً أن يفعل ذلك . لعلها ، مجرد دعابة ، بعض تنازل منه ، أوهمني أنني ند له ، كل سؤال منه ، يقابله جواب مني . كل كلمة ، تقابلها أخرى .

هذه هي الكبرياء بعينها ، ففي حين يعلن الانسان صغارته المتناهية ، وعظمة معشوقه المسؤول عن الكون وما فيه ، يضخم نفسه ، حتى يقول أنه ، المعشوق ، مهتم بي وبأخباري ، إلى حد أن جعل على مخبرين ، واحداً عن اليمين يسجل الحسنات ، وثانياً عن الشمال يسجل السيئات ، وسيكون ملفي الشخصي ، وحده ، محل اهتمامه في اليوم الموعود ، وسأكون ، شخصياً ، مسؤولاً أمامه .

تواضع كاذب ، وفردانية مفرطة ، الهدف من ورائهما ، الهروب من الانضباط ، ومن المسؤولية الجماعية .

لعلها أول خطوة ، نحو التأله . نحو الحلول محل المعشوق . تعظيمه ، ثم استصغاره ، ثم إزاحته عن مكانه ، والاستيلاء على مهامه .

ما أشد غبائي ، فمتى كان العاشق نداً للمعشوق ، وكيف غاب غني ، أن حدوث ذلك ، ايذان بتغير العلاقة . تطغى أنانية العاشق . يحلم به ، بكماله ، فيصير يستقي من ضعفه ، ثغرات في المعشوق . يسبغ ما فيه على الطرف الآخر .

نعم أقولها بالصوت العالي : يضحي هناك طرفان .

يحصل التنكر ، لمسعى التوحد والذوبان الدؤوب . يجد طرف الفرصة ، لينقطع إلى تدوين منعرجات السبيل ، لبلوغ سر المعرفة . يتوفر له الوقت الكافي ، للتقنين والتبويب ، والنصح والارشاد .

تنقطع أنغام ناي العدوية ، لتتحول إلى سولفاج . يذوب شمع المزمار ، فتتبعثر الأنفاس ، وتستيقظ أعين آرغيس . يكشف أبو حامد الغزالي ، عن فشل عشقه ، فيستجدي الآخرين ، بممارسة العشق أمامه . يتحول إلى قاصر ، لا مجال له لبلوغ المرمى .

يذوي قطب الأقطاب ، النور الشعشع ، فيأتي المريدون من بعده ، بالطبول والدفوف ، والمزامير والكلام الموزون المقفى ، في محاولة يائسة لتجديد التجربة . لتجسيدها ، على الأقل .

لعلها . تجربة العشق . ليست سوى ومضة واحدة ، في العمر كله ، تخلف التصادي المزمن في الروح ، واليقين الأبدي ، في النفس ، بضيق المسافة ، بين الوهم والحقيقة ، بين أصابع اليد ، وأصابع الرجل .

يميزهم من هنالك . على امتداد المسافة بين الجسر الحوال ، وبين مدخل الطريق المزدوج . أجساد صغيرة ، ملتصقة بأعالي الأعمدة ، قرب الخيوط المتوازية ، والكؤوس الداكنة الخضرة ، تتشبث بالأيدي والأرجل ، وكلما نزلت إلى الأسفل ، خلفت ، خطا في السماء ، ينزع لونه الوردي ، إلى الحمرة .

بعض أعمــدة ، ويصلون إلينــا . متى بدأ هؤلاء النــاس ، هذه العملية ، ومن أمرهم بها ؟

سيارة صفـراء ، تربض في الخط . أحـدهم يذهب ويجيء ، يتـابع العملية . يقودها ، ويعاينها ، على الأغلب .

سيارات الشرطــة ، التي كانت قبــل قليل ، أكـدت سيطرتهـا على المنـطقـة ، اختفت . الاختفـاء ، هو التعبير الصحيح ، فقد تكون ما تزال ، بشكـل من الأشكـال ، في المنـطقـة . عدساتها المقربة ، مركزة عليهما ، وآلات التصوير ، تغمز مطاردة لمختلف أبعاد الصورة الواحدة . الهيليكوبتر ، ابتعدت . نعم ابتعدت . فلا أحد يجزم فيقول ، انصرفت .

اذن ، هنـاك علاقة بين انشطار الطرف الواحد ، إلى طرفين ، وبين تهلهل عرى التوحد ، وتمييز أصوات المحركات ، والأطفال ، والطائرة ، وأشعـة الشمس ، وبـين المؤامرة . لتسم هكذا . مؤامرة . فمتى كانت الأعمدة الهاتفية ، في العالم كله ، تطلى وتصبغ ، مهما كان اللون ؟

الكابوس اذن ، لم يكن سوى رؤيا ، ها هي ما تنفك تتواصل . سأله ما العمل ؟ لم يجبه . لم يتلق إجابة . سمح لنفسه بالالتفات إليه ، فوجده مغتماً .

نعم هذا ما يريدون .

لقد رفض اللون الذي اختاروه رفضاً باتاً . صاحب الزمان في زمانه ، لا يمكن أن يبدو إلا في لون النقاء والنور .

ليوقفوا العملية ، أو ليتفهموا الوضع .

انفصـل . استقـل بطرفيته ، لم يقل ، حتى بعض كلمات طمأنة . بالعـودة إلى المعشـوق . ركبه الغضب ، وغمه الانشغال ، فقصدهم .

السيارة الصفراء هي بؤرتهم ، وهذا الذي لا يفتأ يرفع رأسه إلى فوق ، كأنما يستعجل الاجهاز ، ينبغي التفاهم معه .

أبدى في الأول من التجاهل ، ما يثير أعصاب بروموثيوس ، ثم خانته عيناه ، وراح يفصح عن حياديته ، في العملية كلها ، مبرراً ذلك بالأوامر ، والبرمجة ، وآخر ماتوصلت إليه ، دراسات أحوال أعمدة الهاتف الخشبية ، في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية ، حيث ينعدم التوازن بين حالات الطقس ، في مختلف الفصول ، وفي الليل والنهار ، مرحلة دفن الأسلاك الهاتفية ، في قنوات ، تحت الأرض ، لم تحن بعد ثم أنها مكلفة ، بالاضافة الى أن التخطيط النهائي للمدن والطرق ، لا يمكن أن يتم ، قبل ضبط نسبة التزايد الديموغرافي ومتانة التبادل التجاري والتعاون بين دول الجنوب ، واغلاق الأبواب بصفة نهائية ضد الأفكار المستوردة ، ان شئت الحق في بلد مثل بلدنا ، يتمتع بزيارات وفود أجنبية عديدة ، من أهم ماينبغي أن يبرز فيه ، أعمدة الهاتف ، فهي في هذا العصر أحد دلائل التقدم الحضاري في العالم . لو لم تكن هناك في افريقيا وآسيا ، وأمريكا اللاتينية ، مدن وحواضر وعواصم كاملة ، لا تتمتع بميزة الهاتف الحضارية ، لهان الأمر ، ودفنت الأسلاك ، واستغني عن الأعمدة ، ووظفت مبالغها من العملة الصعبة التي تستنزفها البلدان الشمالية ، بصفة خاصة ، في المزيد من شراء المعدات العسكرية ، تقول الدراسة وهي لعالم أمريكي ، جليل ، أن نسبة تساقط الأعمدة في العالم الثالث ، في منتصف هذا القرن ، أقوى وأضخم بكثير من امكانياتها الحقيقية ، مع أن الرياح والعواصف ، وتراكم الثلوج ، أقوى بكثير ، في بلدان الشمال.تكفي ريح ، بسرعة جد عالية ، بأوروبا ، لإقتلاع عدة أعمدة من قواعدها ، وإلى اقتلاع كل تواصل تاريخي ، وعلى رغم التجربة في أندونيسيا ،

والتشيلي ومصر وبعض بلدان العالم الثالث ، فإن العملية ستنجح في بلادنا أيضاً . اذا أردت رأيي الشخصي ، فثق أن العملية خاطئة من الأساس ، إذ أن بلداً منتجاً للبترول ، والغاز ، والحديد ، ويمتلك صناعات تحويل هذه المواد ، بامكانه الاستغناء كليه ، عن الأخشاب في العملية ، والمسألة كلهـا تتوقف على قوالب، تضبط المقاسات والأحجام، يومها، يصير في الامكان ، وضع اللون أو الألوان حسب الذوق ، وحسب خصوصيتنا في المادة قبل أن تتصلب ، بدل لون الصدأ هذا ، الذي يقال وهذا سر أبوح به لك ، بما أنـك تبدو في متنهى الطيبة والكرم ، وضعه ساحر كبير من « بوركينا فاصو » قصد طرد الأرواح الشريرة ، التي تشوش من حين لآخر الخطوط الهاتفية .

فاوض كثيراً ، بكل مايمتلك من مواهب الأداء والتعبير هدد بالتطبيق الفعـلي ، لثـورة أبي القـاسم الشـابي « ليتني كنت حطابـاً فأهـوي بفـأسي » ـ ليت هنا ، على مايبدو جاءت فقط لضرورة الوزن ـ سأحمل فأساً أو منشاراً ، وسأهوي على الجذوع . سأرفع المسألة إلى وزير البريد ، وإلى صاحب الأمر نفسه ، سأستنجد بمعارفي من ضباط المخابرات ، وهم كثيرون ، وستندم يوم يجوع أولادك على عدم سماع الكلام . والله العظيم ثلاثاً ، سأكتب مقالاً ، في صحيفة « لوموند » سأذهب أبعد من ذلـك ، وأنشيء جمعية ، ذات طابـع سياسي ، لحماية لون الخشب الطبيعي ، سترون في السوق مناشير ، تندد وتكشف وزارة البريد والبرق والهاتف ، بيد أن المفاوض ، كان في منتهى طول البال ، وسعة الخاطر ، والعناد ، وكثير التردد على العربة الصفراء ، حيث يقول أن عليه أن يرد على مكالمات هاتفية .

انحصر الحـديث أخيراً ، حول عمـود بعينـه ، ينتصب على الـطرف

الأيمن ، للجسر الحوال .

عبر عن استعداد محتمل ، للتهاون في أداء المهمة ، مقابل رشوة تعوض الخسارة ، التي قد تلحق به وبزملائه ، وبعد حديث مطول في الهاتف ، عاد يقول كلاماً غريباً ، وكأنما هو شخص آخر ، تماماً . ينبغي عدم ازعاج سكان منطقة الطريق المزدوجة ، وخاصة واحد منهم بالذات ، هكذا بصيغة النكرة ورد الواحد هذا ، الأمر الذي جعله يعني شخصاً معيناً ، في المدينة كلها ، له علاقة استثنائية بالموضوع ، هذه هي المسألة وللجزائر علاقة ما ، شاءت أم أبت ، بالخلافات المركزية في دمشق وبغداد ، وشعاراتها وألوانها ورموزها فقد كان لكتامة دور مهم في تأسيس مدينة القاهرة ، في العهد الفاطمي ، رغم أن ألوان علم صاحب الزمان ، في فتح رقادة كانت شاذة ، أملتها ظروف الحصار العامة ، النقاوة والنور في اللون الأبيض ، عكس اللون الرمادي ، الذي يعلن عن حيادية سلبية تجاه الألوان ، وعن قابلية تلاؤم لا تخلو من انتهازية ، الأبيض يقف بثقة نفس واعتداد بين الألوان ، لا ليؤكد الأصالة فحسب ، وانما التفتح الواعي ، على جميع الألوان الأخرى ، ثم أن كريات الدم ، في المفهوم العلمي المجهري ، لا تعطي اللون الأحمر فقط ، انها فصيلتان ، قائمتا الذات ، تتكامل بنسب ثابتة ، يختل توازن الحياة باختلالها ، من يستطيع أن ينكر أن البياض أحد لوني الدم الرئيسين ، وهو بالتالي يجب أن يكون لون الثورة .

لقد قالوا كلاماً كثيراً ، هذا ماوسعني حفظه منه ، ونظراً لطيبتك ولكرمك ، لم أبخل عنك بالشيء الأساسي منه ، لكن أسمح لي قليلاً ، فقد حلت الساعة العاشرة .

ـ العاشرة . استراحة .

نزل جميع المتشبثين في السماء . الى الأرض ، سارعوا الى جرابهم ، استخرجوا زادهم ، من أكل ، وماء وقهوة وراحوا يزدردون في تكاسل ، والتذاذ .

العاشرة ، عندهم ، تعنى ولا شك ، اللون الأبيض ، حيث يجدون أنفسهم ، في استقلالية كاملة ، عن الغير ، وفي انفصام العلاقة بينهم وبين الامتثال للأوامر . وانجاز المهام والمخططات ، المضبوطة سلفاً ، يرتدون الى ذواتهم ، يطعمونها يسقونها ، يتحايلون في بعث الجهد لها ، وخلق الشعور بها كما يرتدون الى عوالمهم الخاصة ، بين مضغة وأخرى : أم البنين ، تصر المسكينة ، على النهوض باكراً ، لتشحن الجراب بكل عطفها وولائها ، الأطفال لم يبق لهم مليم واحد ، يصرفونه نهار اليوم . مسعود مزق حذاءه ، ولابد من تدبير آخر يدخل به المدرسة . لو لم تكن هناك أعياد وأعراس ، لكان بامكان الميزانية أن تسقيم ، ننفق في مناسبة عابرة ماننفقه بعشرة أشهرٍ كاملة . لو أن ماينفقونه في تعليق الشعارات الثورية ملونة ، مزدانة بالأنوار ، تفنن الايطاليون ، أو الفرنسيون فيها ، يوزعونه علينا في كل موسم لاقتنعنا بفائدة الثورة والاشتراكية ، تكفي أضحية عيد تفرح وتشبع الأولاد ، أو ثلاجة تحفظ المواد ، وتسقينا ماء بارداً ، لاقناعنا . وزارتنا هي الوزارة الوحيدة ، بعد وزارة المالية ، أو الضرائب على الأصح ، التي لاتنفق فيها شعارات الثورة ، الوحش يكشف عن أنيابه ، مهدداً كل من يحاول الاقتراب من مليم ، « الزيت من الزيتونة والحوت من البحر » ورقة أو ختم ، تسمى الطابع ، رسم على كلام بين اثنين ، في أسلاك موروثة من عهد دقيانوس . هات . هات . هات . ولا هاك أبداً ، حتى لهؤلاء المتفانين في صقل أنيابه وشحذها .

ـ اتكلوا على الله يارجال ، دعونا ننه هذه الشغلة فلربما نتمكن من

الدخول قبل الوقت .

يلمون الفتات ، بعناية ، يجمعون شمل الأجربة ، يبالغون في التزود بجرعات الماء ، ينظر كل واحد ، على حدة إلى ساعته ، يسترقون النظر إلى بعضهم . يشعلون سغائر جديدة ، تلتف نملات لا أحد يدري أين كانت تختبىء ، بفتات الخبز ، ونويات الزيتون . يستحثهم رئيسهم ، بالنظر المتكرر إلى ساعة يده . يقررون فجأة ، وبحماسة غير متوقعة ، الالتحاق بعملهم .

لم يبدو اعتراضاً كبيراً ، على استثناء عمود واحد ، أو حتى عدة أعمدة ، من العملية . قال . أصيب المكلف به بتقلص عضلي ، حينما ، أو بدوار ، فنزل ، ثم نسيناه ، والسلام ، أو علق العمال أغراضهم فيه ، على نية أن يتركوه الآخر ، ففاتنا الوقت ، وليس من المعقول ، إضاعة يوم فرقة كاملة ، بالتنقل ، نحو عمود هاتف غير مصبوغ . ثم لو هناك رقابة ما ، على انجاز الأشغال ، أو على كيفيات الانجاز ، أو على الحالة ، بصفة عامة ، لكانت الأمور ، على أحسن مايرام . وبيني وبينك ، العملية ، برمتها ، لا تخلو من إن وربما وحيثما . النقابة كشفت عن تورط صهر الوزير ، في انتاج كمية كبيرة ، من صبغ ، فاسد التركيب ، هو هذا . اشترت الوزراة ، منه ، بناء على دراسة مزعومة ، لأمريكي مزعوم ، الكمية كلها . مئات الأطنان ، يظهر بعضها ، هنا ، وبعضها هنالك ، ويلقى بالباقي في بحر الظلمات . «من لحيته ، افتل له شكال» .

لم يبدوا اعتراضاً كبيراً ، في الحقيقة ، إنما استغرابهم للطلب ، أو على الأصح ، عدم اقتناعهم بشرعيته ، وبضرورته ، أثار جدلاً كبيراً بينهم ، وكاد يفسد الاتفاق الذي حصل بيني وبينك .

صحيح أن مصائب قوم عند قوم فوائد ، وأن هناك من ينفق في السنة على سرواله ، كي يظل محتفظاً بمظهر الجدة ، ما يكفي لشراء عدة سروايل ، وأن أحدهم ، يترك أطفاله جياعاً ، عراة ، ينتزع منهم لقمة العيش ، كما نقول ، ليشتري تذكرة ذهاب وعودة إلى باريس ، لا لشيء ، سوى أن يتفرج على الواجهات المنيرة المزدهرة . لكن أن يضحي بمبلغ ، ضخم ، مقابل ، أن لا يصبغ عمود هاتفي ما باللون الضارب للحمرة ، أو أن يصبغ بالأبيض ، مع التعهد بشراء الصباغ واللوازم ، فهذا أمر لا يدخل ، حقاً ، بسهولة في الرأس .

تعهدت في الأخير ، جميع الأطراف ، بتطبيق واحترام نص الاتفاق .

يدفع الطرف الأول ، مبلغ سبعة آلاف دينار ، نقداً ، ويحضر عشرين كيلو غراماً من الطلاء الأبيض ، مع فرشاة غير مستعملة ، وغير ملوثة بأي لون آخر . على أن يتم كل ذلك ، قبل الساعة الرابعة من نهار اليوم .

يلتزم الطرف الثاني ، بطلي عمود الهاتف القائم عند الجسر الحوال ، على الجانب الأيمن ، والذي يحمل في سجلات وزارة البريد والبرق والهاتف ، رقم مائة وواحد .

إن كان صاحبك مجنوناً ، فكن أنت عاقلاً . الصاحب مجنون ما في ذلك ريب . اسمعه ، واظهر تفهمه . داره ما استطعت . وإذا ما استفاق يوماً ، فاعرف كيف تجعله يتحمل مسؤولية ما حدث . فلولا الجنون أكان الهاتف يحل في بيوت لا تضم إلا العواتق والمطلقات ، أو في جحور لا يسكنها غير عجائز ، قطعن سن اليأس عدة مرات .

حقاً ، لولا الجنون ، لما أكل أحد لقمة في هذه الدنيا ، أو بالأصح لما طابت لقمة في فم أحد بهذا البلد .

أنجز الطرف الأول ، كل ما تعهد به ، حرفياً ، وفي الوقت المضبوط ،

بل ، وقبله ، بساعة ونصف الساعة ، مع ابداء السرور والرضا التامين .

أبدى الطرف الثاني استعداده التام لتنفيذ بنود الاتفاق ، شرط تغيير طفيف فيه ، فبدل أن يطلى العمود باللون الأبيض ، يتركه على لونه الطبيعي ، فقد اتضح بعد تفكير وروية ، أن عملية الترك ، يمكن أن تنسب إلى النسيان أو التهاون ، فتكون العقوبة خفيفة ، وربما تنزل بشخص واحد ، أما أن يصبغ بغير اللون الذي اشترته الوزارة ، ففي ذلك ما يمكن أن يؤدي بنا كلنا إلى غياهب السجن . إنه تمرد صارخ ، وتحد لمؤسسة من مؤسسات الثورة .

تردد الطرف الأول ، قليلاً ، لكن ما لبث أن رضخ ، وتنازل حتى عن كمية الطلاء التي أحضرها ، وما معها من أدوات . استعملوها في بيوتكم . قال .

التفاوض كان عسيراً ، لكن الاتفاق وتنفيذه ، كان هيناً مريحاً . هكذا شأن كل الاتفاقيات والمفاوضات المهمة ، التي تغير مجرى التاريخ .

ركبوا السيارة الصفراء . ودعوه بتلويحات الأيدي الحارة ، وبالبسمات العريضة الرضية ، ولقد بلغ الحماس ببعضهم ، أن قال أن تنفيذ الاتفاق ، مسألة شرف ، بالنسبة إليه وإلى زملائه ، فالعمال لا يخونون العهود أبداً . بلغ التودد ببعضهم أن طلب منه عنوان منزله ، وعمله ، لأن لديه قضايا ، معقدة ، يحتاج حلها ، إلى أكتاف قوية ، وركائز متينة .

ـ ألا يهمك عمود آخر ، هنا أو في موضع آخر ؟ نساعدك هذه المرة .

عاد مرتاح الضمير، بعد أن بَادَلَـهُ نظرة شوق وحنين، وبعض الامتنان : الحب هو الذي ينتصر في نهاية الأمر .

وجد فجرية ، ماتزال تتعاطف مع الغرف ، وأثاثها ، وثيابه هو .

عانقته بحرارة . أبدت أشواقها . سألها عن صحتها ، وصحة أمها .

انكبت مشمرة الساقين ، مسدلة الشعر الفاحم ، تواصل الشغل :

ـ سأتفرغ بعد قليل .

لعن في قلبه المبلغ الزهيد الذي تأخذه منه ، كل رأس شهر ، مقابل اشعـارهـا ، كل مرة ، بأنها آخـر ما تبقى له ، ومقـابل حسد الجارات العوانس لها .

دائرة الطباشير الجزائرية

فلتكن الليلة . من أطول الليالي ، تبدأ من العصر بدل المغرب . فجرية تعرف أنه لا أمل في أخراجه من الحالة ، كما تسميها ، اذا مادخل احدى الغرف ، غير غرفة النوم أو الأكل وأغلق الباب خلفه .

حاولت ذلك منذ أربع سنوات ، فلم تفلح ، فهمت أن كل ما في هذا البيت طقوسي ، وكل من يدخله يصاب بمسة ، لا نعت لها سوى انها مسة الطقوسية ، تتغير نبرات صوته ، وتهدأ حركات بصرة ويشعر بأنه ليس وحده ، وأن عشرات العيون تراقب حركاته ، وسكناته ، كذلك كل مايجري في هذا البيت له طابعه الخاص الطقوسي أيضاً ، يقول أنه لايحبني ، يزعم ذلك.أنا واثقة،لكنه مايفتأ يردد أنك يافجرية حبيبتي ، آخر ماتبقى لي.الجزيرة التي ألجأ إليها في ليلي العاصف .

يأكلان في صحن واحد ، ينامان في فراش واحد ، يغتسلان معاً في حمام واحد ، تزوره متى شاءت ، يزورها متى شاء ، حدد لها ماهية بخمسمائة دينار ، لكنه يعطيها ماهيته كلها ، لتدبر شؤون المنزل ، والمنزل بالنسبة إليه ، يشمل منزلها هي أيضاً ، بالأم المريضة ، وأدويتها وكهر بائه ومائه ولباسهم وبالأخ الصغير وتكاليف دراسته .

شاع في الأول بالحي أنه خطيب ، واستغربت العذارى بصفة خاصة ، أن يختار هذا الفنان العبقري ، فجرية بالذات ، رغم سواد لونها الفاحم ،

ثم شاع أنه قريب ، واقتنع الحي في الأخير بأنه مهما كانت صيغة العلاقة ، فانها ضرورية ولا غنى عنها بالنسبة للجميع ، ثم أنها في أول وآخر الأمر سترة لشرف الحي وإلا كان الرجال الأغراب ، يترددون على المنزل ، وربما أغوت هي وأمها بعض بنات ونساء الحي ، ودخلت السوسة اللعينة باقي المنازل ، انهم فجرية وأمها وأخاها ، ومامن دابة إلا ورزقها على الله ، رزقهم بهذا المغفل الذي ربما انتهى أمره الى أن تتزوجه فجرية ، تنتفخ بطنها ، تتستر بالألبسة العريضة الفضفاضة ، مدة ثم ترفض الاستسلام ، فتركبه وقد يهرب عنها يتركها ويغادر البلد مثلما فعل أبوها ، عندما فوجيء بابنته ، سوداء فاحم ، على الرغم من أنه لا أحد في الأسرة يميل مجرد الميلان الى السمرة ، ابتلهت الزوجة متضرعة بأن الأمر لا يخلو أما من غش في المستشفى ، سرقوا مولودها ليعطوه لابنة ضابط أو غني ، وأما من اعتداء جن أسود من « الفلاشا » عليها وهي نائمة ، ثم من يدري ، فلعل أحد أجداده أو أجدادها ، من هنالك والعرق دساس .

بصق عليهما معاً ، فجرية في القماط ، وأمها في سرير المستشفى ، وارتمى في احضان الغربة :

ـ مهما كان العرق دساساً ، فإن هذه البنت ، لن تكون إلا ابنة سينيغالي .

لكن اللعنة ، طاردته الى بلجيكا ، حيث أنجبت له البرتغالية . الولد الخامس ، أشد سواداً من فجرية ، ومن أي افريقي آخر .

تركتهم له ، جميعاً ، وهربت ، قائلة :

ـ أنت مسحور . في ظاهرك بشر ، وفي حقيقتك . دب أسود .

عندما أغلق باب « بيت الحكمة » خلفه ، لم يقل لها ، أبقي يافجرية فانني في حاجة إليك ، كما لم يقل لها ، يمكن أن تنصرفي يافجرية ، فلدي

كتاب يتوجب أن أسهر معه الليلة . هذه عادته ، وبامكانها أن تبقى ، تستحم تغير ثيابها ، تتزين تطبخ شاياً أو قهوة ، أو تستلقي في السرير ، بعد أن تفتح المذياع ، بصوت خافت ، أو تواصل قراءة كتاب ، فتحته ، البـارحة ، أو قبل ذلك ، كما بامكانها أن تتفقد أمها وأخاها ، وتعود . البيت بيتها . وسيكتفي عندما يشعل النور ويطفئه ، بسرعة مفاجأ بها بأن يهمس ، « أميمـة أنت هنـا ! » أو « هل أنت نائمة ، ياعزيزتي ؟ » أو « آمل أن لاأكون أزعجت بنيتي المرهقة ، بشؤون أبيها الكثيرة ، لم تقولي انك ستبقين ، حسناً فعلت ببقائك ياعزيزتي » .

يدخل تحت الغطاء ، بعد أن يطبع قبلة رشيقة ، على الجبين ويتحايل على الـوصول الى الصدر ، فيسند ظهره الى الثديين الدافئين ، بعد أن يسحب الذراع إلى رأسه ، ويضع الكف الساخنة على أذنه الباردة .

ـ أذناك دائماً باردتان .

تهمس ثم تحضنه ، بود وحنان .

أول مرة ، تسمعه يتحدث ، بالصوت العالي ، في بيت الحكمة . من عادتـه أن يفعـل ذلـك في غرفتهـا ، أولغـا ، وكـذا في غرفتنـا ، قاعـة السهرات ، التي أصبح يسميها غرفة التخاذل .

اكتب فيما بعد ، الليلة القادمة ، لكن علي أن أوصل التسجيلات التي بدأتها نعم .

دوري ياحبيبتي دوري .

مادمت أفكر ، فلأحتفظ ، بتفكيري . ليخرج « من حد القوة الى حد الفعـل » فالصور ليس قرناً ، طوله من مشرق الأرض الى مغربها ، فيه ثقوب بعد أنفاس ، الخلائق أجمعين ، انما هو مايتصور في نفوس أهل الحقائق .

أنت جاهزة ، وأنا جاهز ، المكتب ، مفروز ، كما ينبغي سلمت يداك يافجرية .

توقفت البارحة ، عند قرار الطرد ، وآثاره المباشرة في التخاذل ، حسن ذلـك كله ، فلعله أصـل الأصـل ، العمـود الفقـري للمسرحية التي سأكتبها ، هو ماتلاه في الحقيقة .

سأبدأ منه ، ثم أعود الى الأحداث الأخرى ، بعد ذلك ، لن يبقى سوى دراسـة الديكور ، والمناظر ، وتسليط الضوء ، على بروموثيوس ، وتتبع الحوار .

نعم . لم يكن مفاجئاً . سبقته ترتيبات شيطانية ، ترتكز كلها على دائرة التباشير القوقازية ، فبعد العرض الافتتاحي مباشرة ، تقدم مندوب الوزير .

نهض من الصف الأول ، وسحبني من كتفي ، لم يصـافح لاحظت ذلك.كان الموقف في منتهى السخف ، وانعدام الذوق ، معاكساً للعواطف التي ألهبناها ، كأنما يحاول بذلك ، أن يحولها الى جمرة تلقى في الماء .

« سعادة الوزير ، لم يستطع تدشين الافتتاح ، كما هي العادة . مزاجه متـوعـك ، بعض الشيء ، ثم لماذا أنتم سلبيون الى هذا الحـد ، تجاه الأصالة والوطنية ؟ أنهم يستغبوننا ، بوقاحة قال سعادته ، كان بامكانكم تقـديم قيس وليلى ، أو أهـل الكهف أو السيد لكورناي ، التفتح على العالم ، لايأتي إلا بعد رسوخ الروح الوطنية ، الأممية ، لعبة صهيونية ، سعادته ، شديد الحساسية تجاهها ، المؤلف ألماني ، والعنوان روسي ، ماذا تريدوننا أن نقول أمام هذا التهور ؟ ثم أن بريخت ، هذا له ملف أسود في الـولايات المتحـدة الامـريكية ، ونحن بقـطع النظر ، عن سياستنـا وأيديولوجيتنا ، لانريد أن ندخل في صراع مكشوف معها » .

في الليلة القادمة ، وأثناء الانشغال بالعرض ، وزعت مناشير ، تدين الحكم ، وتستنهض الطبقة العاملة ، للاستيلاء على السلطة . بقدرة قادر ، كان هناك من الشرطة ، مايكفي لجمع كل المناشير ، قبل أن يقرأها أحد .

تحولت أنظار الجمهور الى الخلف ، اضطرب الممثلون حاولت عبثاً ، السيطرة على الوضع، حتى مهندس الضوء. صالح العتيد. الذي لايسهي ولا يغفل . جفل باله ، وترك الضوء الأحمر يساقط شلالاً على الخشبة ، ويغمر وجهي ، شرع البعض ، خاصة محتلو الصفوف الأمامية ، في مغادرة المقاعد ، بصفة مثيرة احتجاجية بل استفزازية واضحة ، فكرت أن العملية محض صدفة ، وان كانت صدفة غير سارة . لم أطلع على فحوى المنشور ، لأتأكد من المخاطر التي ستواجهنا .

أنقذنا الحالة ، بكل صفة . اختفى رجال الشرطة . بسرعة خارقة ، وكأنما أنهوا مهمتهم التاريخية . هدأ صليل وضجيج المقاعد ، وصراخ المحتجين . تراقصت الألوان في الضوء . تكاملت الدائرة التباشيرية ، وفشلت الأم فاقدة الأمومة ، أمام حب الخادم للطفل .

في الليلة الثالثة ، أدركت أن هناك مسرحية ثانية ، على هامش مسرحيتنا ، تمثل في نفس القاعة ، عنوانها دائرة التباشير الجزائرية .

عند نفس المشهد ، امتلأت القاعة ، بنشيد الأممية . كان عددهم ، ستة أو سبعة ، موزعين باحكام على القاعة . هتفوا في وقت واحد بالنشيد ، وكأنما استجابة لأمر أو إشارة . تأملتهم . تمكنت من ذلك ، رغم كل شيء . كانوا فاتري الحماس ، أحدهم راح يقرأ من ورقة يخفيها في يده . أكثر من ذلك ، لم يكونوا يؤدون النشيد في لحنه الحقيقي ، الذي ينبع من أعماق قلب الشيوعي الحقيقي بالسليقة . مجيد ، ما الذي

أخرجك إلى الحلبة ، وجعلك تهتف : هبوا . هبوا . أنت ممثل ، ولا أحد يشك في جودة أدائك ، لكن ، في أية مسرحية ، كنت لحظتها تمثل ؟ أو بالأحرى ، في أية دائرة كنت ؟ القوقازية ، أم الجزائرية ؟

عليوات ، رفيق الدرب ، كان في مستوى اللحظة التاريخية ، فقد همس ، متقززاً ، ما إن انسدل الستار :

ـ انتهى عصر النهضة يا رايس . الجسد يرفض القلب المزروع ، وما على « أصدق » سوى الانسحاب .

استخلصت بدوري ذلك ، في أعقاب « أوديسية » النهار التالي . استدعاء ، من مديرية الأمن الوطني ، لجلسة أخوية ، دامت من التاسعة ، حتى الواحدة . حديث عام عن الوضع السياسي في العالم ، عن حرب الفيتنام ، خاصة ، ثم عن باتريس لومومبا ، ومساهمة بعض الدول العربية في عملية اغتياله . جولة غير مباشرة ، عن الوضع في البلد ، وتأكيد صريح من المدير العام نفسه ، بقناعته الشخصية المطلقة ، في أن الاشتراكية واحدة ، وأنه كما قال سيادة الرئيس ، لا يمكن اكتشاف البارود ، مرتين غير أننا ، مسلمون ، ثم ، وهم ، عموماً ، امبرياليون أيضاً ، وليس من صالح المنطقة ، أن تكون محل صراع القوى العظمى ، أو بؤرة حرب باردة . نحن لسنا ضد الشيوعيين ، لكن شيوعيينا ، غفل ، بلداء ، وعملاء ، واستفزازيون . شيوعيو اليابان ، أفضل الشيوعيين في العالم . لا يدعون أبداً إلى اضراب ، بل إن اضرابهم ، يتم بمضاعفة الانتاج .

بعد فنجان القهوة ، والدرس الاستطلاعي ، أحلنا ، بكل أخوة ، على قسم الشؤون السياسية . ملء متمهل لاستمارة شكلية ، كما قيل . في أي حزب كنت قبل الثورة ؟ هل سجنت في تلك الفترة ؟ العربي

البوهالي ، عمار أوزقان ، البشير حاج علي ، هل ارتبطت بأحدهم في فترة ما ؟ نقابة الس جي تي ، هل انخرطت فيها ؟ هل لك أصدقاء من الحزب الشيوعي الفرنسي ؟ بعد اندلاع الثورة ، ما هو نشاطك السياسي كله ؟ هل أنت سجين أم معطوب أم جندي أم عضو بالمنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني ؟ هل انقطعت ، وإن كان نعم ، ما سبب ذلك ؟ هل التحقت باتحاد العام للعمال الجزائريين ؟ وباتحاد الطلبة ؟ باتحاد النساء ؟ باتحاد التجار ؟ من 5 جوليبية 1962 حتى اليوم ، ما هي المهام التي قمت بها ؟ ما هي المسؤوليات التي أسندت إليك ؟ هل سجنت ؟ ما سبب ذلك ؟ أذكر مصادر مداخيلك ؟ هل لك أملاك ؟ كيف اكتسبتها (ارث ، شراء) ؟ ما هي جنسية زوجتك ؟ ماذا تشتغل ؟ هل هناك سجل أو نشاط تجاري باسمها ؟ كم عدد الزوجات والأبناء (اذكر الأسماء والأعمار والمهن بالتفصيل) ؟ هل انقطعت عن نشاطك المهني أو السياسي ، وهل سجنت ، بعد التصحيح الثوري سنة 1965 ؟ هل أرسلت برقية ؟ تأييد للقيادة الثورية في احدى المناسبات ؟

تأمل الضابط الاستمارة ، بعناية ودقة ، ثم حمل قلماً ، وراح يسأل شفوياً : طبعاً زرت الاتحاد السوفياتي ؟ كم مرة ؟ هل تشرب ؟ هل تؤكد أن مؤسستكم ، لا صلة لها بأحداث اليومين الأخيرين ؟

جلسة المساء ، كانت في الوزارة . سعادته لم يأت بعد . أكد أنه سيأتي ، لكن لم يأت بعد . لا بد أن يحضر . الكاتبة ، ومدير التشريفات ، ورئيس الديوان ، والفراش ، واثقون من أنه سيأتي .

حولت بلباقة ، من مكاتب مديرية الثقافة ، إلى قاعة الانتظار الصغيرة . النظرات المصوبة نحوي ، جديدة . هكذا تهيأ لي ، ولا بد أنها كذلك . اعتذارية ، إلى حد صارخ . نعم . اعتذارية ، العبارة في

محلهـا . تحاول كلها أن تؤكد أن العين بصيرة ، واليد قصيرة ، وأن كل مصيبة ، إما بإذن الله ، وإما بما كسبت أيديكم ، وهم ، لا ذنب أو دخل لهم فيها . حقاً أنت بطل ، لكن ، يا حسرتاه ، البطولة في هذا الزمن ، لا أحد يقدرها . كيف تريد أن يقدر الجبناء ، أو الأنذال ، البطولة ؟

التحق زائر بالقاعة ، سلم وقال إنه من كبار المعجبين بعبقريتي . أعاد قراءة كناشه ، وترتيب محفظة جيبه . أشعل سيغارة ، عرض علي واحدة ، وانهمك ، في العثور عن الصيغ المناسبة . سيادة الوزير ، شعبي ، ونزيه وملتزم ، وسليل عائلة العلم والنضال . شاهدت دائرة التباشير ، ليلتين متتاليتين . كيف كانت الأسماء في النص الأصلي ؟ أحقاً كانت جزائرية ؟ أن « أصدق » لا بد وأن يكون جزائرياً . مع الأسف ، عكر المشاغبون ، الجـو ، بعض الشيء ، لكنهم مع ذلـك لم يستـطيعـوا تفويت المسرحية علينا ، نحن المحبين الحقيقيين ، للمسرح والفن . كان بالامكان اصدار بيان في الصحافة الوطنية ، يدين الشغب ، ويتبرأ منه ، ويجدد الالتزام للقيادة الثـورية ، اتقـاء لكـل الشبهات ، هل لك موعد مع سعادته ؟ « الرأس اللي ما تقطعوا بوسو خير » قال الأجداد ذلك . السلام عليكم . يبدو أنه سيتأخر لن أنتظر أكثر . ربما عدت غداً .

يبدو أنه جاء . سعادته . عينا فراش الجناح ، أكدتا ذلك . كانتا ، تعتـذران ، تتحـدثـان عن البـطولـة ، وغدر الزمان ، وساعة الخلاص المـوعـودة ، ومـرارة الخبـزة ، وثقل الرأس من جراء الانحناء ، وتشتت الثـوريين ، أولئـك الـذين ، عرفـوا وحـدهم علقم الكفـاح من أجـل الاستقلال الوطني ، وها هم اليوم فراشون في جميع الادارات ، ينحنون للخونة ، ولأبناء الخونة والعملاء . ركبهم حمار الليل ، كلهم ، فصاروا يضربون في الظلمة .

إنها لا حال يدوم ، والحي يروح .

انقضى المساء ، ومساء المساء ، قررت قبل ذلك بكثير ، الانصراف لكن الفضول شدني . قلت اتبع الكذاب حتى الباب . الاهانة حاصلة لا محالة ، لكن بقليل من الحكمة الفيتنامية ، يمكن للنفس أن تسجل انتصاراً . غير أن انفتاح باب القاعة ، واطلالة رأس مدير الديوان ، متسائلاً بتعجب كبير ، أما زلت تأمل في الاستقبال ، وتتعب نفسك بالانتظار . ثم اختفاؤه المفاجىء ، قبل أن أقول له أنني مدعو ، ولست زائراً ، يطلب استقبالاً ، وضع حداً لكل شيء ، ولكل حكمة .

نزلت الى المديرية ، فلم يسمح لي بالدخول على المدير في مكتبه ، أول مرة ، يحصل ذلك معي قيل لي ، انه على اتصال هاتفي ، بسعادة الوزير .

ـ هل أنتظره ؟

ـ التعليمات التي لدينا ، انه ليس هنا هذا المساء . لقد علم بوجودك ، لكن ، قال ، أنا غير موجود هنا .

لم أنزل الى المسرح ، كنت مجهداً ، مثقل الروح بالاغتياظ مثقل الرأس بالنوم ، محتاراً في تقدير السلوك الصحيح ، تجاه الموقف المستجد . . أكملوا دائرة تباشيرهم ، ومع ذلك ، يقترحون أن أرسل برقية تذلل ، وتنكر ، وبراءة ، لا لن أفعلها . وان فعلت شيئاً ، فسيكون كشفهم ، سأقول للعالم أجمع ، ان دائرة التباشير الجزائرية ، من تأليف الوزير والأجهزة ، لقد صبغوا غراباً باللون الأحمر ، وأطلقوه في المسرح الوطني ، عليهم اللعنة ، أكون استرحت ، أن أقالوني أو طردوني ، سأتفرغ بعدها ، للابداع . متخلصاً من كل مسؤولية إدارية . . لا . لن تبلغ بهم الوقاحة ، هذا الحد . بل ، أنهم صبروا أكثر مما يجب ، لقد صفوا كل

الجيوب ، أغلقوا الصحف اليسارية ، حلوا النقابات حتى حزبهم المزعوم صفوه من كل العناصر الوطنية وملأوه بالعسكر .

كان علي أن أفهم قبل اليوم ، أن ريق النحل ، لايمكن أن يوجد في أعشاش الزنابير .

كانوا كلهم في المنزل ، أدخلتهم فجرية الى قاعتهم ، وأعدت لهم ثلجاً وكوامخ ، وأطلقت شعرها الأشعث الفاحم ، وأفسحت المجال ، لثوب الغرفة الأصفر الشفاف كي يساقط على كتفيها ، كاشفاً عن نحرها ، وجزء من صدرها ، ولبسمة صارمة ، كي تتراقص على ثغرها الممتلىء ، وعلى عينيها الواسعتين اللتين يتبارى فيها البياض والسواد .

بادرتها طابعاً قبلة ، على جبينها ، ذاكم الموضع الذي يحلو لي دائماً أن أعرف كمية الرضا ، والإطمئنان التي يحويها ، سحبتني إليها ولثمت خدي بأخوة تنم عن حسرة وتضامن فخيل إلي إنها همست في روحي ، أنت أقوى من هذه التفاهات .

لا . لم يكونوا كلهم ، ليلتها ، هنا . مجيد لم يكن بينهم ، ولقد شعر الجميع بغيابه ، وبخلو أريكته ، شعروا بالحرج ، وكأنما يخشى كل واحد منهم أن يضطر الى التصريح بعدم براءته .

ـ لم نره ، عندما تجمعنا ، واتفقنا على المجيء .

ـ افتقدناه .

ـ لا . لم يظهر كامل النهار .

ـ اشاعة أن يكون لبى دعوة من الوزير ، مبالغ فيها برأيي . كاذبة من الأساس استطيع الجزم بأنها مغرضة ، الصحيح أن يكون لبى دعوة الأمن .

ـ لقد هرب به الحصان البارحة ، فراح يهتف مع الجمهور ، هبوا .

هبوا عبيد الأرض .

ـ ربما احتفظ به ، هنالك عندهم .

ـ المسألة لم تبلغ هذا الحد ، سيجيء حالما يرى المسرح مغلقاً .

انفجرت :

ـ ماذا المسرح مغلق . تقولون ؟

كانت هذا هو أسلوبهم ، لاعلامي بما حل . . المسرح مغلق ، والشبابيك مغلقة ، حتى الاعلانات ، أزيحت ، أو غطيت ، بشعارات ثورية .

اقتحم في الظهيرة ، رجال الحماية المدنية ، المسرح ، وسألوا عن منافذ الاسعاف والخروج الاضطراري . قلنا لهم أن الفرنسيين ، رضي الله عنهم ، هم الذين هندسوا وبنوا ، وقدروا عدد المنافذ ، إلا أنهم أصروا ، على أن الفرنسيين كانوا خاطئين ، في كل مافعلوه أو أنجزوه ، بالجزائر .

أغلقوه في الأخير ، اخرجونا ، وشمعوا جميع الأبواب وعلقوا القرار البلدي : يغلق بسبب عدم توفر وسائل الحماية والانقاذ ، وهاهو استدعاء لك لنهار الغد .

« كيف تجي تجيبها شعرة ، وكيف تروح ، تقطع السلاسل » تمتم عليوات ، وهو يفرغ سؤرة كأسه في جوفه ، لو فعلنا مافعل الجميع يارايس ، طي الصفحة والبدء من جديد ، لكنا أسعد حالاً ، أنت وزير ، أو سفير ، أو على الأقل وال ، وأنا عقيد ، أو رائد أو على الأقل صاحب مطعم وخمارة ، لكننا شددنا الى الشهداء . أتظن أنهم لم يفهموا ، ماذا نعني بالأم الحقيقية ، والأم المرضعة ، أتظن أنهم أغبياء الى هذا الحد ؟ اذا كان الجمهور الحاضر ، فهم ، فتجاوب بحماس ، كيف لايفهمون ، وهم خريجو السوربون ، والمعاهد الفرنسية ، إننا نضم صوتنا

الى دعاة التطهير ، من الخونة وأعداء الثورة والعروبة .

لقد رحنا ، ننقي الدود من دبر القرد ، يارايس .

كان يتحـدث ويشرب في نفس الوقت ، كان الاغتياظ يتراقص على وجهه كأنه الموت .

ماذا قلت لك في الصباح ؟ يراعون ظروفك أنت ، ينصبوك في واجهة ما ، وتتهدم أسسنا نحن ، يزرعون الملح في قرطاج ، يارايس ، ننكمش في القصبـة ، نسكـر ونحشش ونمـوت ، وننسى أنفسنـا قبل أن ينسانا الناس . « لاحفرنا عليك ياجربوع ، ولا نتقت » .

ـ قررت قبلهم ، ايقـاف العرض في العاصمة . لو لم أجدكم هنا ، لاتصلت بكم هاتفياً ، ننتقـل الى المســارح الجهوية ، عنابة . قسنطينة وهـران . بلعباس . تخرج إلى الخارج أيضاً تونس . دمشق . القاهرة . بغداد الى أن يتم الفتح . من دخل الكعبة فهو آمن . من دخل . .

ـ أتمم لماذا سكت يارايس ؟ من دخل دار أبي سفيان ، فهو آمن أيضاً .

لم أتمم مع ذلك . فهموا جميعاً ، أنني عنيت بسكوتي ، أن الكعبة ودار أبي سفيان شيء واحد ، وأنه هنا لاتوجد سوى دار أبي سفيان رحت أغير الموضوع .

ـ مجيد لم يحضر ، ينبغي أن نفعل شيئاً من أجله .

ـ ربما هو في الزنزانة الآن .

ـ قد يتلفن . أو يحضر بين لحظة وأخرى .

ـ سلمنا فيه .

ـ فكروا في أنفسكم ، لقد تلفن لي في الصباح ، وقال أن لديه أشغالاً مهمة اليوم ، وأنه لن يمثل مرة أخرى في دائرة التباشير القوقازية .

قالت وداد ، وقد ضاقت ذرعاً ، بسذاجتنا .

ـ ماذا تقولين ؟

ـ ينبغي أن يعرف الرايس الحقيقة ، مجيد خائن ، وأنتم كلكم تعرفون هذه الحقيقة .

ـ فهمت شيئاً من ذلك ياوداد ، عندما راح البارحة يهتف بدون موجب ، وبحماس كبير : هبوا هبو معذبي الأرض ، مع ذلك ينبغي أن نسأل . تلفنوا ، وأسألوا عنه .

لست أدري ، كيف استعدت هدوئي ، كنت ، ربما ، أحاول أن أخفف عنهم ، خاصة ، عليوات الذي يكاد يحطم كأسه بأسنانه هذا التوتر الذي عجز الويسكي ، عن تخفيفه .

ـ إن لم يكن في بيته ، يكن ، عند ضابط البحرية ، أو أمين وزارة الصناعة والطاقة ، أو صاحب الضبط والربط ، على مستوى العاصمة . . .

ـ كفى . كفى . نعرف جميعاً اصدقاءه .

ـ قال صالح ، ثم راح يغير الموضوع كلية :

ـ يارايس . هل يمكن . أن نفكر في الأنفصال عنهم ، هكذا مثلما نحن الآن ، حتى مجيد ، نعمة ربك ، أن أراد ، ننشيء جمعية مسرحية ، لنا وحدنا ، نتدرب في هذا المنزل ، ونكتري قاعات العرض ، ونتنقل من مدينة الى أخرى ، ومن قرية الى قرية ، نعود إلى ما كان عليه الأسلاف في الثلاثينات والأربعينات . نبيع للتلفزة . ننتقل إلى العواصم العربية . نكون تعاونية ، يا رايس .

ـ أتعرف ما يقول المثل في مثل هذا الموضوع ؟ طبعاً لا . « القاها تبكي من هم الرجال قال لها اسكتي نتزوجك . » . هأهأ . تلزمنا دبابات ، وطائرات ، وحدود ، وعضوية في جمعية الأمم . يلزمنا استقلال آخر . كل

شيء ، يمكن أن يسلم فيه هؤلاء للقطاع الخاص ، ما عدا وسائل التعبير . لا . اللعب بعشاء السلطة . لا وألف لا .

انبرى عليوات ، محتجاً بسخرية ، ثم رفع كأسه :

ـ أقترح أن نشرب نخب آية الله في هذه الدار . فجرية .

ـ نخب آية الله .

ـ اسمعي يا فجرية . اسمعوا كلكم . حتى أنت يا رايس . لو لم تكن فجرية ، احدى معجزات الرايس ، لتزوجتها الآن . الآن . اقرأ الفاتحة ، وأقودها من يدها إلى منزلنا . أتحسبون أنني سكرت ، ونسيت الفاتحة . بو علام هنا وسيقرأ هو الفاتحة . تصوروا أنني منذ ثلاثين سنة ، وأنا أبحث ، دون جدوى عمن يمكن أن أحب . فتحت مناقصة وطنية ودولية : المطلوب امرأة بامكانها أن تستولي على قلبي ، فلم أجدها . طفت مختلف أنحاء العالم ، فلم أجدها .

ـ ربما لم تفتح عينيك .

ـ اسكتي أنت يا وداد . دعي الزير بغطائه .

ـ لو قلت المطلوب امرأ ، بدل امرأة ، لربما .

ـ بو علام . نعرف الزوايا وشيوخها ، وما يجري عندهم . صفا صفا . دكا دكا . لا تحرجني .

ـ الأزمة حقيقية يا ناس . اسمعوني جيداً . إذا وجدتها جميلة ، أجدها جاهلة ، وإذا وجدتها مثقفة ، أجدها مسطحة ، وإذا وجدتها جميلة ومثقفة أجدها برجوازية الحياة والطموح . أعتقد أنه لا تليق بي سوى « ايديت بياف » أو « الريميتي » ولماذا الضحك . هل عرف أحدكم ، ما عدا الرايس ، الحب ، أو معنى الحب . هل وقع أحدكم في تجربة عشق حقيقية . أنا من ناحيتي ، اللهم لا . اللهم لم تظهر في هذه الدنيا المرأة

التي تصرعني . الـريميتي ، هي وجدان هذا القطيع ، السكران ، وأنا مستعد ، لأن أتزوجها ، الآن . حالاً . اقرأ الفاتحة يا بو علام .

ـ لكن ما علاقة الريميتي ، وايديت بياف ، بفجرية ؟

ـ اسألوا الرايس . فهو الذي أبصر المنارة في الأفق ، وهو الذي يرصدها .

ـ أنت مستلب بالرايس ، ولا شخصية لك ، كما يقول مجيد .

ـ اللعنة على آكلة الثعابين التي لم تذق في حياتها طعم النوم المريح .

ـ دع أوفيد جانباً . وعد إلينا .

ـ فلتفقأ إذن ، كل أعين آرغيس الديوث .

ـ « رولي يا الزرقة رولي . ماكي رواله . غاضني خويا في زيو ، وأميمته عواله » .

الله أكبر .

غنى كل واحد . أغنيته . وأنشد صالح ، نشيد الأممية . من أعماقه ، وبكل تفاعل ، حتى أن الدمع انحدر من عينيه . أعقب ذلك مباشرة ، الصمت ، فافـترقنـا . ذهب من ذهب . وبقي من بقي . ربما لا أحد ذهب . أذكر أن وداداً وفطوماً وفجرية ، نمن في سريري ، عليوات ، وبو علام ، وصالح ، نامو في قاعة التخاذل .

أما أنا فقد أخذت أولغا من ذراعها ، وانطلقنا نزرع شوارع موسكو ، المتباهية برجرجتها ، في ليل صيف رمادي اللون ، ووسط عبير الأزهار .

مر ما تبقى من الليل بسرعة ، لم أتفطن أصلاً ، إلى أن هناك ليلاً ، بين نهار الأمس . ونهار اليوم ، ولولا الساعات الطيبة التي قضيتها ، مع أولغا ، ما انتبهت أصلاً إلى انقضاء نهار الأمس ، وليلة البارحة .

اصطحبت فجرية ، ونزلت ، لست أدري ، لماذا شعرت يومها ، بمثل

تلك الغربة ، وتلك الوحشة ، فقلت لها ، دعيك معي ، يا فجرية . لم تكن ادارة المسرح ، مغلقة . كانوا كلهم هنالك بما في ذلك مجيد .

كان في نيتي أن أقول لهم كلمتين :

ـ استعدوا لجولة طويلة داخل الجمهورية .

ثم أضبط برناجاً ، نبرقه إلى جميع المسارح الجهوية ، ثم أتوارى أسبوعاً أو يزيد . ربما أصطحب معي فجرية وأستبقهم إلى عنابة . ربما ، هذه لا محل لها . فقد قر قراري ، على اصطحاب فجرية . يومها ، قررت أن أغطس في بحر فجرية ، إلى الأبد .

احتسينا شاياً منعنعاً ، كعادتنا ، في المقهى المقابل ، ثم قصدنا بناية ادارتنا . لاحظت أن الشرطي ، الذي اعتدت أن أجده عند الباب ، منذ سنتين ، قد تغير ، خلفه شاب ، مفتول العضلات ، لولا البدلة ، لما كان له أي شبه بالشرطة البوابين الذين هم عادة من الشيوخ الأميين . كان يتفرس في الوجوه ، بفضول غريب ، وكأنما يبحث عن وجه معين . وعندما وقع بصره علي ، استوقفتني باشارة من يده :

ـ أنت حضرة المدير ؟

ـ نعم . ماذا هناك ؟!

ـ عندي أمر بمنعك من الدخول .

ـ أتدري مع من تتحدث ؟ إنه مدير كل مسارح الجزائر ، من عنابة حتى تامنراست .

قال عليوات ، في ثورة ، فابتسم الشرطي :

ـ أعرف حضرة الرايس . احفظ كل الأدوار التي مثلها . لكن الأوامر ، أوامر .

وجه لي ، نظره ، وترك عينيه ، تقولان « ما العمل ؟ العين بصيرة ،

واليد قصيرة . في هذا الزمان ، لا يسعنا إلا أن نمتثل . لقد عشنا كثيراً في الفوضى لكن حان وقت الانتظام . قد يصحب العملية ، أخطاء أو تعسف ، أو جروح ، لكن (لا ختانة ، بدون دم) .

لست أدري ، لماذا رحت أستنتج كل ذلك ، من مجرد نظرة ، صوبها نحوي .

ـ أريد أن أرى أمر منع دخولي أيها الشاب .

ـ ليس هناك أمر معين ، بمفهوم الأمر . كل ما هنالك ، أنهم نصبوني ، في الصباح هنا ، وأطلعوني على صورتك ، رغم أنهم يعرفون ، أنني بحكم تخصصي ، أعرفك تمام المعرفة ، وأعطوني اسمك ، وقالوا لي : ينبغي أن لا يضع رجله داخل البناية .

ارتفع الصياح والضجيج . نزلوا جميعهم من فوق . تركوا مكاتبهم ، ونزلوا . بينما أخذني مجيد من ذراعي ، وراح يحاول جرجرتي إلى المقهى . وينهر العمال والموظفين ، طالباً منهم العودة إلى مكاتبهم . غير أن أصواتاً عديدة ، ثارت فيه :

ـ لن نعود إلا والرايس معنا .

ـ تقول للكلب ، هش ، وتقول للسارق ، خش .

ـ ستندم على هذا الكلام ، يوم تلعقه كالكلب .

لم يكن مجيد ، جاداً في ابعادي من وسط البلبلة التي راحت تكبر وتتسع ، بل ، كان يراوح ، متظاهراً ، بأن الأمر يستعصي عليه . أعترف بأن رشدي بدأ يغيب عني ، وبأنني ، أحس ، بضرورة الهيجان ، ضرورة الخروج عن الطوق ، وفعل شيء ما . إلا أن عليوات ، وصالحاً ، خاصة صالح ، تفطنا ، كما قالا فيما بعد ، إلى المؤامرة ، بجميع أدوارها . فدائرة التباشير الجزائرية ، لم تنغلق بعد ، وهي تمثل ليس في ليلة واحدة ، وإنما

على آماد طويلة .

ـ هذا فخ منصوب . عودوا إلى الداخل . فقضايا من هذا النوع ، لاتعالج ، في الشارع ، استدعوا الفرع النقابي ، لدراسة هذه المسألة ، ان هذه المظاهرة التي تدفعون اليها ، تشبه توزيع المناشير ، والهتاف بنشيد الأممية ، انها استفزاز رجعي ، رغم أنه مكشوف ، فانه خطير .

استلم ، صالح وعليوات ، مقود السفينة ، فكانا بحق نعم الرايس ، فوتا الفرصة ، على سيارة الشرطة التي حضرت ، بطلب من سيارة مدنية ، كانت تربض قبالتنا ، الأمر الذي جعل بالتأكيد وجه مجيد نعمة ربك يصفر .

تخلصت من قبضته، بحركة احتجاجية منفعلة، وبصقت. امتلأت بالقرف من الأخوة الكاذبة التي كان يبديها ، خيل إلي لحظتها ، أنه عار ، تتقاذفه أيدي السمار ، في غرفة موحو الملآى بدخان الحشيش والبخور .

استسلمت ليد فجرية التي قادتني ، نحو السيارة ، لسبب ما رحت أتأملها ، وكأنما أراها للمرة الأولى ، عيناها الكبيرتان ، الممتلئتان سواداً وبياضاً، ناصعين، تذرفان دمعتين، تنزلقان على الخدين المستديرين، في الوجه المستدير ذي الشفتين المكتنزتين، والأنف القصير المنحدر بانسجام مع الجبهة والوجنتين والذقن ، فيجعلها لبؤة سوداء ، بقدر ماهي جميلة ، تبدو عظيمة ، مهيبة ، عليها هالة من سحر أخاذ . ليست نجمة البرنزية التي يصفها كاتب ياسين ، وليست اطلاقاً أميرة من أميرات تولستوي ، أبعد ماتكون عن خلاسية ، التقت فيها خلاصة السلالات ، هي فوق كل ذلك ، متفردة عن كل ذلك ، هي أصل الأصل ، وكل شيء عداها ، تفرع عنها ، من خلال لونها ، تشعر بانسانيتك ، مهما كانت نسبة اللون الأصلي في جلدك ، قليلة أو كثيرة تتعرف على عالمية باريس ،

وعلى حميمية البشرية في سانت ياغو دي كوبا ، تقرأ في سفر دمها ، روح الأرض ، في جروح أورانيوس ، وتلثم بسمة الطفل في محاريب المساجد والكنـائس ، ودهشة الرجال في حلقات نضالية سرية ، وفوران الدم في إيقاعات راقصة بادغال أفريقيا ، تنشد براءة جوزي مارتيني ، وباتريس لومومبا وقوستي نيتو ونيلسون مانديلا .

فجـرية ، راكبـة عربة الألم المجنح ، تطوف الكون ، وتزرع النسل والجاز والحب ، وذكريات الماضي الحزين .

معبودتي .

هاقد صارت ، وستظل معبودتي ، أنا وحدي ، سأسكن هذا الدم ، وسأبقى هنالك . متدفئاً بالحنان .

أجهشت في السيارة ، استسلمت لبكـاء ، تخزن في صدرهـا ، منذ انفتاح عينيها ، على الحياة ، منذ أدركت أن أباها ، هجر القارة ، بسبب لون بشرتهـا ، منـذ عيرهـا ، ربـما ، أول طفل ، وهي تحبو ، أما باب المنزل . « يا كحلوشة » .

لم أبك ، لم أقل شيئاً ، كانت تفعل كل ذلك ، نيابة عني ، وكان ذلك يكفيني ، غير أن بخـاراً حاراً ، ملأ صدري ، وظـل يضغط على روحي ، أشعر بالذوبان ، كما أشعر بالفوران ، حتى أنه يتهيأ لي من حين لآخر ، أن حل جميع مشاكل العالم ، يكمن في انفجار صدري ، بحيث يغطي هذا البخار الحار الذي به ، كل صدور الناس ، في لحظة واحدة ، ويجعلهم يحسـون احساساً واحداً ، بأهمية وقيمة الحياة ، ببشاعة الظلم واللؤم ، بحقارة الاعتداء على الأبرياء .

آه . حبيبتي السوداء . حبيبتي فجرية ، أجهشي أجهشي فان الكون يهتز في صدرينا .

لم يكن أمامنا سوى العودة إلى المنزل.

اقتحمت غرفتهم ، أمـرت برومـوثيوس بالتنحي ، جانبـاً.تعريت . وضعت الشعر الأشيب على رأسي ، تسربلت خرقاً من كل لون . سارعت فجرية الى أدوات « الماكياج » وانهمكت في تشويه الجسد المسكين .

تعرف طريقة غضبي تعرفني ، عندما أكون في ذروة الثوران.آخر مرة حدث لي ذلك ، كان يوم استيلاء الفلاحين المعسكرين على السلطة . كما تعرف شغلها ، وتدرك سره . قرأت كثيراً من الكتب والوثائق المتعلقة به ، وتعد مذكرة حوله ، لتقدمه الى الجامعة . في حالة ماإذا التحقت بها . ذات يوم .

ساد الصمت . انكفأت هي ، في غرفة النوم ، بعد أن أغلقت علينا باب غرفتهم .

كانوا معي ، كلهم ، كل الأبطال من عهد ايسخيلوس الى شكسبير وابسن وبريخت ، وبوشكين وكاتب ياسين ، وسعد الله ونوس وايميل حبيبي .

رحنـا ننفـخ فيه ، الصـور . نعيد الحـديث القوة ، بين برومونيوس وخصومه وأنصاره والمتعاطفين معه ، حول الحقيقة ، وسر المعرفة وعلاقة التينة بمولاها الذي غرسها .

كنت ضمنهم . بشعري ولباسي ، وهيأتي أركب الآلام وأعبر الزمن ، أسمـع في الـوقت الـواحد ، هاملت والبنات المستجيرات ، وآرغيس ، والعم هو ، والقاضي أصدق ، أشارك معهم في الحديث بالصمت ، أقول بدوري ، كل ماقـالـوه ، وأضيف إليه ، ان التينة كانت بريئة ، عندما كشفت عن سرها لأعدائها ، أن الصدق والنزاهة سر العشق .

قد أكون مستيقظاً ، وقد أكون نائماً ، عندما وضعت فجرية كفها على

جبهتي، كأنها تتلمس حرارتي هامسة :

ـ غريبان يقولان انهما مبعوثان خاصان من طرف فخامته قلت لهما ، أنك ، تعب ، فألحا على الاتصال بك .

أحضرت لي البرنس ، فلم أرتده ، اقتحمت عليهما غرفة التخاذل في حالة برومو ثيوسية ، محضة .

لم يفاجآ ، على العكس ، شعرا ، على ماقدرت ، بارتياح بالغ ، لم يقصدا شخصاً آخر ، غير الفنان ، ظننت ذلك ، إلا أن فجرية نبهتني فيما بعد الى أن سبب ذلك ربما يعود ، الى كونهما ، لم يجداك تحرر مناشير ، أو تنظف بندقية ، ربما كان ينتظران مجابهة محارب .

على كل حال ، هاهما أمام فنان ، تمكنت فجرية ، من اضفاء الجو العائلي علينا.بسرعة أحضرت إبريق شاي ، مع كأسين وحلوى وضعته أمامهما ، وقدمت لي كأس لبن ، وتسللت خارجة .

ـ الحالة خطيرة. فخامته ، ينتظر منك المساعدة ، هو على علم بكل ماحدث منذ اللحظة الأولى ، القوى الأخرى ، أعدت ظرفاً استفزازياً محكماً ، الهدف من ورائه ، نسف آخر الجسور بين القوى الوطنية ، المؤامرة خطيرة ، تتشعب خيوطها ، من باريس إلى واشنطن ، إلى لندن ، فعمان ثم الرياض . إنهم يكادون يتهمون ، كل وطني نزيه ، بالشيوعية ، بل ، أن بعضهم ، يروج بأن فخامته أيضاً ، كذلك .

ـ ما المطلوب بالضبط ؟

ـ في صراع التيارات ، والقوى ، دفع الوزير . إلى اتخاذ قرار عزلك ، دون الرجوع إلى المصادر العليا ، التي وضعت أمام الأمر الواقع ، فأما عزل الوزير ، وفتح جبهة ، مع قوة أنت تعرفها ، وأما ، تمرير المسألة ، بدون ضجيج ، وهذا يتطلب مساعدتك ، أنت .

ـ وماذا بوسعي أنا أن أفعل .

ـ أن تلغي أمر الاضراب الذي أصدرته نقابتكم ، نهار اليوم . تعلم أن قطاعات أخرى ستتضامن معكم ، وستحدث أزمة ، نحن في غنى عنها .

ـ أنا لم أشارك في أي فعل .

ـ نعلم ذلك .

ـ هل تتصور أن حماس مجيد لفكرة الاضراب ، كان أقوى من حماس صالح وعليوات ؟

ـ وماذا تعرفان ، عن مجيد وصالح وعليوات ؟

ـ نعرف مجيد نعمة ربك ونعرف صالحاً ، ونعرفكم جميعاً ، يا رايس . أنت انسان طيب جداً .

ـ أنت لست نسراً أحمر .

ـ تريد أن تقول ، أنني حمامة أو دجاجة حمراء .

ـ معاذ الله .

ـ فليكن غراباً أحمر . أتعرف ما يروى ، عن أن الغراب حاول تقليد مشية الحمامة ، فأضاع مشيته . وأنا ، ربما ، قلدت المشية ، واللباس أيضاً . . .

لم تكن ضحكتنا ، جميعاً ، إلا تغييراً للجو الثقيل ، الذي أحدثته ملاحظتها ، حيث سرعان ما ذابت ، ليخلفها الجد :

ـ لا نريد مزيداً من القمع ، ولا من نزوح المثقفين ، فخامته ، متوجه بصدق نحو تعاون كل القوى الوطنية . إنها هذا أمر لا يمكن أن يتم إلا على أساس الثقة ، واليقظة .

ـ أريد أن أعرف ، ما المطلوب مني بالضبط .

ـ لك أن تحتفظ بادارة المسرح ، نزولاً عند ارادة النقابة وتفتح بذلك ، معـركـة ، لا أحـد يمكن أن يتنبأ بنتائجها . ولك ، وهذا هو المطلوب منـك ، أن تفشـل خطط القـوى المضـادة ، فتستقيل ، فخـامته يعدك بالانتقام ، حالما يحين أوان ذلك .

ما إن ودعنـاهمـا ، حتى حضر عليوات ، ملوحاً ، بلائحة النقابة . وبـرقيات التأييد من فروع عنابة وقسنطينة ووهران وبلعباس ، وبرقيات عمال المناجم ، وشركة الصوف والجلد ، ومؤسسة المياه المعدنية ، وعمال الطاقة والمحروقات ، وعمال النسيج .

ـ اضراب شامل ، لا يتوقف ، إلا بخطوة ثورية جديدة.، يا رايس .

قال عليوات ، فتدخلت فجرية ، وكأنما ، ترد على الكلام الذي كان يجري بيني وبـين المبعوثين ، والذي بلغها ، بطريقة ما ، فالنساء يعرفن دائماً ، ما يقوله الرجال ، حتى وإن كانوا في القطب المتجمد .

ـ أنت لست رخيصاً إلى هذا الحد ، يا رايس . من رأيي أن يتحمل ، كل أحد في هذا البلد مسؤوليته . النسور تهاجم ، والغربان تأكل الجيف يا رايس .

فهمتهـا . فهمت رسالتها ، تمام الفهم . تأملتهما معاً . الغضب في عيونهم . غضب صادق وجميل . غضب الحياة في حركتها . لم أتساءل ، عن امكانية مجاراة الحركة ، وعن مخاطر الاستسلام . كنت أتوق للعودة إلى غرفتهم ، لأواصل معهم الحديث ، وكنت ما أزال في حالة بروموثيوسية .

ـ الرايس في حاجة إلى أن يرسو بمركبه في ميناء أثينا لقد استقلت .

شهقت فجرية ، ولطمت خديها الجميلين ، بينما خرج عليوات ، مبدياً حركات احتجاج ، كأنما يقول إنك تهين كل عزائم الرجال . وصل الباب الخارجي ، ثم عاد . نظر إلي وهتف :

ـ الذين اتخذوا قرار اهانة الضمير الوطني ، بمنعك من الدخول ، ثم بعزلك ، كانوا على دراية تامة ، بخصمهم . هذا تخاذل ، لم يحدث في تاريخ الجزائر .

تراك انتهى الشريط . استريحي . أنا بدوري تعبت أتناول قدحاً ، ثم أقلب الشريط ، وأواصل .

المشي الى الخلف

دق الجرس مرة ثالثة . خرجت فجرية وعادت .

ـ غريب يسأل عنك .

ـ أدخليه .

ـ شكله لايعجبني . .

ـ لنر من يكون ياأولغا .

ـ سامحك الله يارايس ، وسامح أولغا .

أغلق باب غرفة التخاذل بنفسه ، تأمل لحظات طويلة ، ساعته ، ثم أعلن عن رغبته في التحدث على انفراد تام ، أكدت له ، أنه ليس هناك ، انفراد أكثر من هذا . نظر الى الجدران ، الى السقف ، الى أثاث الغرفة قطعة فقطعة ، الى ساعته مرة أخرى .

ـ الرفاق يأسفون لما حدث ، ولو أنهم كانوا يتوقعونه.على كل حال ، سيشرح لك رفيق من المستوى العالي ، الموقف الحالة الاستعجالية ، والظرف الخطير ، و . . .

ـ عن أي رفاق تتحدث ؟ لقد كان عليوات ، وصالح ، هنا قبل قليل ، ثم أنهم يعرفون المنزل ، ويسهرون هنا كل ليلة ، ماذا يريدون عندي بعد أن قدمت استقالتي ، لم أعد مديرهم ، ولا مخرجهم ، ولا رايسهم ، لم يبق في هذا الهيكل الذي ترى سوى بروموثيوس ، أو

بالأصح ، هامة ايسخيلوس ، من تكون أيها السيد ؟

ضحك . اليقظة أساس نضالنا ، كما تعرف ، ثم راح يعدد أسماء شيوعيين قدامى ، من الشرق ومن الوسط ، والغرب ، بن زين ، بوعلام خالفة ، يونس كوش ، الشيخ مبارك ، وظروف تحول حركة المقاومة الشعبية ، التي اندلعت غداة الانقلاب العسكري الى حزب ماركسي لينيني .

ـ طبعاً أنت تعلم بكل هذه الأمور . . ربما يلتقي بك عضو من المكتب السياسي ، قد تكون تعرفه ولا شك . .

أوقفته عند حده ، لم يكن يصعب علي أن أمثل أمامه دور الخالي الذهن ، رغم التردد الذي يعتمل في نفسي ، صحيح أنني لحد الآن ، لازمت حيادية تامة ، تجاه التنظيمات السياسية ، لكن لم أعلن ، في أية لحظة من اللحظات ، عن تنكري لقناعاتي السياسية والايديولوجية ، أو لماضي.ألتقي بهم جميعاً ، أتحدث معهم في جميع الشؤون ، بنفس لهجتي ، ومن نفس منطلقاتي ، ولقد لف صالح حولي مراراً ، غداة الانقلاب ، لكنني عرفت كيف أصرفه . . أوهمته في الأول ، بأنه يطرق باباً مفتوحاً ، ويحاول تنظيم رفيق منظم ، تخلى عني مدة ، ثم عاد يلح بإشاراته من جديد ، الى أن النضال بدون حزب ، عبث برجوازي ، صارحته ، تظاهرت بمصارحته ، بأنني أمتلك ، معلومات وافية ، على أنه عميل للمخابرات ، وأنني بدوري عضو فيها ، كل مافي هذا البلد ياصالح ، يسير بعيون آرغيس ، وإلا كيف يتماسك نظام لايسنده الشعب. بِمَ يحكم هؤلاء الناس ، هل يعقل ياصالح ، أن يكون في هذا النظام ، من يحتل منصباً مثل منصبي ، دون أن يكون من السلك ؟ قهقه صالح . وقال أن الموساد تحاول ايهام العالم أجمع بأنها تسيطر عليه ، وأنت يارايس ، ربما

أصبت . نعرف أنك تركة ، ونعرف أنك ستصفى طال الزمن أم قصر ، كل ماأتمناه ، أن تكون بحق نسراً أحمر . ـ يومها ، لا أحد ، تنبه الى الغراب أو الدجاجة ـ عاد بعد أشهر ، يلف ويدور ، ويردد مأثرة هاملت : كن أو لا تكون ، صارحته بالحقيقة . فنان عالمي مثلي لاتحويه التنظيمات ، يكفي أن يظل يتصارع مع الأيديولوجية ، يخرق حجبها يوماً ، وتخرق روحه يوماً ، بروموثيوس ، لم ينظم عصابة لسرقة النار ، انما تناول بيده الجمر ، وراح ينثره على البشرية .

ماقيمة بروموثيوس ، لو لم يكن إلهاً ، يحب البشر . هل سيكون له ذكر ، لو لم يخرق ايديولوجيته نفسها ، ثم أنني التزمت منذ الخمسينات ، أن أعمل في إطار هذه الحركة ، تارة كريشة في جناح ، وتارة كجناح في جسد . لم أفكر ، ولن أفكر إطلاقاً في الإنفصال عن الجسد ، ولا يهمني ، مايجري فوق هنالك ، عفلق أو البكر ، بن بلله ، أو بومدين ، كريم بلقاسم أو بن خدة ، كل ذلك أوجه متعددة لعملة واحدة . صحيح أنني أتألم ، لكل انتفاض غير طبيعي ، يصيب الجسد كجزء منه ، لكن كلهم بالنسبة لي سواء ، والمهم عندي هو الحد الأدنى مما يمكن أن تعطيه التينة ، لقد أدركت على خلاف الشعب الانقليزي ، أن بيت يورك ، مثل بيت لانكستر بشعاريهما ، الوردة البيضاء والوردة الحمراء ، لاينتميان الى الشعب ، وأنه لافرق بينهما ، وبين وردتيهما ، وبالتالي فالاقتتال من أجلهما في منتهى السخف ، المعارضة نعم . الاصداح بالحقيقة ، نعم. كشف الأخطاء ، نعم. يمثل رويشد مسرحياته، نمثل مسرحياته ، ونخرجها ، واجب ، قاضي اشبيلية وألفريد فرج ، والملك هو الملك ، وسعد الله ونوس ، واجب. ولد كاكي وعرائش الكراكوز ، واجب أيضاً ، شأنها شأن رأس المملوك جابر ، نفتح الآفاق ، نمهد السبل ، نيسر العمل

للرجال . معقول .

هذا دورنا ياصالح ، أما الاجتماع في الخلايا السرية ، والمواعيد بعد الغروب. وتلقي الأوامر والتعليمات، وتوزيع المناشير، فهذا قليل علي . قليل جداً ، أقول الحق ، وارجوك ياصالح ، أن لاتحرجني مرة أخرى ، وأن لا تتبجح أمامي ، بأنك شخص خطير ، مهدد بين لحظة وأخرى ، وليكن في هذا الكفاية .

اتهمني بالسلبية الثقافية ، وباليسارية الانتهازية ، لم يقل ذلك ، وانما راح يسرد رأي لينين في الانتهازية الشريفة ، لكن كف عن تلميحاته ، بضرورة الانتماء ، والعمل المنظم ، اكتفى بالابتعاد عني ، وتجنب الجلوس معي ، أو الحديث المطول ، وحضور السهرات الليلية ، حتى حركاته في تغيير ألــوان الأضــواء على وجهي ، صارت بطيئـة ، وثقيلة ، الى حد أزعجني ، لكن سرعان ماتغير .

همس لي مرة ، بأن الحزب ، يباركني ويبارك نشاطي ، ليس هدفنا أن ننفرد بالعمل الثوري ، أو أن نحتكر الثورية ، والمهم ، أن يعمل كل منا في ميدانه ، من أجل المصلحة العليا للوطن .

والآن . الآن ، في هذه اللحظات المحرجة ، التي يتشكى فيها ، من ضغط القوى اليمينية ، حتى من كنت أظن أنه أقوى قوة في البلد ، هل أظـل أرفض . لعلهم ، رفـاق الأمس ، وشباب اليوم ، هؤلاء النسور الذين يطيرون في العاصفة الهوجاء ، ولا أحد منهم واثق من الرجوع إلى وكره . لعلهم في حاجة إلي لافشال مؤامرة ، تدبر ، ضد الزملاء ، وضد الوطن كله ، أو لانجاح خطة ، تخرجنا ، من هذه العاصفة السوداء .

هذا الشخص الملتحي ، الجالس أمامي ، يداعب نظارته السوداء ، وينظر إلى ساعته ، وإلى الساعة السوفياتية ، في الجدار ، كيف أرده

خائباً .

أعرف العمل السري ، ومقتضياته ، ومعنى أن ينتقل عضو قيادي ، من مكان إلى آخر . الخروج من المخبأ ، التنكر بأقصى ما يمكن ، شق الشوارع ، المظلمة والمضيئة ، المرور أمام الشرطة ، الالتفات إلى اليمين أو إلى اليسار ، كلما حاول مار ما ، التثبت في الوجه . الحضور بمكان الموعد ، بخمس دقائق على الأقل ، قبل الوقت ، لالقاء نظرة على المكان والتأكد من سلامته . من يدري . الشك في صلابة الرفيق المنتظر ، اليقين الاجباري ، في اخلاصه ، استعراض ماضيه والمواقف الحرجة التي عرف فيها كل أنواع الاختبارات . تتذكر تهديد الضابط المكلف بتتبع آثارك ، والقاء القبض عليك . قال في جلسة ، يعرف أن ما يجري فيها سيبلغك ، سأقلي خصيتيه في الزيت لو يقع بين يدي . لا لن يخون . تقول تطمئن نفسك . لكن الخطر أن يلقى عليه القبض ويضطر للاعتراف . أن يكون البريد ، اكتشف ، حتى بمجرد الصدفة ، وتكون العقدة ، قد حلت ، بالنسبة للمتفانين في عملية الرصد .

تمر دقيقة ، دقيقتان . قد يأتي . سيأتي . آت لا محالة . يمر أحدهم . لعله هو . لا . إنه لا يكترث بالزمان والمكان . لعله هذا القادم . كلا . لا يحمل الصحيفة في يده اليسرى . لا يشعل السيغارة ، ثم يلقيها . قد يفعل ذلك . ثلاث دقائق . مرت . ما الذي أتى بسيارة الشرطة ، في هذا الوقت بالذات . خطوات قصيرة ، في هذا الاتجاه ، حتى يكون المرء ، على مقربة أكثر من الزقاق المدرج ، المنحدر . من يدري . قد يكون الزقاق ، محاصراً في أسفله . قد تكون سيارة أخرى تنتظر . خطر لا بد من خوضه . لا . إنهم ليسوا أغبياء ، حتى يأتوا بسيارة شرطة مفضوحة ، مثل هذه . تتذكر ، أن كل عمليات القبض التي تمت ، إنما استعملت

فيهـا سيارات مدنية ، لا تلفت الأنظار . خمس دقائق . ما يزال بعض متسع . لعل الحافلة التي استقلها ، تعطلت . أوقفت ، وأنزل ركابها . طالما حدث ذلك . حصل مرة معي ، أن تأخرت عن الموعد ، بسبب الحافلة . صاحت امرأة سرقت ، يا إخواني سرقت . أوقف السائق الحافلة ، قائلاً ، سندور إلى أقرب مركز شرطة . صعقت . سيلقى علي القبض ، لا محالة . احتمال كبير . حاول أحدهم أن يقفز من النافذة ، ارتمى عليه مخبر ووضع الغل في يده . وأمر السائق بمواصلة الطريق . لم أركب من يومها حافلة . ربما ، دعاه مخبر ، ثقيل الظل ، إلى دفع ثمن بيرة في أحد البارات . يعرف المهلة ، ويقدر قيمتها ، ولا شك أنه آت . سيأتي لا محالة . المهم الآن ، الابتعاد عن مكان الموعد ، والرصد البعيد ، إذا ما حضر ، تكفي ، مراجعة لساعته ، لتنبىء عليه . ثماني دقائق . هذا السكير الذي يتبول عند الحائط ، لم يجد مكاناً آخر غير هذا . أهو سكير حقاً ؟ من يدري ؟ لعل رشاشاً أوتوماتيكياً ، في جرابه . مزعجات الليالي كثيرة. لأتَخَفَّ خلف هذه العربة. هاه. يواصل، تدحرجه. إلى الشيطان .

الدقيقة العاشرة . لم يحضر . الأمر لله . لكن لا بد من عدم الرجوع إلى المخبأ الذي قد يكون محاصراً . قد أكون في هذه اللحظات ، مراقباً . علي بانتظار الأوامر . الرفاق رتبوا كل شيء ، لكن من يدري . المواعيد الليلة ، مثيرة للشكوك والأحزان . ليكن ، ما يكون ، فالموت واحد ، والسجن واحد ، والغائب عذره معه .

ـ أيها السيد الغريب ، أراك أخطأت العنوان . حكاية الرفاق ، هذه ، كانت وانتهت . أضحت ماضياً ، وذكرى . ماضياً ، ضمن كل ماضي هذا البلد وذكرياته . كان ذلك في الأربعينات وبداية الخمسينات .

الاسلام يجب ما قبله ، كما يقول الفقهاء ، وأنا الآن موظف سام ، بأجهزة الـدولة ، اضطرته ظروف خاصة لارسال برقية ، يعلن فيها استقالته . استقال الموظف ، لكن الفنان ما يزال في ، لم يخرج مني . أنا لست بحاجة لأي موعد أو لقاء ، أو أوامر أو تعليمات . « من لم يشبع من القصعة ، لن يشبـع من لحسها » . « ومن ركبها ، ينكزها » ، و« مولى البقرة ، يوالي هرارها » . أراك أحرجتني ، أحرجت في الموظف السامي بالدولة .

قلت في قلبي ، لو كان الرفاق ، يحتاجونني ، في مثل هذا الظرف ، لما أرسلوا غير صالـح ، وهـذا الملتحي ، المتبجـح بنـظارته السوداء ، لن يكون ، إلا ثالث المبعوثين . لا ، لن أقع في أي شرك .

ها هي البسمة التي ترتسم على شفتيه ، بدون مبرر ، تؤكد لي ذلك . كان عليه أنْ يبـدي الشعـور بالمرارة ، والهزيمة ، بدل أن يبتسم . إنها هربت منه ، لتفضحه هذه البسمة البلهاء .

انصرف ، مخلفاً ورقة مطوية ، مكتوبة بقلم الرصاص .

ـ هاتي نظاراتي ، يا فجرية ، لأقرأ ما هو مكتوب هنا . لا . اقرئي أنت أفضل .

« الرابعة والربع ، قبالة محطة الأبيار ، بساحة الشهداء . يدك اليسرى تحمـل خبـزة ، ويدك اليمنى ، سيغارة غير مشعلة . يسألك الشخص الـذي يكـون بدوره مشغـول اليدين ، بجـريدة وطنية ، ونظارة بيضاء الزجاج : هل مرت الحافلة ، فتقول له . ليس في الاتجاه المنتظر » .

ضحكت فجـرية ، لسبب ما ، من أعـماقهـا ، فجأة ، تحول حزنها وأساها ، إلى هذه الضحكة الساخرة .

ـ أيتها البنت الجميلة ، ما يثير فيك هذا الضحك .

ـ لست أدري ، لكن كتفا هذا الشاب ، تقولان أنه ضابط ، ألم تنتبه

إلى خصره يا رايس ؟

ـ وهل هذا يثير الضحك ؟

ـ كثرة الهم يضحك يا رايس . أنسيت ، أنني أتخصص على يدك في الديكور . في علاقة الشكل بالموضوع . لو كانوا هم يا رايس ، لأرسلوا إليك ، شخصاً لا يلفت الانتباه أصلاً ، أما أن يحسبوك طالباً في السوربون ، فيرسلوا تشي غيفارا هذا ، فأمر يثير الضحك ، فعلاً .

ـ أحبك أيتها الزنجية العظيمة .

كان ذلك ، أول تصريح لي ، بأنني أحبها . ابتسمت ، غير مفاجأة ، وسألتني :

ـ ألم تقل لك أولغا أن المرأة تعرف بالضبط ، متى وقع الرجل في حبها ؟ أكنت في حاجة الى أن تقول لي هذا الكلام السخيف .

ـ ذاك ، أنني أريد أن أقبل ذلك الجبين الجميل .

ـ أنت هذا المساء في حاجة ، الى أم ، أكثر من أي شيء آخر .

كانت ، تكلم ، هي القبلة الأولى ، بيننا ، ابتسمت لمعت عيناها ، اعترتها رجفة ، اقشعر جسدها ، مددت يدي تقدمت مني ، بخطو بطيء ، سبقتها الحرارة ، شعرت بتيارها يسري في كياني ، نهضت ، فخيل لي أنني أحتضنتها ، لا أذكر شيئاً آخر ، غير ماصار يتكرر ، كل ماحاولت الاقتراب منها ، تهزني الرعشة ، يغمرني نور أبيض ، شبيه بسحابة ، متلولبة . ألتف وأخرج من الزمان والمكان .

ساد البيت الصمت . خرجت وعادت ، ترددت على المطبخ ، ثم عادت ، عيناها مازالتا تتألقان بانبهار غريب ، تهيأ لي أنها تحدق خلف الأشياء ، وأنها الآن ، في هذه اللحظات ، تسير في شوارع باريس، أو سانتياغو دي كوبا ، أو داكار، وأنها ترى أناساً من مختلف الأجناس، يسترقون

إليها النظر ، باعجاب شديد .

ـ اجلسي ياحبيبتي .

ـ نحتفظ ، بهذه الورقة مع نص البرقية ، لننشيء بدورنا ، ملفاً للقضية .

ـ تخفين في ذلك الرأس خيالات كثيرة يافجرية .

ـ صالح ، علمني أشياء كثيرة .

سكت . أحسست بوخز عبارتها ، جعلتني لهجتها ، أحس بأنها تعمدت وخزي ، لم تتعلم مني أي شيء ، بالتالي ، ليس لدي ماأعلمها إياه ، صالح ، لأنه نسر أحمر ، علمها ، هذا ماأرادت أن تقول ، تنهدت ، مبتلعاً للوخزة ، وسكت . أدركت أنني تألمت ، ولربما شعرت بالندم ، فراحت تغير الموضوع ، أو بالأحرى ، تعود الى الموضوع ، الذي انطلقنا منه :

ـ لقد أخافني مجيد هذا الصباح ، كانت عداوته حادة أكثر من اللزوم ، أكثر من واحد ، اتهمه صراحة بالخيانة ..

ظللت ساكتاً أتحسس الوخزة ، فواصلت :

ـ اهتمامي بالديكور ، يجعلني أثق ، في أن المسرح ، ليس فحسب ، نصباً جيداً ، وتمثيلاً متقناً ، ولباساً مطابقاً . . .

ـ إذن ماذا ؟

ـ ظروف خاصة ، تنشأ بين المتفرجين والممثلين ، لست أدري ماصلة هذا الرأي بمقولة أحد الفلاسفة القدامى ، ولا أخاله سوى أرسطو : الفن خدعة ، عملية الانتزاع ، واردة ، مؤكدة مافي ذلك شك ، لكن الكيفية ، هي محل الدراسة ، هل الخدعة وحدها ، والخدعة بأي شيء بالذات ، وفي أية لحظة ، وهل تتم لأننا مستعدون نفسياً لها . اذا

مانجحت في الباكلوريا هذا العام ، ودخلت الجامعة ، سيكون تخصصي سهلاً .

- كم مرة تقدمت لامتحان الباكلوريا يافجرية .

- تعلم . خمس مرات ، هل تركتني أنت ومسرحك ، أهتم بالرياضيات .

- وصالح ، لا دخل له في الرياضيات .

- صالح يحبني .

- وهل هناك أحد في هذه الدنيا لايحبك ؟

- أبي .

- فجرية ، هل أعرف كل شيء عنك ؟

- لا أبداً .

- كيف ذلك ؟

- الانسان لايمكنه أن يعرف كل شيء ، حتى عن أبسط الأشياء .

- أنا مسكون بك يابنت .

- أعرف ذلك ، ولا داعي لأن يفقد الرايس وقاره ، ماذا لو تستحم ، وترتدي ثيابك ، حان أن تستريح من بروموثيوس هذا .

- انحنت ، وألهبتني بالدفء ، ثم اختطفتني من الزمان والمكان .

- استعدت وعيي لأجد نفسي أفكر ، في مامر بي : كان يوم تعقل كبير . يحسب في أيام العمر ، تبدت فيه من الشجاعة على المواجهة ، بالسير الى الخلف ، كلما اقترب الخطر ، ما يذهل ، ويفوق الحدود القصوى المتصورة عن العقل ، وقوته . المصاب في حادث ، ما أن يستفيق ، حتى يروح يحصي ماتبقى وليس ماضاع . ضياع ذراع أهون من ضياع اثنتين ، الأم التي يتمزق فؤادها ، لمجرد خدش يصيب ابنها ، هاهي تجاه نفس الابن وهو

ذبيح أو مطعون ، ترسل الزغاريد تلو الزغاريد مشاركة له في حماسة افتداء الآخرين .

بين الموت اليوم ، والموت غداً ، ليس هناك أي فرق ، سوى الاحتمال اليائس للنجاة من الموت . لذا يظل أحد ملفوظي المراكب ، يتحايل على البحر وأمواجه وحيتانه ، وعلى جوعه وعطشه ، حتى ينجو أو حتى يغمى عليه ، فتتجاوزه ، المسؤولية ، يبتلعه البحر أو يلفظه حياً ـ في أحضان أحد الشواطىء . لو يخير الانسان بين الموت جوعاً ، والموت برصاصة ، لاختار الجوع ، متقدماً ثانية فثانية ، نحو بريق أمل ما ، لكن عندما يقال له ، انـك مجنـد ، لمعـركـة ، حظ الموت والحياة فيها متساويان يلبي ، بارتياح ، تنهزم الفرقة ، يبقى وحده في الخندق ، يعلم أنه يستطيع أن يرفع العلم الأبيض فينجو،أن يتسلل مولياً ، فينجو ، يحتمل جداً أن ينجو . لكنه يفضل أن يصوب آخر قذيفة في حوزته ، قبل أن يداهم ويطحن ، تحت جنـازر الدبابة ، أو يتطاير شظايا مع القنبلة.يفعل ذلك عن طيبة خاطر ، عن وعي وسبق اصرار ، يطغى عليه الإحساس ، بأنه جزء من كل ، والمهم في مايتبقى ، وليس في مايضيع .

أي وقت وأية لحظات تفكير ، يتيح للأم أن تقرر أن عليها أن تندب خديها وتمزق شعرها ، أو أن تزغرد ؟ من يعينها في ذلك ؟

من يقول للمتخبط في البحر ، أن اغلاق الفم ، واستراق التنفس ، واجتناب هجمات القرش ، قد تكون نهاية لعذاب ، وليس بداية له .

التعقـل والشجـاعـة ، والتفـويت على النفس ، لحظة الاستسلام ، لحظة ، ربـما لن تتكرر مرة أخرى في العمر . لذا لهذا السبب ، ربما ، لاقتنـاعي بأنني اخـترقت الحد الفاصل بين الألوهية والبشرية ، شعرت براحة كبرى .

سرحت . لست أدري ، ما إذا كنت أستشعر وخزة فجرية ، أم أصنع توازنـاً داخلياً ، كي يكـون ماقلتـه لها عن حبي ، وعن أشياء أخرى ، ينسجم ، والظرف الذي نحن فيه .

ـ لماذا تبتسم ؟

ـ سألتني فجرية ، ولم أكن أدري أنني ابتسمت حقاً ، مع ذلك ، قلت لها :

ـ تذكرت العجوز التي وقعت منها الزبدة في النار ، فقالت : صدقة على المرحوم .

ـ أنا ضد الاستقالة يارايس ، وضد التضحية من جانب واحد . وضد الصدقة المغتصبة .

ـ اسقني كأسـاً ، ودعيّنـا من الحسـابـات ، أريد أن أغرق في حبك يافجرية ، أريد أن نمارس بشريتنا ، بملء قلوبنا .

ـ ماذا تعني يارايس .

ـ أعني . أن نخترق الزمن ، فنخرج من نهار اليوم ، ننزل إلى المدينة ، نذرع شوارعهـا وأنهجهـا كامل الليل . يدك في يدي . نتوقف عند كل خمارة . نشرب . أريد أن أشرب الليلة . نقـترح موسيقى ، ونـرقص . يحاول أحدهـم انتزاعك مني ، فأصرعه ، بضربة من رأسي ، أو أستظهر الخنجـر ، فأنتشلك ونخـرج . أريد أن أغضب يا فجـرية . أريد سبباً حقيقياً للغضب ، يجعلني ، أتعرف على نفسي . نواصل السير . نتعب ، فنجلس ، على الرصيف ، نتحدث . أشبعك كذباً ، عن مغامرات الصبا والشباب ، وحكايات عن عواصم الدنيا . أصف لك تاج محل ، وبيتا كوبيا انفتح فجأة ، ودعاني أصحابه لتناول فنجان قهوة ، وقدح روم . عن حنان الأم في موسكو . عن غيرة الرجل في بغداد . عن حلبية ، رأيتها في

مطعم بدمشق ، يأبى خيالها أن ينمحي من بين عيني . عن اللبناني الذي قضى خمسين سنة من عمره في البرازيل ، ولم ينس التبولة ، والنارجيلة . عن العاهرات الأجنبيات في شوارع باريس . عن المصري الذي يغطس في النيل طوال النهار ، ليستخرج سلال التراب ، يزرعها فوق الرمل ليزرع فيهـا فيما بعـد . عن أجـلاف النفط في العـواصم العـالمية ، يمشـون بجلاليب ، دون تبان ، متهيئاً لهم أن الناس ستفهم ، أنهم ، متواجدون هنا ، كالثيران في حظيرة بقرات حلوب . عن بريق الدولار ، في بعض العواصم المعادية للدولار ، عن غضب المرأة الليبية ، عندما يعود زوجها بثلاثة أرطال لحم ، بدل عشرة . عن رب الأسرة الأعمى الذي يكابر في بومباي ، ليجد قوته وقوت أسرته ، بدرابكته ، وناي ابنه ، وخصر بنيته الراقصة على ايقاعاتهم . عن سائق التاكسي الكوري في باريس ، يشكو النـظام الـرأسـمالي ، ويلعن وطنه الاشتراكي . عن الشعراء في الجزيرة والخليج ، قاسم حداد ، وحمده خميس ، عن المثقفين العرب ، الهاربين من القمـع ، ينـاقشون ضرورة الوحدة العربية ، من نهر السين إلى نهر السـين. عن الغـربـان في عدن، تنعق صبـاح مسـاء، وعن اليسار في باقي الوطن الكبير ، مذكرين باسبانيا ، وفرق التطوع الأممية ، وتشبث الأوربي ، بكل شبر من أرضه انتصرت فيه الديمقراطية . عن العجائز المتصابيات ، في شوارع مدريد . عن احساس الانسان في روما بضرورة فعل شيء ما ، أمام تحدي الزمان . تسألين ، فأجيبك . لا . لا حاجة إلى السؤال ، فإنني ، لن أكف عن الحديث .

نتزل إلى الميناء ، نغامر بالاقتراب من حشاش ، نرجوه سيغارة زخمة ، تعدينه بقبلة . تقبلينه ، أستصغر القبلة ، فألح ، كي تعيديها ، يحلم بأنه يركب قارباً من ورق ، وأنت عملاقة ، تتخطين الأمواج ، وتنفخين في

شراعـه . نتركـه في الحلم ، ونصعـد إلى القصبـة ، نستظهر في أنهجها الضيقـة ، معلومـاتنـا في اللغـات الأجنبية ، ونستـدرج المارة إلى الكرم العربي ، وإلى الشهامة والأنفة . نضحك على ذقونهم ، ثم نجد أنفسنا في جحر موحو ، نسأله ، عن العلاقة بين اللغة الفرنسية ، بين مونتيسكيو ولامارتين ، وبين الاستقلال ، ومونيك ، مديرة المركز الثقافي الفرنسي ، التي يطرق بابها في منتصف الليل ، ليطلب علبة تبغ « جيتان » ويقرأ لها آخر قصيد نظمه .

لا يا فجـرية . نركب السيارة ، ونصعد إلى جبل الشريعة . نتعشى هناك . نعمد حبنا ، ثم ننزل إلى ميناء قوراية ، نأخذ قارب صديق لي ، ونخـرج إلى البحـر . ننتـظر استهـلال القمر من خلف القمم التي مهما أحصيت ، ومن أي موقـع كنت ، تجدين أن عددهـا سبـع . تشعرين بالبرد ، تقضقضين ، فأدثرك بسترتي ، تظهرين الملل ، واستهجان هذا الجنون ، فأحاول الهاءك بالقبل ، والحديث عن الريح الشرقية ، ومعجزة عدد أيامها ، التي تكون إما ثلاثة ، وإما ستة ، وإما تسعة . . .

ـ الحمام جاهز يا رايس .

قالت فجرية من هنالك ، ورغم تأكدي من أنني كنت أهذي وحدي ، وشعوري بقشعريرة حمى ، تسري في كياني ، فإنني واصلت الحديث .

ـ الريح الشمالية ، أخت الشرقية ، وعادة ما تخدع ، مثلما يقول صيادو قوراية . لكن أسـوأ ريح ، قال صديق لي ، هي الـريح الغربية . عندما سألتـه لماذا ، استغـرب كيف نسيت أن الأجـداد قالـوا « ما يجي من الغـرب ، ما يفـرح القلب » قلت له ألهـذا السبب فقط ، فهز كتفيه ، الأجداد يعرفون أكثر منا .

أتعرى ، وأثب من القارب . أغطس إلى العمق ، كي أعود ، بغصن

مرجـان . تبحثين عني في الظلمة ، ثم تصرخين مذعورة ، فأفاجئك ، وغصن المرجان ، في يدي .

أريد أن أشعر ببشريتي ، يا حبيبتي . لقد فقدت الخوف والغضب منذ مدة طويلة ، وأحس أن سيري إلى الخلف في كل مرة يجب أن أسير فيها إلى الأمام مواجهاً متحدياً ، قد تكرر ، وأنني لم أعد أغضب ، ولم أعد أخـاف . لم أعـد أخيف كذلـك . أريد أن يسكـر « جازين » ، مدينة الأمـوات احدى سكرتيه السنوية ، يا فجرية . أريد أت يسكر جازين اليوم . هذا المساء ، ورفقتك يا فجرية .

ـ الحمام جاهز يا رايس .

ـ نعود . نستحم . نتعاطى قنينة نبيذ أحمر . لا أريد غير النبيذ الأحمر ، لهذه المناسبة . نضحك ملء صدرونا ، على مستوانا المتأرجح بين الطفولة والاكتمال . بين العقل والجنون . بين ندب الأم وبين زغردتها . ترتدين ثياب أزمـيرالدا ، وأرتدي حدبة كازيمودو . ونصعد الصومعة . تحلمين بعنتر بن شداد ، عشرات العنترات بين ذراعيك ، وأحلم بأولغا واحدة . يعطي كل واحد منا للآخر ، فرصة الحلم القصيرة . ثم نستسلم للنوم الهادىء .

من العدل أن يصادف أحدنا يوماً ما ، حلمه ، وأن يشعر بالسعادة .

ـ أفضل أن تستحم ، قبل أن يمتلىء البيت بهم .

جازين يسكر

ـ هيا تستحم يارايس . . ستمرض أن أنت استمريت عارياً هكذا .

كررت فجرية ذلك ، أكثر من مرة ، لكن لم يعرها أي اهتمام ، ظل يشرب ، ويشرب ، يتحدث ويتحدث ، في رأسه فكرتان ثابتتان ، الأولى أن يسكـر، أن يبلغ احـدى قمتي جازين، فيخرج من وقاره، ويكسر كل شيء . يقتـل الميجور ، يقتل من حوله من السجناء ، ينهي هذه الموت البطيء . الثانية ، هي أن يحب فجرية ، حباً أعمى ، يصيرها أولغا ، يتزوجها هذه الليلة ، بدون قاض ، وبدون فاتحة ، وبدون أية مقدمات ، يسكن في بطنها جنيناً ، يولد في بضعة أسابيع ، ويكبر في بعضة أسابيع ، ويحمل عصا ويدافع عنه وعن أمه .

رن الجرس . اقتحموا البيت كلهم . تسابقوا على المقاعد والأماكن ، توالت التعاليق :

ـ بروموثيوس متوهج .

ـ قال عليوات ، فأضاف صالح :

ـ قليلاً من نور أحمر ، على الجنب الأيمن ، ليبرز الجرح ، وقليلاً من النور الأصفر على الوجه ، ليبرز تألق اليقين .

ـ ألا فقئت عيون آرغيس .

قال مجيد ، محاولاً ، استشفاف أثر كلمته ، على وجه الرايس .

ـ اليوم خمر يافجرية .

خاطبها الرايس فتساءل بوعلام :

ـ وغداً . . . ؟

ـ خمر أيضاً. جازين؟ إما بائع خمر، وإما شاربها.

ـ من هو جازين هذا يارايس؟

تودد مرة أخرى مجيد ، فبادره الرايس ، وكأنما يحاول تجريب أثر غضبه في الآخرين :

ـ نعمة ربك طيب .

قهقه مجيد ، يتفادى شيئاً ما ، يخشى أن يصل إلى الآخرين ، بنفس الحدة التي حملتها نبرات صوت الرايس . وتحول بالكلام الى فجرية :

ـ اليوم خمر ، طبقي أمر الرايس .

رن جرس البـاب أكثر من مرة ، فامتـلأت القـاعة الكبيرة ، وشعر الـرايس ، بالـرضـا التـام ، وقـال في نفسـه ، هذه القـاعة كالنيل كلما امتلأت ، شعرت وشعر أهلها بالسعادة .

لسبب ما ، أحست فجـرية ، بضرورة ، اجـراء لمسـات زينـة على وجههـا ، رغم أنه نبهها أول مرة رآها تفعل ذلك ، الى أنه يتضايق من الماكياج ، عندما يراه خارج خشبة المسرح ، ربما لهذا السبب بالذات ، اكتفت بوضع زيت معطر في كفها ، ومررته على وجهها ، ليتألق في المرآة ، مضفياً عليه إلى جانب البهجة ، سيماء الإنهماك الطفولي ، فيما حوله .

ابتسمت وتسللت الى غرفتها ، غرفة أولغا .

لأول مرة تقدم على هذه الفعلة التي حذرها منها الرايس ، من أول يوم وطأت فيه قدماها عتبة البيت .

أغلقت البـاب خلفهـا ، واجهت المـوضع الذي قال الرايس لها انها

تسكنه ، تأملت لحظة ، أحست بنسمة خفيفة تهب على الغرفة ، تحرك طرف ثوبها وشعرها الأشعث الذي انتصب كالابر ، شمت رائحة عطر ، لم تشمه قبل اليوم أصلاً ، لم تشعر بأي خوف بل على العكس من ذلك فرحت ، لحضور أولغا .

ـ سأحبه .

ابتسمت .

ـ سأتـزوجه . وسأملأ هذا البيت أطفالاً يملأونه بدورهم ضجيجاً، وصياحاً .

ـ رفعت أولغا حاجبها ، متعجبة ، ومع ذلك ظلت تبتسم ، اشتعل النـور وانـطفأ ، كانت أولغا بعيدة عن الباب ، لكن مع ذلك ، أشعل شخص ماغـير فجـرية ، النـور ثم أطفأه ، أحست بيد تتناول يدها ، وتسحبها الى القاعة ، دخل بها الرايس ، متألقة . وقال مزهواً :

ـ أبت إلا أن تسهر معنا ، أولغا حبيبتي .

ـ صفق الجميع ، ارتفـع صوت وداد : « رولي ياالزرقة رولي أماكي روالـة » فردت فطوم ساخرة « غاضني البرقادي في عمره واميمتو عوالة » اقتنعت فجرية بأنها أولغا فعلاً ، فراحت تبتسم للجميع ، وكأنها تراهـم للمرة الأولى ، ثم أخذت مقعداً جنبه ، وصب كأساً لنفسها .

رن جرس البـاب ، دخـل وفـد من الوزارة ، الكاتب العام ، مدير الثقـافـة ، كاتبة الوزير الشخصية ، ضابط بالزي العسكري ، سلموا بحرارة بالغة ، جعلت الرايس ، يندهش ويتساءل في سره حانقاً ، هل جاؤوا ، يسـهـرون على الميت ؟ لم يستقبلوني أمس ، وهـاهم اليوم ، أنفسهم هنا ، لاوجوه المعزين يحملون ، ولا وجوه الشامتين ، حتى مجيد ، نعمـة ربـك ، يظهر انطلاقاً وانسجاماً غريبين ، هل تدخل ، صاحب

الأمر فتغير الموقف رأساً على عقب .

ـ ماذا يريدون ياأولغا ؟

همس في أذن فجرية . فتمتمت :

ـ ربما أتى بهم الاضراب .

« رولي ياالزرقة رولي » . . .

تحلقـوا جماعـات ، حول المـوائـد المتنـظرة دائـماً ، والقنـاني التي اصـطحبـوهـا ، كل والمشروب الـذي يفضـل ، الى جانب اللحـوم ، والأجبان ، والكوامخ ، المختلفة ، ومن حين لآخر يخرج واحد أو أكثر ، لاستحضار اناء أو ثلج أو كأس ، أو يذهب الى الكنيف .

وكـان الحـديث ، يدور في كل شيء ، ماعـدا ، أحداث الصباح ، واليومين الأخيرين ، يحاول بوعلام ، أن ينطلق في تحليل معمق، حول موضوع ما، فتقطع عليه وداد حبل التفكير. كما يقول. طارحة سؤالاً، لا صلة له بالموضوع أو الجو أصلاً ، كأن تسأله ، أيهما أسرع ، الحمار المصري أم الحـمار الاسباني ، ثم تروح تسرد ، كيف كان جدها يحترف تهجين الأفراس بالحمير. عليوات ، مايفتأ يورد النوادر التي صادفته في حياتـه ضمن الفـرقة ، أما صالح ، فقد كان يتظاهر بالاستسلام لواقع بغيض ما ، دون أن يتمكن مع ذلـك ، من اخفاء تهديد ، يتراقص في نظراتـه ، واهتـمام متسـتر بالـرايس ، وبفجـرية خاصة . كأنما يريد أن يسألها ، أين بلغت المركبة ، وفي أية حال هو الرايس ؟ ولماذا هو يشرب هكذا دون هوادة على غير العادة ، لقد تعود احتساء اللبن ، حتى آخر السهرة ، ثم يتناول كأس نبيذ أحمر ، يعينه على النوم ، الضابط والكاتب العام ، يحاولان باستمرار ، التأكيد ، على أن الشعب الجزائري بالذات والصفات ، شعب همجي ، تعود على مر التاريخ ، على كره « البايلك »

وهـو بالتـالي لا يمكن أن يتذوق الديمقراطية ، ولايمكن أن يسير بغير الانضبـاط ، يكتفي الضـابط بعبـارة الانضباط فيشرحها الكاتب العام بحركة تهديد من يده : العصا . مدير الثقافة ، يتوجه باستمرار الى مجيد ، مركزاً حديثه ، على ضرورة ، فهم ضرورات المراحل التاريخية . وعن عدد ترجمات أعماله الذي يتعدى العشر ، أما بيان التأييد المتحمس ، الذي وجهه على أمواج الإذاعة ، باسم الكتاب والأدباء الجزائريين ، دون أن يستشـيرهم ، أو يأخـذ رأيهم ، غداة قلب الجمهـورية ـ تعبير قلب الجمهـورية . لم يجرؤ أحـد على استعماله إنما كان مفهوماً ، من لهجة بو علام ، وهو يشدد على عبارة التاسع عشر جوان ـ فقد كان المقصود منه ، انقاذ الجانب الثقافي في الثورة . كاتبة الوزير ، طلبت أن يخلى لها مقعد على يسار الرايس . وظلت تتردد على بيت الحمام ، لتضيف قليلاً أو كثيراً من مواد التجميل ، على وجهها ، معتذرة في كل مرة عن حادثة البارحة . لقد سبب لي تهاوني ، احراجاً كبيراً مع سعادته ، فلأول مرة أراه في مثل ذلكم الغضب . ساءه أن لا يخبر ، بوجـود حضرتك ، حال عودته من الـرئـاسـة . اللوم يقـع علي . فقـد رأيت على وجهـه ملامـح الضيق والاكتئاب ، فلم أشأ ازعاجه . في الحق ، لم يسألني ، فلم أجبه . لقد اتعظت بما حصل لي معه قبل اليوم ، في ظروف شبيهة تقريباً .. لا تتمم موضوعها . اذ يعن لها ، فجأة ، أن تغادر الجلسة ، وتتوجه إلى بيت الحمام وحالما تعود ، تستأنف موضوع سعادته . قد يأتي الليلة ، لم يقل لي ذلك صراحة ، لكن لهجته ، وهو يستفسر عن عنوان منزلك ، جعلتني أفهم ذلك .

تسللت فجرية . خلصت يدها التي ظل الرايس يتشبث بها ، يلثمها ، تارة ، ويشمها تارة أخرى ، معبراً عن شوق عارم ، وفرحة خارقة ، لهذا

اللقــاء الفجـائي . فعلت ذلـك ، بلطف ، وتسللت ، لينطلق صوت فضيلة الجزائرية من الحاكي « مال حبيبي ما لو ، هذي مدة وأنا نرجى له » تجاوب الجميع ، مع الأغنية ، فارتفعت الحنـاجر ، تردد اللازمة في كل مرة : مال حبيبي ما له .

وقف عليوات ، أمر الجميع بالسكوت ، وهتف :

ـ هذه الكأس أرفعها نخب فجرية .

ـ نخب فجرية .

هتف الجميع ، ما عدا الرايس ، الذي قال باصرار ، وبصوت بلغ الجميع ، بما في ذلك فجرية :

ـ نخب أولغا الحبيبة .

بعــد فضيلة مبــاشرة ، جاءت أغـان سياسية ، مثقلة بالتبـاريح ، وبـالـوجـد ، عقبهـا دي بيسي ، في نوكتـيرن ، ثم تشايكوفسكي ، في السمفونية السادسة .

« من أجلي . من أجل أولغا » ، هتف في سره ، ثم أغمض عينه ، مستسلماً لاعصار من الذكريات المختلفة ، يغمره . مطعم باكو ليلتها ، كان محتفلاً بنا . لكأن الجورجي الكريـم ، كان يقرأ في أعيننا ، ما يعتمل في قلوبنا . . الحلبية ذات الجسد المرمري ، كانت تدرك أنني انبهرت وأنني أصبت بها إلى حد ، أنني أدفع حياتي ، ثمناً لبسمة منها . لم تبخل علي بالبسـمات . كانت تغـافل خطيبها ، فتسترق إلي النظر ، وترسلها . لا يمكن أن تكـون ماكـرة إلى حد أن تبتسم ، لا رحمة بي ، وإنما نكاية ، واضرامـاً للنار في القلب . لا لقد احمرت وجنتاها أكثر من مرة . تلكم الحلبية ، هي التي وصفها امرؤ القيس ولا شك . . يروح الزمان . يجيء الـزمان، الزمن يأتي ويروح و كل شيء على عهده . حتى البحار « موج

التعبان » القابع في ميناء قورايا ، لا أحد يتصور ولا هو نفسه ، أنه لم يعد يركب البحر منذ سنوات ، وأن سمكة عفنة ، من يد بحار شاب تحدث السرور في نفسه ، لأن قططه ، تظل تتوهم ، أنه يتناول من البحر ، ويطعمها . ضرير الهند ، يضرب بحماسة خارقة على دربكته ، دون أن يكون له الوقت الكافي ، ليسأل أحد أفراد أسرته ، ما إذا كان هناك أحد ، يسمعهم ، ما إذا كانوا يعزفون لأحد ، وما إذا كانت البنية ، ترقص لأحدهم ، أم لنفسها ، وللايقاعات الجريحة المنبثقة منهم . . . ها هو يجيء الحصان الأدهم . خطوه بطيء ، ورأسه مطأطي . ما بال فارسه ، لا يبين ؟ ما هذه بالمشية الطبيعية ، للأدهم . هل انتهت المعركة على هذه الصورة ؟ ها الفارس يبين ، منبطحاً على صدره متدلي الذراعين والرجلين . ولدي . ولدي سقط في ميدان الشرف . تجلجل زغرودة ، تملأ الفضاء .

أعادته إلى الجلسة ، قبلة على جبينه ، طبعتها فجرية ، فتناول يدها ، وأجلسها جنبه :

ـ اجلسي أولغا حبيبتي .

ابتسمت ، وجلست . كانت تتصرف ، كربة بيت ، كأولغا حقيقية ، وكانت الغبطة تستبد بالرايس ، فيستزيد الشراب . وينسى ، السبب الحقيقي ، الذي دفعه إلى الشرب ، نسي الوزارة ، والمسرح ، والقرار ، والنقابة ، كما نسي دوستويوفسكي ، وذكريات من منزل الأموات ، وجوزين ، وأشعيا وبتروف ، ولوقا والميجر ، بصفة خاصة . من حين لحين فقط ، تلسعه ، نظرة أو كلمة من هنا أو من هناك ، فتهب عليه ذكرى النهار ، فيقول لنفسه : « إنني أمثل دور الأم التي عاد حصان ابنها من ساحة القتال ، بجثته ممدودة على ظهره . أزغرد . أزغرد ، مؤجلاً

الاحساس ، بألم الجرح ، أطول فترة ممكنة . » .

افتقد فجرية . أولغا بالأصح . ألقى نظرة على القاعة ، فلم يتبين صالحاً أيضاً . احتار لحظات ، في ضبط احساسه ، تجاه لقاء بين اثنين من هذا النوع . أيكون ضده ، أم لصالحه ؟ الثقة فيهما معاً ، قوية ، لا يمكن أن تتزحزح ، والبنت قررت أن ترتبط به إلى الأبد ، على ما يبدو . لقد قبلت أن تسكنها أولغا . لم ترض أن تكون ضرة ، فأفسحت المجال لصاحبة البيت الحقيقية . لكن أينهما الآن ؟

نهض مستأذناً ، قصد متمهلاً الكنيف ، فسمعهما يتحدثان في بيت الحمام المجاور :

ـ له كتفا عسكري . شككت في أمره ، ما أن دخل يستظهر نظاراته .

ـ يستحيل أن يتصلوا به بهذه الصفة . ثم أنهم على علم بكل شيء وهم الذين يتحكمون في الأمر .

ـ والاضراب ؟

ـ ألغيناه . ينبغي أن لا يذهب للموعد .

ـ لقد قرر ذلك من تلقاء نفسه . حتى أنه صرفه بشكل يكاد يكون طرداً .

ـ حسناً فعل .

ـ من تراه يكون ؟

ـ كيف أعلم ؟ الأمور مختلطة ، والأجهزة كثيرة . ربما من الجماعة التي يتعامل معها مجيد والوزير .

ـ أتركك . ينبغي أن أكون جنبه .

ـ لا تبتعدي عنه .

ضربت الساعة الروسية ، ثلاث ضربات . أحس الرايس بأنه بلغ

حالة جازين ، وأنهم كي يهدئوه ، أو يتمكنوا من السيطرة عليه ، ينبغي أن يباغته عشرة أو أكثر ، من الخلف ، يصرعونه ، ثم يمددونه في الفراش .

قال للوزير الذي كان حضر منذ ساعة :

ـ لقد نشرت ذكريات من منزل الأموات في عهد القيصر الذي كان يقرؤها باكياً ، فهل يمكن أن ننشر مذكرات بشير حاج علي عن التعذيب في سجون الجزائر المستقلة ؟

باغته الوزير ، وكأنها كان ينتظر هذا السؤال بعينه :

ـ هل تراه بريجنيف ، يسمح بنشر مثل هذا الكتاب الآن ؟

كان يبتسم ، موحياً بأن الأمر كله ، لايعدو أن يكون دعابات مثقفين .

تأمله الرايس ، وتأمل كل من في القاعة ، التي كانت غارقة في الصمت ، ثم تمتم :

ـ حق يراد به باطل . هيا يا حبيبتي . جازين سكر . أصرعيني .

تركهم جميعاً في القاعة ، واتجه مباشرة إلى غرفتها ، واستغرق في نحيب مرير :

ـ لا شيء يثير موجدتي ، يا أولغا العزيزة .

الهامة

طنت الساعة الروسية ماطاب لها أن تطن ، ولايدري بالضبط ، مافعل ، قبل أن يقرر مواصلة املائه ، على آلة تسجيله ، هل ذهب الى المطبخ ، وفتح الثلاجة ، واحتسى كأس اللبن ، الذي تعده فجرية ، كل مساء ، هل قصد غرفة النوم ، وأشعل النور ، ثم أطفأه بسرعة ، عندما فوجيء بالجسد الغسقي يملأ السرير ، متدثراً بقميص نوم أبيض سابري ، ثم تقدم بخطوات وئيدة ، حتى لايوقظها ، أو بالأحرى ، لايكون ايقاظها مزعجاً ، وهل حاول ككل مرة دون جدوى ، أن ينام معها.يقر العزم ، يستثار دمه ، تستيقظ رجولته ، يهزه الشوق والظمأ ، يقترب منها ، فلا يجدها ، يبحث عنها في كل مكان ، فلا يجدها. فقط يسمع صراخها آت من بعيد ، يصرخ بدوره ، يصرخ من عمق أعماقه ، يلتقي صراخها في الظلمة . يحس بأن كل شيء يتم هنالك ، حيث تلتقي الصرختان ، يمتني.تنتهي العجالة ، يوقد النور فيجدها ، جنبه تتراقص على اسنانها البيضاء ، بسمة الحب والرضا .

ربما فعل كل ذلك ، ثم حاول أن ينام ، لكن هواجس ، وخواطر ، حول المسرحية التي قرر هذه السنوات أن يكتبها أعادته الي بيت الحكمة ، ليواصل انهماكه ، ولربما عزم أن ينهي أهم ماعنده قبل طلوع النهار ، ليتفرغ إلي المعشوق ، ويتأكد مما إذا كان عمال البريد أبروا بوعدهم ، مهما

يكن ، هاهي الساعة الروسية تطنطن ، دون أن يكون هناك أحد مهتم بعدد طناتها .

« ماذا أفعل ، حديثي طال . وأنا ماعزمت إلا على كتابة مسرحية ؟

صحيح . قررت منذ أول ليلة ، أنني سأفكر ، أغتنم فرصة العودة الى نفسي في الليل ، لا لأبحث عن قطرة الماء الأولى في البحر ، أو غير ذلك ، إنما أتمعن في البحر ذاته .

لم أقل ذلك في الأول ، لكن أعتقد أنني عبرت عنه ضمنياً ، أفهمت نفسي ، أنني سأنفخ في الصور بالتعبير الدقيق ، ليس ذاكم القرن الذي طوله من المشرق الى المغرب .

ثقوبه بعدد أنفاس الخلائق أجمعين ، يخرج منه اسرافيل ، صوتاً يصعق منه كل شيء ، إنما هذه الموجدة ، التي تحولت الى غصة تخنق أنفاسي ، وتأبى أن تخرج. أنفخ بصوت يصعق كل شيء ، يصعقني أيضاً . صوت مخ يولد كل ليلة ، ويؤكل كل يوم .

في الـرابعة والربع ، وبينما انتهيت من التفكير في ليلة البارحة ، وفي أولغا ، التي نامت بجنبي بقية الليل ، وجزءاً من نهار اليوم ، متسائلاً عما إذا كانت ستعـود هذه الليلة أيضـاً ، وانشغلت بعـد أن نبهتني الساعة الـروسية الى الوقت ، بحال الرفيق عضو المكتب السياسي مشغول اليد اليسرى بجـريدة وطنية ، واليمنى بنظارات بيضاء الزجاج ، والذي قد يكون فعلاً ، أمر بلقائي ، وهو الآن يقف عند محطة الأبيار بالقصبة ، رن جرس الباب .

استعـدت انتباهي ، وتذكرت أن فجرية ، متغيبة ، حتى عن منزل أمها . فقد جاء قبل قليل أخوها يسأل عنها ، لم يكن من عادتها أن تخبرني بتحركاتها لكن لست أدري أين تكون قد ذهبت .

رن الجرس مرة أخرى ، كأنما الوافد ، يريد التأكد نهائياً من أنني لست هنا .

ماأن فتحت الباب ، حتى قابلني في المدخل ، يبتسم ملء شدقيه ، صريع مشروب اللفت الآسيوي . الوالي .

قبل . عانق . ملأ المنزل الهادىء ضحكاً وصخباً .

من أين خرجت ؟

ـ فاتتني أمسية البارحة ، لم أسمع بها إلا صباح اليوم .

ـ كانت سهرة على جنازة .

ـ لاتقل هذا الكلام يارايس .

ـ كيف تركت ولايتك ، وجئت !

ـ لقد استدعتني الرئاسة ، لأكلف بمهمة جديدة .

ـ مبروك .

ـ لا أقبل « مبروكك » هذا حتى توافق على ماجئت أعرضه عليك .

ـ نظر الى ساعته ، نظرت بدوري الى الساعة الروسية ، كانت الرابعة والربع .

ـ كنت أتوقع أن لا أجدك .

ذكرتني ملاحظته بالرفيق المنتظر ، وبرفيق الأمس ، وتأكد لي أن الخيوط مدبرة باحكام ، وأن هذه الزيارة ، أن هي الا تفقد ، لطيف .

ـ لقد جرت العادة أن أتواجد بالمنزل في هذا الوقت .

ـ ربما مواعيد طارئة ، أو أشغال ، وماأدراني .

ـ انك لم تسأل عما دفعني الى الاستقالة من المسرح الوطني ! هل شرح لك أحدهم الأمر .

ـ حدثوني بعض الشيء هناك في الرئاسة .

ـ في الرئاسة ؟!

ـ لماذا تستغرب ؟ هل تظن أن شأنك أصغر من هذا ؟ أنت دائم التواضع يارايس .

ـ لقد قال لي سيادته بالحرف الواحد . لولا الظروف الحالية ، لعينته وزيرا .

ـ هكذا إذن ؟

ـ اكتفى هذه المرة بتعييني أنا ، وقال لي بالحرف الواحد : خذه معك .

ـ هل ستعينني رئيس دائرة في ولايتك . . ؟

ـ منذ نهار الأمس ، لم أعد والياً . أنا أشغل منصب وزير التعليم العالي .

ـ مبروك . وتنتظر كل هذا الوقت ، لتقول لي هذا . الكلام المهم !

ـ لا أقبل أي مباركة منك ، حتى نقول مبروك علينا ، كلنا ، اسمع يارايس أنا في حاجة اليك . البلاد كلها في حاجة إليك ، من أجده مستشاراً ، للشؤون الثقافية غيرك ؟ الى جانب ذلك ، تتكلف بمهمة التنشيط الثقافي ، الجامعي ، بدل مسرح واحد ، يكون لك عدة مسارح ، تعمل ضمن الطلبة والطالبات على المستويين الوطني والعالمي ، كل مايخص النشاط الثقافي بالجامعات ، يكون من تخطيطك ، وتحت اشرافك نسحب استقالتك ، ونحولها الى طلب انتداب ، أطلبه بنفسي ، وأسعى على انجازه في ظرف قليل ، يكون تعيينك بقرار رئاسي ، لقد طمأنوني في الرئاسة ، على موافقتهم ، بل أن شئت الحق ، أنت اقترحت من هنالك ، صاحبنا يريد العمل ، في العمق ، في القاعدة ، ويقول أن الاشتراكية ، بدون أرضية وبدون خلفية جماهيرية شيء لامعنى له ، وغير قابل للتحقيق وعلى هؤلاء يقصدنا نحن يارايس ، ان كانوا فعلاً مخلصين للثورة ، التوجه

الى القاعدة ، ولقد أعطاك قاعدة طليعية يارايس ، الطلبة ، نعلم حق العلم ، ان موقعك هناك ، في المسرح الوطني . لكن . للظروف مقتضياتها .

نمسح الماضي تماماً ، ونبدأ من الصفر .

بينما كان يستظهر فصاحته علي ، كنت منهمكاً في التفكير بشأنه ، لماذا جاء في هذا الموعد بالذات ، الرابعة والربع ، لماذا قال أنه يتوقع أن لايجدني ؟ هل كان قرار تعيينه ، في هذا الظرف بالذات ، مجرد صدفة ، أم داخلاً ضمن تخطيط مسبق ، أم جاءت به المناسبة ؟ لماذا هو بالذات ؟

ـ أنا في حاجة الى راحة عدة أشهر ، سأتجول بضعة أسابيع في أوروبا ، ثم أعود يومها نفكر في الأمر بجدية .

ـ يستحيل ، يارايس .

ـ أنا في حاجة على الأقل إلى ترو ، والى استشارة نفسي ، فالمسألة كما ترى ، تتعلق بتغيير كامل في برنامج حياتي .

ـ لا . يارايس . انهم ينتظرون ، هناك فوق ، وعلى أن أتلفن من هنا من بيتك ، لأقول لهم أنك موافق .

ـ لنتصارح .

ـ لنتصارح .

ـ انهم منشغلون بمسألتي ، هناك فوق ، كما تقول ؟

ـ أكثر مما تتصور ، كل مايريدونه ، هو أن يطمئنوا الى تعقلك ونضجك ، ووطنيتك غير المشكوك فيها .

ـ يخشون أن أخرج من الصف .

ـ ربما ذلك .

ـ يريدون أن يدفنوني حياً .

ـ لاتقل ذلك ، يارايس .

ـ لست أدري . كيف تم مجرى الحديث بعد ذلك ، ولم أنتبه إلا على موافقتي المبدئية ، وعليه يتلفن « كما قلت لكم حضرته موافق ، وأرجو التعجيل باصدار المرسوم » .

هاهو زيوس ، ينجح في وضع الأغلال في يدي ويقيدني نحو الصخرة .

عارضت فجرية بشدة ، بلغ بها الأمر أن هددت بمقاطعتي ، وبأن لاتكون أولغا مرة أخرى. قالت إنه تسليم في كل قيمتك، في ماضيك في كل مستقبلك ، بدون أي مقـابـل . هدراً . هدراً يارايس ، يضيع الرايس ، وشرف الرايس . وهم لايستحقون ذلك ، جميعهم لايستحقون لا الشفقة ولا الرحمة.لقد كانوا يتآمرون على ادخالك السجن ، فموعد هذا المساء كان مؤامرة دبرها من دبرها ، ليلقى عليك القبض ، كانت هناك سيارات مخابرات كثيرة ، تحاصر المكان وقد حضر فعلاً ،شخص يستجيب للأمارات التي أعطيت لك ، انتظر أكثر من ربع ساعة ثم انصرف . تبعته فقصد احدى تلك السيارات ركبها وأعطى أوامر الانطلاق ، كانوا يريدون أن يوقعوك بكل صفة ، فوقعت لهم ، بأن وهبتهم نفسك ، مستشاراً ، موظفاً في وزارة التعليم العالي ...

ـ ماكانوا يستطيعون إلقاء القبض علي ، إنهم يتحاشون الفضيحة .

ـ نعم . لكن يكونون لك ملفاً ، يظلون يهددونك به .

ـ لا أرى ضرورة لذلك . هذه الثورات يافجرية .

ـ لمعت عينـاهـا ولاح منهـما شرر مرعب ، ثم عبرت شفتاها بحركة خاطفة ، عن سخرية لاذعة ، وهجرتني لبضعة أيام دون أن تتخلى عن رعايتي ، من بعيد .

بدأ التخاذل يدب في القاعة ، شيئاً فشيئاً ، وكلما طال الوقت ، استفحل كالسرطان ، مجيد ، لم يحضر ، منذ تعين خلفاً لي ، لم يسأل حتى مجرد السؤال ، استراح الابن الأكبر ، بموت أبيه ، قلت في نفسي ، عليوات ، كلما حضر ، كان سكراناً يسألني باكياً ، لماذا يارايس . لماذا ، سلمت في سفينتك قبل الوقت ؟ البنات ، في كل مرة ، يتلفن جماعياً ليعتذرن . صالح ، يأتي ليراني ، ويعمل على الاختلاء بفجرية لبعض دقائق ، وما أن ينصرف حتى تظهر وثائق ممنوعة ، أو أخبار عن اضرابات وقلاقل ، كنت في الأول استغرب ، كيف تحصل عليها بمثل هذه السهولة .

لم تعد القاعة تعمر إلا بي وبفجرية ، وذلك في فترات متباعدة ، وكلما تقابلنا ساد الصمت بيننا ، وكأنما يخشى كلانا أن يطرق موضوع فقدان الابن الوحيد ، الذي كل مافي الدار يذكرنا به .

بدا لي ، في الأول ، أن التعبير خفيف ، وسطحي،انتقال من باخرة لأخرى ، مع تغيير خط الإبحار ، ربما ، أو تغيير النواتي ، أو حتى الركاب ، فجرية وحدها أدركت ، ومن اللحظة الأولى ، أن الكارثة أعمق بكثير من الطابع الذي تجلت به .

« الانتقال ليس من باخرة الى باخرة ، وإنما من البحر الى البر يارايس . . تغيير كامل في الديكور . ممثل لا يعتلي الخشبة ، ومخرج ، لايجول في الكواليس ، ومؤلف ، لاترى نصوصه النور . . فطام فجائي يارايس . . سيظل بصرك ، يتحرق الى أنوار مصابيح صالح ، الراقصة كالأحلام ، ستظل أذناك تصيخان السمع ، لهمسات عبد القادر ، يلقنك كلما شرد ذهنك ، والى تصفيقات معجبة ، تنطلق بدون مناسبة ، لتتبعها تصفيقات كل الجمهور ، يركب الصدأ روحك ، عندما تفقد هدير

الأكف ، والقرنفلة الحمراء ، من يد غادة يتهيأ لك دائماً أنها أولغا » .

تظل ليال طويلة ، وكأنها عرافة ، تقرأ في الكف ، تتحدث عما سيقع لي . أسألها :

ـ ما العمل يافجرية ؟ الحصان الأبيض عاد من المعركة ، منفرداً وعلى ظهره ينبطح الطعين ، بدل أن أندب زغردت ، والآن من الواجب دفنه .

ـ لكن يارايس ، ليس بدون جنازة في مقام الفارس ، ليس بدون ثار ، سبعة رؤوس لا تكفي .

ـ ستظل حرب البسوس قائمة .

ـ أشعلها بين جميع القبائل ، وليس بين قبيلتين اثنتين فقط .

ـ أنا أب الفارس الطعين ياحبيبتي ، أبوه الملك ، وليس أمه أو أخته ، بل لعلني ابنه الوحيد ، وارث تاجه وعرشه ، زغردي يافجرية بدل أن تعولي .

ـ وبعد أن ينصرف الموكب ، وتنفض الجنازة ، ويتفرق المعزون والمواسون ، هل تستطيع أن تظل تكابر ، في الليل الحالك ، وطلعته تعلن الحضور الدائم ، والغياب الأبدي،الجرح ، جرح يارايس .

صدقت عرافتي السوداء الجميلة .

دام الموكب الجنائزي سنة برمتها . ثلاثة أشهر صراع في النهار ، مع مدير العتاد والتجهيز ، حول توفير المكاتب بعض مكاتب ، ولو مكتب واحد ، بعد لأي ، وبعد أن هددت بالاستقالة ، ثم العثور على مكتب ، وهو عبارة ، عن غرفة مستطيلة تقع في نهاية رواق واسع ، احتسبنا جزءاً من هذا الرواق ، وحولناه الى مقر الكتابة والوثائق ، والانتظار في نفس الوقت ، بعدها ، نشبت معركة أخرى ، دامت شهراً كاملاً كان محورها ، تأثيث مكتبينا ، وما أن اطمأنينا ، بعض الاطمئنان ، إلى استعدادتنا ،

والى امكانية الشروع في العمل حتى نشبت المعركة الطويلة ، أربعة أشهر كاملة ، وأنا أتردد ، على سكرتارية الوزير ، أو أتلفن :
ـ هذه مدة طويلة منذ طلبت مقابلة مع سعادة الوزير .
ـ مابوسعي أن أفعل ، مشغول ، اجتماع وراء اجتماع ، السنة الدراسية الجديدة ، ومشاكل الطلبة والأساتذة ، والأسفار هنا وهناك ، كل يوم أطلعه على طلبك ، فيطلب مني أن أترجاك بالانتظار ، يقول أنه سيستدعيك ، حالما يجد بعض متسع من الوقت .
ـ من يستشير اذا كان لايقابلني أنا مستشاره .
ـ آه . . هذه قضية تتعداني باأستاذ .
أخيراً انتصرنا ، استقبلني ، احتضنني ، ملأ مكتبه ، ضحكاً وصخباً ، أين كنت طوال هذا الوقت ، ياحضرت الرايس ؟ كم أنا مشتاق إليك .
ـ قبل المخطط الذي قدمته ، دون دراسته ، أو حتى الاطلاع عليه ، وبقيت مسألة الميزانية معلقة . بل معقدة تمام التعقيد . لايمكن أبداً ، تخصيص ميزانية ، لمديرية ، غير منصوص عليها ، في هيكلية الوزارة ، ذلك يتطلب أيضاً ، تعيين محاسب ، وآمر بالصرف ، ووظائف جديدة تكلف الدولة نفقات جديدة ، هذه قضية تتعدى اختصاصات الوزير ، والكاتب العام ، ومدير المالية ، ينبغي من أجل ذلك ، اعادة هيكلة الوزراة ، والموافقة على ميزانية الدولة للسنة القادمة .
ـ اذن لم يبق لوجودي معكم أية ضرورة .
قلت لسعادته ، أمام جميع موظفيه السامين ، فابتسم مطمئناً :
ـ يمكن دائماً أن نتحايل على البيروقراطية ، يعجبني المثل الذي يستعمله تلاميذ الثانويات « ماجعل القانون إلا ليخرق » لا نخرق بالمعنى

الصريح للعبارة ، لكن ينبغي أن نتحايل ، حتى نتغلب على البيروقراطية .

تم الاتفاق ، على أن ننشط ، ونقدم فواتيرنا ، إلى المديرية العامة ، لتؤشرها ، ثم تحال على المصلحة المالية للصرف . تكونون بدون شخصية مالية .

واجهنا معركة أخرى ، استغرقت بدورها قرابة الثلاثة أشهر . معركة العثور على كاتبة مقتدرة .

لا يمكن اطـلاقـاً ، توظيف كاتبـة جديدة ، فجميع المناصب المالية مشغـولـة ، بل ، أن هنـاك فائضـاً ، تسببت فيه التغييرات التي مست المـديريات. تعـلمـون أنـه في بلادنـا، كل ماتـغـير مسؤول، أتى ب « طاقمه » الخاص .

ـ نحول إليكم واحدة من الاضافيات .

ـ ما معنى الاضافيات رجاء .

ـ اللائي يشغلن مراكز وظيفية ، لكن لا يشغلن وظيفةً معينةً .

هذه لا تحسن العربية . خذوها . هذه لا تستطيع الحضور كامل أيام الأسبـوع . اليكمـوها . هذه لا مؤهل لها ، إلا قرابتها للمدير العام . أريحـونا منها . من فضلكم . لسبب ما ، ولربما لأن حالنا أضحت تثير الشفقة ، جادت الأقدار أخيراً بنجاة .

كانت نجاة ، تحسن اللغتين ، العربية والفرنسية ، وبامكانها أن تفهم ما يقال حولها بالانقليزية ، كما بامكانها استعمال بعض عبارات منها . لا يمكن القـول أبـداً أنها ليست بالجميلة ، كما لا يمكن القول أيضاً أنها جميلة . صحيح ، أنها ، ضخمة الجثة ، إلى حد يلفت الانتباه . ربما تبلغ متراً وثـمانين سنتيمتراً طولاً ، وتزن ما لا يقل عن التسعين كيلو غراماً .

يكال خدها بالشبر ، وردفها بالمتر ، على حد تعبير بيرم التونسي . لقد كان بامكانها أن تكتفي ، بكل هذا ، إلا أنها ، تبالغ في شحن وجهها الكبير ، بالمساحيق ، والألوان . ومهما كان الأمر ، فلا يسع أحد أن ينكر أن عينيها جميلتان جداً جداً . سودوان ، واسعتان ، لوزيتان ، تفرضان على باقي أجزاء وجهها ، وجسدها التناسق والانسجام . كما أن صوتها ، خاصة من خلال الهاتف ، ساحر . إنه يتناقض ، كل التناقض ، مع ما يبدو عليها من خشونة ، وغلظة . تنقلت بين صحف عديدة ، ومؤسسات ووزارات كثيرة ، آخرها وزارة الدفاع الوطني . خطبت لضابط صف ، تنتظر عودته من الشرق الأوسط ، وعثوره على سكن ، ولربما ترقيته إلى رتبة أعلى ، كي يتم كل شيء ، على مايرام . لا تفضل شراباً على آخر ، ولا رجلاً على آخر . لا تمانع في تقديم كأسها ، للاستزادة ، ولا في مصاحبة أحدهم ، بعد منتصف الليل . ينتظر العالم أجمع أن يراها في حالة سكر ، أن يراها على الأقل تترنح قليلاً ، أو تتعثر في كلماتها ، أو يرى عينيها الواسعتين ، مخدرتين ، لكن ، تسفه العالم أجمع ، وتظل هي هي ، تبحلق وتبتسم . تشرب و تأكل . توطدت علاقاتها بي وبفجرية ، وبكل ما في البيت ، بسرعة ، فصارت تملأ علينا القاعة ، والسرير أيضاً ، وكثيراً ما وجدتها اصطحبت ، ابنة خالة لها ، بديعة الجمال رائعته ، لتعرضها علي ، أمام فجرية ، قائلة إنها تريد أن تشتغل في السينما . أقنعتنا جميعاً ، وكان ذلك ، بسرعة خارقة ، أن نوم المرأة مع الرجل ، وفي جميع الحالات ، حسنة يجازي الله عليها . فقط ينبغي تفادي الحمل .

انتهت السنة . تفرق المعزون . . أصبح العمل رتيباً ، عادياً ، بدأت الهامة تخرج من قبر الفارس الطعين . ها هي تصدي كل ليلة : الدم . الثأر . الثأر .

تحققت نبوءة فجرية . الجرح برد ، وأخذ يعلن عن نفسه . الصدمة مرت . الموقف الجماعي من التضحية ، تم تجسيده . الرجل الحافية ، تتعامل رأساً لرأس مع الجمرة التي تحتها . أولغا تتشبث بغرفتها . فجرية تولي أكبر اهتمامها إلى امتحان الباكلوريا ، وإلى السياسة . ولا تثبت وجودها إلا في الاهتمام بشؤون المزل ، أو في تلبية حاجتها الجنسية بتلكم الطريقة الغريبة . حيث تتحول إلى نور لا يلمس ، وإنما يسمع من بعيد . قالت لي عجوز جارة ، أن البنت ليست إنسية ، وأنها جنية ، ستقضي معنا فترة معلومة ، ثم تعود إلى عالمها ، لكن لم أصدقها . تفرح كثيراً ، عندما أقرر السهر في غرفة أولغا ، أو عندما تقدم نجاة ، سواء بمفردها أو صحبة ابنة خالتها . تعد الخوان ، وتشعل البخور الهندي ، وتنسجم معنا لحظات ، ثم تتسلل ، لتختفي . لا يدري أحد أهي في المطبخ ، أم في دار الحكمة ، أم عند أولغا ، أم مع أمها وأخيها ، أم عند احدى صديقاتها . لكن ما أن أرفع صوتي سائلاً ، عنها ، حتى تجيب بنعم ، وتظهر جنبي كاشفة عن أسنانها الناصعة البياض . (أثبت هنا ، وهذا على هامش هذه الخطوط العريضة ، أن فجرية لها صديق واحد في العالم ، هو أنا . صحيح ، تربطها بصالح ، علاقة وطيدة ، لكن لا أشك أبداً في أحدهما . ففجرية ، وصالح ، وعليوات ، حب من حب وكره من كره ، من عروق التينة ، الممتدة في العمق ، والمستعدة في كل لحظة ، لتجديد الحياة . هامش آخر . فجرية أم الطعين . أخت الدفين . البنت الصغرى التي يبلغها صدى القتيل . لا تركبها الأنانية ، ولا تعرف لحظة تخاذل . سألتها مرة ، ماذا أمثل بالنسبة إليك يا حبيبتي ؟ ضحكت طويلاً ، ثم قالت ، كنت أتوقع أن تسألني ، ماذا تمثلين بالنسبة إلي يا أولغا ؟ قلت ، كلا . إنني جاد في سؤالي الذي لا أغير صيغته . فجرية

طالبة ، وأنت أستاذ يا رايس . المأساة قاسم مشترك بيننا ، ولعل « ايوا »
لم تمسخ بقرة ، إلا بفعل الحب . لعل أب أفوس ، لم يكن سوى تجسيد ،
لمأساة زيوس . قد تكون الأسطورة أخطأت في التعبير ، فلم تجعلنا في
مستوى تصور المعاناة .

يعشقها . تنفيها ايزيس . يتعهد بمقاطعها . تسترعي آرغيس ، ذا
المائتي عين . تتحول إلى بقرة بين المروج . تركبها الذبابة فتجن . , تظل
هاربة . يظل يلاحقها ، من سفوح الأوراس ، ربما . تقطع البحر
الأبيض المتوسط . تمر على كل جزر أثينا . وعلى آسيا الصغرى . تصل
مصر . تطؤها يده . فقط يده . تلمسها النار العارمة . تحبل .

يولد البرهان الذي كانت هيرا في حاجة إليه ، والذي كان بروموثيوس .
يعرفه .

نبوءة السر . قدر الحب الرباني .

أنا فجرية يا رايس . هامة هذا البلد .

الغرابُ الأحمرْ

طراك

تخبطت مسجلته ، تعلن عن انتهاء آخر شريط ، فارغ بين يديه ، سره ذلك ، فقد كان التعب أخذ مأخذه منه ، وكان ريقه قد جف ، وأعصابه بصفة خاصة مستثارة ، بأجواء الجنازة التي عاشها ، والتي دبروا بدقة كي تكون طويلة ، الى أقصى حد ممكن ، حتى يتم فطامه ، بصفة جيدة ، كما قال الخبراء ، بالإضافة الى التعب والى توتر الأعصاب ، هناك حنين واشتياق ، يهزانه الى المعشوق .

لقد بذل مالاً كثيراً ، كي يحتفظ له بلونه الطبيعي ، اللون الذي تبدى به أول يوم والذي ينبغي أن يتبدى به باستمرار ، ولا شك أن ذلك سره كثيراً ، صحيح هو يعرف أن العاشق ، في أقصى ذروة عشقه ، وأنه لن يتردد في أية لحظة بأية تضحية كانت ، هويعلم كل شيء ، لكن ، المرء في حاجة دائمة ، الى أن يطمئن نفسه الى اخلاصه ووفائه لمثله وقيمه . الى البرهنة ، على امكانياته وقدراته في الذهاب الى أقصى حدود التضحية ، الى النظر في المرآة ، ليتعرف على وجهه من جديد ، وفي كل مرة .

ـ انتهى جمع خيوط الموضوع . الليلة أشرع في الكتابة .

قال بصوت عالٍ ، ثم غادر بيت الحكمة ، تسلل الى غرفة النوم ، دخل دون أن يشعل النور ، كان على وعي تام بأنها هنا ، فجرية بل ، أن

طعم لحظات السعادة التي وهبتها له الليلة، لم يغادره، وصدري رنين صوتها في الظلمة آت من الأعماق، كي يلتقي بصوته، مايزال في أذنيه، ويستطعمه كما يستطعم عسلاً برياً .

ارتدى ثيابه، تقدم منها بلطف، انحنى وطبع قبلة على جبينها .

فتحت عينيها، انفرجت شفتاها المكتنزتين، عن بسمة في الظلمة، مدت يدها وتناولت يده وراحت تلثمها .

ـ كم الساعة ؟

ـ لا أدري . انه الصباح على كل حال . واصلي نومك .

ـ إلى أين أنت ذاهب ؟

ـ حيث تعودت أن أذهب كل يوم .

ـ سأنتظرك الليلة، عندي لك مفاجأة، لم تكن تتوقعها أبداً ستسر كثيراً الليلة .

ـ سأعود باكراً . نتعشى في مطعم . أريد أن أتفرغ للكتابة .

قبلها مرة أخرى، ثم غادرها وغادر المنزل، تاركاً إياها، تبحث عن الصيغة اللائقة للبشرى السارة، لقد وضع في بطنها جنيناً، في عمره ثلاثة أشهر، ينبغي أن يسر حقاً، هو الذي مايفتأ يظن أنها عذراء، وأنه لم يتمكن من وطئها إلا عبر الصوت .

كان ينحدر، مسرعاً، وقد نسيها، ونسي ليلة البارحة كلها، ونسي نفسه والعالم أجمع . ولن يتذكرها إلا حين يراها في المساء . ها هو الصقر، اختطف المخ دفعة واحدة، بمجرد خروجه من البيت، وها هو الآن ينهمك في نهش الكبد .

استدار، قطع المجاز المعشوشب، وها هو يقترب من الجسر الحوال . رفع بصره إلى فوق . الأعمدة كلها هنا، في مكانها، وكل شيء ها هنا،

في مكانه .

صعد . واجهه . كان في الموضع الذي تعود أن يواجهه منه . انتظر أن يحدث بينهما الاتصال كما جرت العادة ، كلما واجهه .

ـ ربما صبغوه أيضاً .

راح يتأمل جميع الأعمدة من بداية الطريق المزدوج ، إلى أن تختفي في الضباب . كلها مطلية ، ما عدا واحداً . لكن ، أهو هو؟ أهو الذي اتفقنا عليه ؟

ـ ربما غشوني .

أعاد النظر . انطلق صوت غراب : غاق . تأمله . كان في رأس العمود ، ينظف ريشه الأحمر ، ويسترق النظر إليه . التفت إلى الأعمدة الأخرى يتأمل رؤوسها . كان على كل واحد منها غراب أحمر . ربما نفس الغراب ، يتراءى له في كل مكان . ربما هي غربان عديدة لكنها من بلاستيك ، وضعها في الليل ، لأمر ما ، هؤلاء المجانين الذين يطلون الأعمدة . حاول أن يتجاهل الأمر ، فراح يقترب من العمود غير المطلي . انتظر اتصالاً ، ما لكن دون جدوى . التصق به ، فنعق الغراب : غاق ، تبع ذلك ، غاق كبيرة ، انبعثت من كامل الطريق .

ـ غشوني .

قال ، وانصرف ، متذكراً ، كل ما لم يكن يتذكره في النهار . خاصة فجرية ومفاجآتها السارة ، والعزم الذي أقره على كتابة مسرحية .

الطاهر وطار

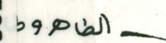
الجزائر ـ 1988

قلت في ملتقى الرواية الذي نظمه معهد العالم العربي في مطلع سنة ١٩٨٨، معلقاً على ميشال بوتور وعلى فكرة ضرورة الثورة ضد أشكال الرواية القديمة، أنني شخصياً وانطلاقاً من قاعدة جدلية الشكل والمضمون التي أعمل بها، وأطبقها بصرامة أثور في كل مرة ينضج موضوع ما في ذهني، ليس فقط على شكل الرواية العام، وإنما على الأشكال التي صنعتها أنا نفسي . فأحاول ابتداع شكل ينسجم مع المضمون . ولغة تتماشى مع الأجواء ، حتى وان تعددت في صفحة واحدة من فصل واحد من رواية واحدة. ومحاولة وضع قواعد لرواية جديدة، أو تقنين للكتابة بعناوين مختلفة، دعوة رجعية، تقودنا، طال الزمن أو قصر الى المحافظة، وإلى تقديس الشكل.

من هذا المنطلق أطلب من قرائي، أن يتعاملوا مع كتاباتي، ومع هذه الرواية بالذات، التي سيجدون فيها مذاقاً، لم يتعودوه في باقي رواياتي.

لقد فرض علي المجنون ـ وهو محور هذه الرواية ـ جنونه.

ولربما، لهذا السبب، جاءت الرواية بهذه الطريقة غير المألوفة لدي الفصول مختلطة، يمكن وضعها كما صادف، كما يمكن قراءتها بالتسلسل التصاعدي مثل التسلسل التنازلي، وبدون أي تسلسل. الشخصية الرئيسية تتفكك، بدل أن تنمى، عنصر التشويق، أو بالأحرى، الخيط الذي يربط به الكتاب قراءهم الى العمل، لايتمثل في نمو الحدث وتشعبه، وانما في البحث عن وجود حدث ما، موضوع كتابة وفي نفس الوقت، في التعمق في حالة الجنون.







١٧٠ ل.س